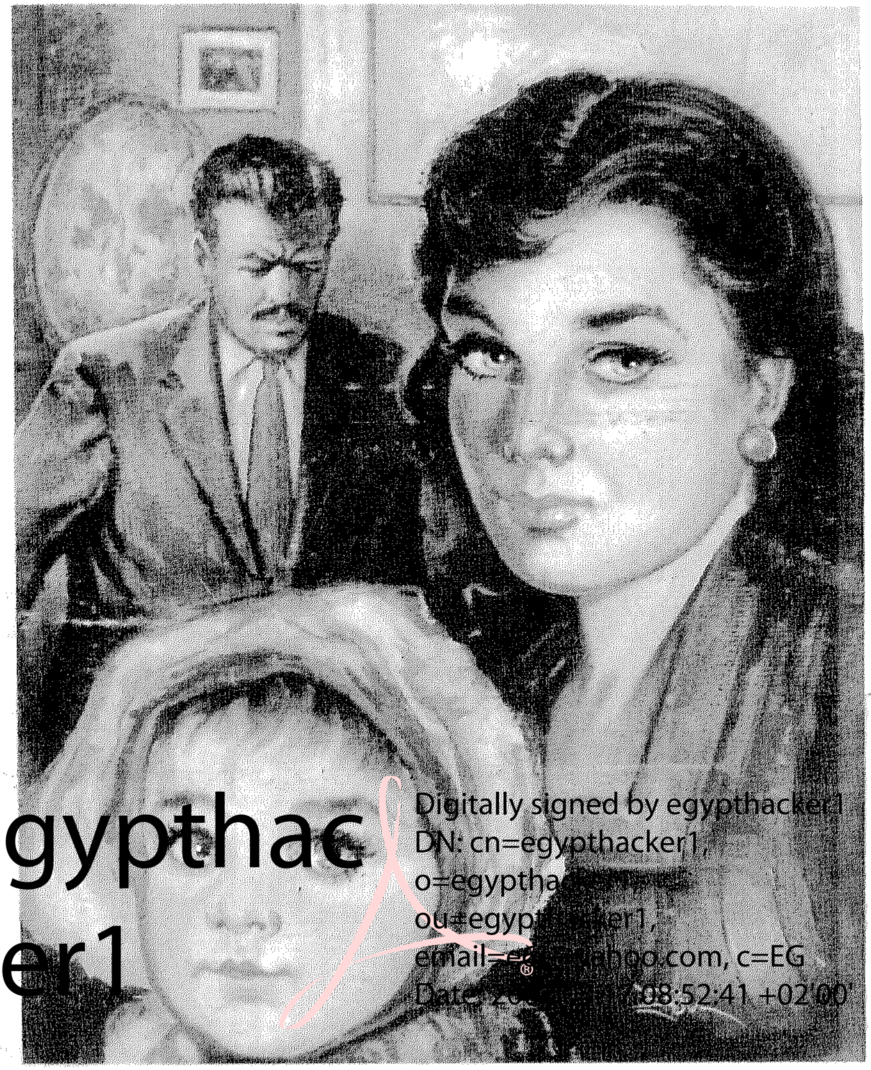
محمد عبد الحليم عبد الله



غصن الزيتون

غصن الزيتون

مطبوعات مكتبة مصر

غصن الزيتون

تاليف

محمد عبد الحليم عبد الله

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

لا تجعلنا نحب من لا يحبوننا حتى

لا تشقينا بالحب مرتين ... يا إلهي !!

المؤلف

- ١ -

قد تكون قصة غيرك هى الفصل الأول من قصتك ... وأنت لا تدرى ؟.. وعندما ينكشف لك ذلك فجأة ، تدق كفا بكف ، ضاحكا ، أو باكيا ، على حسب الظروف ..

وبعد ذلك ينكر بعضنا أن شيئا ضخما .. قويا .. مجهولا .. يسيطر على « قصص » الناس ..

وكم من ليلة سهرناها نرسم « الخطة » ، وعند مطلع الصبح فوجئنا بأن « الخطة » ، « مرسومة » على صورة لا نعلمها ...

* * *

كانوا يكثرون الحديث عن الحب ، لأنهم كانوا فى سن الشباب !!

فى السنوات التى نحس فيها بوجود « القلب » إحساسا واضحا ، قد لا يطغى عليه إحساسنا بالجوع .

كانوا كذلك ، وكنت واحدا منهم .

وكنا جميعا مدرسين فى « مدارس النصر » الحرة الخاضعة لتفتيش وزارة المعارف ، والواقعة عند ملتقى عدة أحياة وطنية ، المليئة بأبناء الطبقة الفقيرة ، وقليل من أبناء المتوسطين ، فى الرياض ، والابتدائى ، والفنون .

أما أحاديث الحب بيننا ، فقد كان لها أوقات كثيرة .

نتكلم عنه فى فسحة الظهر بعد الغداء ، ونتكلم عنه عندما نلتقى فى المساء على القهوة القريبة ، ثم نتكلم عنه همسا وبسرعة إذا اقتضت الظروف فى الفسحة القصيرة ، أو فترة التغيير ، وكنا لا نسأم .

كنا نطبخ منه ألوانا عدة ، ونصنع منه « شربات » كثيرة ، وهو شيء واحد !!

اللذة والنكتة والمأساة ... نصنع كل هذا منه ، فيمنحنا من الطاقة والقدرة والاحتمال فوق ما نحمله .

وهكذا شأن الشباب !!

وكنت بين إخوانى فى المدرسة أشبه بالمستقلين القلائل فى برلماناتنا القديمة ، لا يحسب حسابى لشخصى ذاته ، وإما يحسب حسابى داخلا ضمن مجموع . وإن أفقدنى هذا لذة التمتع بقوة الشخصية ، فقد أكسبنى لذة تأتى فى المرتبة الثانية ، ولكنها لا تتناسى ، فقد كان يتملقنى كل فريق ، ويحاول ضمى إلى صفه ، فأجنى من هذا ثمرات . وكنت غير سريع البت ، بطيئا بطبعى مترددا . فأطال هذا مدة تملقهم لى .

وكنت أبدو فى صورة غريبة ، صورة شاب راكد العاطفة خامل بليد ، لا يعنيه من أمور النساء قليل ولا كثير ، فأفادنى هذا « السلب » « إيجابا » جميلا ، هو أن كل زميل لى فى المدرسة ، كان يأتمننى على سره ، ويبثنى هواه حين يعلق قلبه بقصد ، أو بغير قصد بإحدى الآنسات من المدرسات أو الطالبات .

وكنت أشارك فى أحاديث الهوى بنقاش بارد ، لا يتناسب مع حرارتى الحقيقية ، ولا حرارة الموضوع . وقد أضحك والدمع يترقرق

فى عينى من يحدثنى ، لكنه حين يتركنى فأخلو إلى نفسى وأستعيد ما قال ، أحس من أجله ألما مناسبا .

وهذا طبعى . أكابر ، أكابر ، ثم أنهار . وأتكلف من الأمور ما يعد صعبا ، وإن كلفنى هذا فوق ما أطيق .

على أننى كنت بين إخوانى كما قلت لك ، موضع الراحة ، ومكان النجوى ، ومخبأ السر . وقد أبدى لهم من النصيحة فى أمر من أمور قلوبهم ، بقدر ما تسمح به مواهبى .

وكنت متمتعا بفضائل ولدتها بعض الرذائل فى نفسى ، أولها ـ وهو الذى أعجب إخوانى منى ـ أننى كتوم للسر ، وذلك ناشئ من أننى غير جدل ولا كثير الكلام . وأحبنى الناظر والمدير لأننى مطيع ، وذلك ناشئ من أننى أخاف . وتحدثت ناظرة مدرسة البنات عن استقامتى ، وذلك ناشئ من أننى جبان . وقال عنى زملائى إننى كريم ، أقرض مالا قد أكون محتاجا إليه ، وذلك ناشئ من أننى سريع التورط .

هذه هى حقيقة فضائلى .. وكثير من فضائل الناس زيف وبهتان .

غير أن هذا لا يتنافى مع أن حياتنا كمجموع كانت سعيدة .

كنا نضحك حتى تسيل دموعنا لنكتة يرويها حموده نظير نصف سيجارة ، قد يخطفها منه أحدنا بعد أن يقبلها القبلة الأولى (على حد تعبيره) . ونحتال على أحدنا حتى يطلب لنا إبريقا من الشاى من «بوفيه» المدرسة ، بحيل نقضى فى ترتيبها جهدا ثقيلا . وقد نهاجم زميلا لنا على حين غرة ، لنتناول معه طعام الغداء فى آخر الشهر ، حتى صار العزاب منا يأكلون فى الخارج أو يتغدون والنوافذ مقفلة .

وتأتى بعد ذلك أحاديث الهوى ...

وهى تنسج نفسها كما تفعل خلايا الجلد ، وتتكاثر وحدها مثل «بكتريا» الخميرة .

وزعنا المدرسات على المدرسين ... هكذا بالقوة ... قهرا وقسرا !! لأنه لا بد لكل ذى قلب أن يحب !! أما الطالبات الناميات اللائى يبدو عليهن أنهن أكبر من سنهن ، فقد وزعنا بعضهن على المدرسين وبعضهن على طلبة صغار ، لكنهم سكروا باكرا بخمرة الشباب .

لا بد لكل ذى قلب أن يحب !!

وبما أنني هادئ قنوع ، يبدو على الرضا والمسالمة ، فقد اختصنى الشبان بإحدى العوانس من المدرسات ، من اللائى بخلت عليهن الطبيعة بالنهاية الصغرى التى تمنحها للقمة حتى تبلع . وكنت أضحك ويحمر وجهى ، وأتكلف من الوقار ما لا يتناسب مع شبابى .

وكان بين تلك الدعابات وتلك التوافه حقيقة كبرى ، كنا نتجاهلها أحيانا ، لأن حقائق الحب تثير الغيرة ، ونعترف بها حينا لأن الحقائق تنطق الألسن .

كان بيننا من يدعى جمال أفندى .

وقد كانت القاعدة فى توزيع المدرسين على الفصول أن يختاروا لمدارس البنات أتعس الوجوه من الشبان ، أو من المسنين الذين يصلون الظهر فى فسحة الغداء .

لكن زميلنا جمال أفندى شذ عن القاعدة من كل أطرافها ، فقد كان شابا وسيما ... ولم يكن من المصلين !!

وتساءلنا عن السر ، ثم كففنا عن التساؤل ، ثم ألف الموقف الشاذ كما نؤلف القاعدة ، ثم سارت الحياة سيرة عادية ، وعلق حموده أفندى

على هذا آخر الأمر بقوله : « إن حريم السلطان ، لم يخل قط من الرجال » .

لكننى بينى وبين نفسى كنت أومن بمواهب جمال .

كان يحمل مفتاحين من أحسن ما صنع الله لفتح قلب المرأة !! يستعمل أحدهما منذ أول وهلة يلتقى فيها بامرأة ، ثم يبدأ فى استعمال الثانى بعد ذلك « على طول » .

كان وسيما ... وكان كذابا ..!! وهذان هما المفتاحان !!

والضحايا من العذارى على الخصوص ، يخرجن غالبا من تحت عجلات « الوسماء » « الكذابين » .

ولم أستطع أيام شبابى ، ليالى عاصرت هذه الحوادث ، أن أفهم السر . سر افتتان النساء بالكذابين ، لكننى بعد أن تابعت السير ، ودست فى طريق العمر على زجاج وأشواك ، فهمت السر !!

المخلوق الذى يحب النور الخافت ، ويثيره الشعاع الأحمر فى الغرف المقفلة ، لا يستهويه كثيرا أن يعيش فى الجو الطليق تحت النور الساطع ، حيث يرى كل شىء ، فلا حواجز ولا ظلام . هنا يشعر بالملل الذى يجعل سعادته أباديد . فيتثاءب ، ثم يتمطى ، ثم يتلفت بعينين ناعستين باحثا عن السعادة !! هذا المخلوق ، هو المرأة !!

ومن أجل هذا نجح جمال فى علاقاته بالنساء .

لا يحسب عوده فى الطوال ولا فى القصار ، بل هو متوسط القامة ، خفيف الحركة ، أبيض ، أصفر ، بخيل إليك حين تلقاه فى الصباح أنه سهر كثيرا ، عيناه صغيرتان عميقتان ، تثقبان كما يثقب المخراز .

ليس فى لونهما العسلى خوف ولا قلق ، ويتميز وجهه الريان بشارب أصفر ، حديث السن ، مرسوم مسبسب ، كأنه مصنوع من الشمع .

كان لا يتصل بمجموعنا إلا قليلا ، فاتهمه بعضنا بالكبرياء ، واتهمه بعضنا بأنه زير نساء . وكنت أنا الشخص الوحيد الذى يرى فضائله ، غير متيح للغيرة ولا للحقد فرصة تعمينى فيها عن مزاياه .

كان يعجبنى حديثه ، وكان يعجبهم وإن كانوا لا يعترفون .

وكانت حكاياته كوجه المرأة الذى لا يعرى من المساحيق ، نعلم أنه زائف ، ومع ذلك ... نعجب به !!

لقد أوقف الست الناظرة عند جدها فى الأسبوع الماضى ، لأنها فرحة بشبابها وسلطانها ، والحرارة التى فى طبعه لا تطيق هذا . ويقسم . ونعلم أنه كاذب ، ونصدق !!

وأحرج المفتش أمام التلميذات حتى ضحكت إحدى الجالسات فى الركن ، ومع ذلك كان تقريره من درجة (جيد جدا) . ويقسم . ونعلم أنه كاذب ... ونصدق !!

ويناوشه حمودة أفندى بنكتة ، فنضحك . ويهز هو كتفيه فى عدم اكتراث ، ثم يستأذن . فيقول له احد الغيورين :

ـ بدرى !!

ـ عندى ميعاد !!

وينصرف فى حركة رياضية .

* * *

وكان العام المدرسى قائما على قدم وساق ونحن مجتمعون فى حجرة الناظر لنعرض عليه أسئلة (امتحان الفترة) ، وكان ذلك وقت

الظهر ، والحوش الكبير يصخب بضجيج التلاميذ ولعبهم . وكانت أصواتهم تطغى على نقاشنا فى بعض الأحيان ، فيستعيذ الناظر بالله ويعلق حمودة على ذلك بصوت هامس : « ليس فى حوش المدارس الأميرية مثل هذا الضجيج » ليغيظ أحد إخواننا ممن انحصرت أمانيهم فى أن يكونوا مدرسين بالأميرى . ثم يحملق حمودة بين حين وحين إلى السيجارة التى أهملها الناظر وتركها تحترق وحدها ، ثم يلقى على بعضنا نظرة فيها حسرة كأنه يقول : « يا خسارة » فتجرى على أفواهنا بسمات نلتمس لها سببا ونحن نتكلم مع الناظر .

وما كاد اجتماعنا ينفض وينفتح باب الناظر فيخرج منه بعض إخواننا ، حتى ينفلت إلى الداخل فجأة ضابط المدرسة ، وفى يمينه تلميذ ، وفى يساره تلميذ آخر ، وتحت إبطه عصا قصيرة ودلائل المشكلة تبدو على وجه الثلاثة . كلا التلميذين باكيان والضابط غاضب وفى يده قلم حبر يتنازعه التلميذان ، ويؤيد كل منهما دعواه بالقسم والدموع ونظرات الخوف والضابط حائر فيما بينهما .

ولم يترك حموده أفندى الموضوع دون أن يعلق عليه قائلا : « إن تلاميذ المدارس الأميرية لا توجد بينهم مثل هذه المشاكل ... أهلى يا أفندم !! » وضحكنا وسمعها الناظر .. وضحك واغتاظ المدرس المقصود . وانصرف الأخوان وهممت أن أنصرف معهم ، لكن الناظر استوقفنى بقوله : بل ابق معنا قليلا أنت يا عبده أفندى حتى يصدر الحكم .

ولم يصدر الحكم فى ذلك اليوم لأن أدلة الطرفين كانت متعادلة ،

فبات القلم فى مكتب الناظر حتى اليوم التالى ليقدم كل من الطرفين أدلة جديدة .

وانصرفوا وبقينا وحدنا ... أنا والناظر .

ورأيت فى عينيه الطيبتين الصادقتين آثار كلام . كانت تبدو واضحة فى النداوة التى تمتازان بها كأنها بقية دمع . وهز إلى رأسه المستطيل المحلوق (بنمرة واحد) وقال لى :

ـ عاوزك يا عبده أفندى .

ـ تحت أمرك يا حضرة الناظر .

ـ أقفل الباب .

ووجف قلبى وأنا أفعل ، وتبادر الشر إلى خاطرى فى هذه اللحظة كما يحدث لكل الناس . وجلست على الكرسى وأنا أبلع ريقى .

ولم يستأنف كلامه بسرعة أو خيل إلى ذلك ، كما خيل إلى أن ضجيج التلاميذ فى الخارج قد أخذ يخبو حتى كأنهم دخلوا الفصول . وأخيرا ، سمعته يتكلم :

ـ هل علمت بما حدث ؟

ـ لا !! طبعا .

ـ احم ... احم ... (وأخرج المنديل من جيبه ... ثم أعاده إليه بعد لحظة) ... إذن فأنت لم تعلم .

ـ بماذا يا حضرة الناظر ؟

ـ بما حدث فى المدرسة !

ـ عندنا مدارس كثيرة ...

ـ لا ... لا ... أقصد مدرسة البنات .

ـ فهل لي علاقة بما حدث ؟!

فاحمر وجهه الأحمر ومال نحوى حتى قرب ذقنه من نشافة المكتب الذى يفصل بيننا وقال ، وكأنه يزجرنى :

ـ ليس هذا قصدى يا أجهل الناس بالدنيا . وإذا حكيت لك ما حدث ، فذلك لأبرهن لك على أننا فى مدرسة البنين نمشى علـى السراط نظافا ونحافظ على ثيابنا . (فتنهدت بارتياح) .

ـ الحمد لله !!

ـ أما هناك .. فاسمع يا سيدى :

عرض على منذ يومين مديـر المدرسـة خطابـا مجهـولا وصـل إليه بعنوان بيته مكتوبـا بخـط ردىء دقيـق (ومثـل الـرداءة بتقلص وجهه ومثل الدقة بإشارة من سبابته وإبهامه) لا يستطيع قارئه أن يعرف أهو خط رجل أو امرأة . ويتهم كـاتب الخطـاب جمـال أفنـدى المـدرس بمدارس البنات بسـوء السـلوك عامـة .. وبسـوء السـلوك خاصـة ، مـع تلميذة لا تتناسب سنها الكبيرة مع الفرقة الدراسية التى قيـدت فيهـا . لـم يذكر اسمها طبعا ، وإنما عينها بـالوصف حيـن قـال عنهـا : إنهـا أكبر تلميذة فى المدرسة !! فهمست فى تردد :

ـ عطيات ؟!

ـ عطيات !!

ومد الحروف وهز رأسه كأنه يؤمن على ما أقول !!

- ٢ -

لاحظتها بعد ذلك كأننى رأيتها للمرة الأولى !! وكنت جالسا عصر ذلك اليوم على قهوة الكوكب ، وكانت راجعة إلى البيت وسط ثلاث بنات ، لمستهن الأنوثة منذ عهد قريب ، فحنت أجسامهن . وكانت أطولهن وأجملهن وأعلاهن صوتا ، وأخفهن حركة وروحا ، وربما صح أن أقول : وأكثرهن طيشا .

ومررن على مقربة منى ولم يشعرن بى لأننى كنت خلف الزجاج . وثوبها المدرسى الشتوى الأزرق بحزام مربوط من الوراء يضغط على خصرها بشدة . كان فوق فستانها كأنه جبة لبست بالمقلوب ، فتحتها إلى الوراء ... قصيرة تلمس الركبة .

وكانت أشبه بذكر الأوز بين القطيع العائد من البركة . تتكلم وتلغط وتضحك وتقاطع وتشير فى وقت واحد . وهن من حولها يلتمسن منها الإنصات ، أو ينصتن لما تقول . وخصلات شعرها البنى التى كأنها مقصوصة من ذنب حصان كانت تداعبها نسمة خفيفة . والساقان كانتا طويلتين عاريتين أكثر من اللزوم ، كأن الملابس قصرت عليهما ، لكنهما كانتا ظاهرتى البياض .

وانحرفن إلى الشارع المجاور وغبن عن بصرى .

وجعلت أتأمل الواقفين على محطة الترام القريبة لحظة من الزمن ، وأستشف خصالهم من خلال ما يفعلون . لكن عطيات وثبت إلى ذهنى

مرة جديدة ، فأوقفتها بجانب جمال أفندى وعقدت بينهما نجوى فى مكان هادئ !!

ورأيتهما فى الموقف الغرامى جميلين منسجمين ، فقلت : (الله عليهم) !

وجهه المستطيل ينظر من فوق إلى وجهها المستدير المرفوع إليه ، وهما على النيل ـ مثلا ـ فى الظلام ، واقفان ، وشجرة وارفة تحجب عنهما ضوء مصباح الشارع ، والنوافذ فى البيوت المواجهة مقفلة كلها . وعيناه العسليتان تحدقان فى عينيها الخضراويين ، فيرى توهجهما كما ترى فسفور الساعة . ويطول عنقها من الأمام أكثر من الواقع لأنها رفعت وجهها ، وخصلات الشعر تنحى عن الجبين بين فترة وفترة . والمهم . أهم من هذا كله ، الكلام . فمه تحت الشارب المسبسب يرمى بأكذوبة بعد أكذوبة ... من قصصه المعمولة التى تعجبنا مع علمنا بحقيقتها . ونبرة صوته التى يهزها بإرادته كأنما جرت فى بدنه رعشة . والتى بين يديه فتاة تزاول التجربة الأولى ، على ما أظن ، فى حياتها العاطفية ، يملؤها الحرص على أن تنجح فى التجربة الأولى كما يملأ كل الناس . والحرص يعمى ويصم لأنه حب !!... فلا تستطيع عطيات أن ترى النفاق فى قاع عينيه الثاقبتين ، ولا أن تضبط الكذب فى ثنايا كلامه المزوق ، ولا أن تميز بين قبلة وقبلة !!

ما هذا الكلام ؟! ومن منا يميز بين قبلة وقبلة !! إن اللائى يحترفن تقبيل الرجال ، قد يرسبن فى هذا الامتحان الشاق . والمهم !!

إن حرارة كبرى تكن فى عمر ستة عشر عاما بلغتها عطيات ، تناجى فى ظلمة الليل جميلا كذابا فى الخامسة والعشرين . ثم تصدر

منها شهقة ، لأنها رأت شبحا بعيدا ، أو لأنها تأخرت عن البيت ، وربما سألوا عنها عند صاحبتها . أو لأنها خافت ممن تحبه . ثم تضغط كفه بين كفيها بقوة تناسب طراوتها ، وتودعه بقولها (إلى اللقاء) ، ثم تجرى بخفة العصفور راجعة إلى البيت ، وتدعه في مكانه ، فلا يصحبها خوف الطوارئ . وتخشخش من فوقه الشجرة ، ويلقى المصباح على وجهه شعاعا ثم يسترده .. ما أجملها !!... (الله عليهم !)...

وأفقت على قول حمودة : فيم تفكر ؟ ... وربك مدبر ! وضحك بفمه الواسع فبدت أسنانه الصدئة . وسحب الكرسى ببطء وجلس إلى جوارى وبين أصبعيه بقية سيجارة .

ولما انقضت أوهامى قلت له : لا شيء ... كنت أحسب المرتب . وطلبت له فنجالا من القهوة .

قال وهو يرتشف الرشفة الأولى : هل علمت بالحكاية الطريفة ؟

ـ أى حكاية ؟

ـ حكاية الخطابات المجهولة . فقلت بحسن نية :

ـ وهل قصها عليك أنت كذلك ؟!

ـ من هو ؟

ـ من هو ؟!... الناظر طبعًا .

فضحك وهو يطفئ بقية السيجارة فى بقية القهوة . وقال :

ـ لا . بل الناظرة هى التى قصتها على .

ـ غريب . قال حمودة :

- إن الخطاب مكتوب بخط فتاة ويبدو أنها مدرسة حساب (هأ . هأ . هأ) أتدرى لماذا ؟ لأن هناك كلمات تخرج من الناس دائما بحكم مهنهم ، وقد ورد فى الخطاب عدة كلمات من هذا النوع « هناك أغلاط بسيطة يجوز للمدرسة أن تسكت عنها ، أما الأغلاط المركبة ... » وقد استنتجت الناظرة حين وصل إليها الخطاب على بيتها ... فقاطعته :

- على بيتها ؟!

- على بيتها .

- إذن هناك أكثر من خطاب ، وقصصت عليه ما أعرف ثم ضحكنا ، وتركته يستطرد :

- استنتجت الناظرة أن كل هذا بتدبير من الآنسة فاطمة ، مدرسة الحساب .

- وهل تحب جمال أفندى ؟!

- تحب أى رجل يريد أن يتزوج ، وقد أخذت على عاتقها أن تهاجم أوكار الغرام فى كل مكان لوجه الله تعالى ، رعاية للأخلاق .

واستطرد حموده بأسلوبه الساخر ولهجته المتراخية ، يحكى من قصص الآنسة فاطمة ما صنعته الحقائق ، أو نسجته الأكاذيب ، من أنها ضيقت مرة على حبيبين حديثى السن من أبناء الجيران حولها ، فأصابها من أم الفتاة ما أصاب القرد من النجار . لأن أم الفتاة كانت ترى أن الحب أقصر طريق إلى الزواج !!

ثم انتقل حديثنا إلى صميم الموضوع ، فتناولنا من جديد شخصية الحبيبية . وأكد كل منا لصاحبه أن هذه الإشاعات لا بد أن تصنع شيئا ، لأن الإشاعة الكاذبة قد تثير العناد ، والإشاعة الصحيحة قد تدعم

الواقع ، ثم قال فى شبه دعابة : ومن يدرينا أن عطيات نفسها هى التى صنعت كل هذا ، لتجعل من نفسها زوجة لجمال فى أقرب وقت .

قلت لحمودة : وهل هذا معقول ؟!... إنها لا تزال صغيرة !!

ـ أنت لا تعرف أسرتها يا عبده . كل بنات هذه الأسرة مرتفعات الحرارة ، يعشن فى حمى دائمة ، ويغازلن فى سن باكرة . ويتزوج معظمهن عقب حادثة غرام ، أو كارثة حب . هل رأيت أمها ؟

ـ لا ...

ـ سأجعلك تراها إذن عندما تأتى إلى المدرسة لشأن من الشئون .

ـ ما لها ؟؟

ـ ترى ماضيها الزاهر على حاضرها الذابل . وتحدثك عيناها اللتان لم تنطفئا تماما بأشياء ، غريبة غريبة ... هل تسمع عن الغموض المثير ... الذى يشبه الجو الصناعى ... الجو الذى يخلقه السحرة والنصابون والمشعوذون ، ليلهموك فكرة معينة ؟ هذا الغموض فى عينى أمها . وعطيات فرع من هذه الشجرة .

ـ لكنها سقطت تحت عجلات (رمسيس) . أول من ركب العربة الحربية ...

أريد أن أقول : إنها ليست فى دهاء جمال .

ـ أعتقد ذلك ، ولكن معارك الحب أغرب من معارك الحرب ، قد لا تدل مقدماتها على نهاياتها .

ـ مثلا ...

ـ مثلا ... ؟ ... مثلا ، أنا ؟؟ أستطيع أن أحلف لك بالطلاق ، أننى

أحببت زوجتى بلا قصد ، وتزوجتها بلا قصد ، وأن أولادى الكثيرين الذين ينهشون شبابى أولا بأول ، جاءوا أيضا بلا قصد !!

ـ لا تخرج عن الموضوع .

ـ (جيد جدا) !! لن أخرج عن الموضوع ، حين ترتمى المرأة باسم الزواج فى أحضان رجل كان لها به علاقة قبل الزواج ، تصبح «مشروعية» الحوادث بينهما ذات «أثر رجعى » ، بمعنى أن أخطاءهم الماضية تخف فى ميزان « الحكم » ، ما داما قد تزوجا . ولذلك ترانى لا أرتاع إذا نما إلى علم أحد من الناس ، حادث من تلك التى وقعت بينى وبين امرأتى قبل الزواج . وأنا بالتالى ـ وبالقياس على ما قلت ـ لا أجد عارا فى أن أقص على صديق لى بعض تفاهات الهوى بينى وبين الفتاة التى أصبحت زوجتى . ذات الشريط الحريرى الأحمر المعقود على الشعر ، التى أصبحت أما مترهلة الصدر ، من كثرة المص يا عزيزى !!

واحمر وجهى من عدم التحرز ، وعجبت لاختلاف تقدير الناس ، ثم أدركت فى التو حين وقعت عينى على امرأة عارية الصدر تمر فى الشارع ، أن مصمم الأزياء هذا ، قد أدخل فى حسابه اختلاف تقدير الناس ، فأعطى العيون المتطلعة شيئا مما فتشت عنه عند فتحة الصدر .

واستدار تفكيرى بسرعة ، فاتصل من جديد بأفكار زميلى الذى كان يقول لى :

ـ كانت تسكن حارة مسدودة أيام كنا حبيبين ...

ـ يا ليتها ما طلعت منها !! وضحكنا .

ـ كان ذلك خيرًا لى . يا ليت !

ـ ولها !!

ـ وكانت فى بيت أبيها ، وكنت فى بيت أمى !! يفصل بينى وبينها مسير نصف ساعة على القدم . وكنا نتفق أحيانا على أن نلتقى فى صمت ، خلسة ، فى بيتها . وكانت تسهر لتحل واجباتها المدرسية ، حتى تسكن الحارة وتنطفئ الأنوار . وتسمع حبيبة الأمس ، وزوجة اليوم ، صوتا صغيرا أشبه بصوت طفل ينادى على بائع الزبادى عند باب الحارة على بعد ، فلا يجيبه بائع ، عندئذ تتحايل حتى تنزل إلى الحوش ، وكان صغيرا مظلما ، يستطيع الحبيبان الصغيران أن ينزويا فى أحد أركانه ، وهنالك نقف لحظة من الزمن ، لا نتكلم إلا بقدر الضرورة .

ـ ومشت الحال على هذا المنوال .

ـ ليس كثيرا . لأننى ما كنت أنادى على بائع الزبادى ، إلا إذا تأكدت أولا من أنه ليس هناك رأس رجل ولا امرأة تطل من شباك . وربما ناديت ، ثم لا ينزل إلى أحد ، لأن ظروف المنزل لا تسمح فى هذه الليلة .

ـ أما كنتما تخافان ؟!

ـ ألم تجرب مثل هذه المواقف ؟!

ـ أتريد الحقيقة ؟

ـ بلا شك .

ـ لم أجربها قط . والمستقبل بيد الله .

ـ يستطيع الناس أن ينسجوا حول أنفسهم جوا من الطمأنينة ، لحظة من الزمن ، والقنابل تتفجر فى كل مكان . كان بعض الأبواب يصر فى فتحه أو إغلاقه ونحن مستغرقان ، ومع ذلك كان كل منا مقتنعا فى قرارة نفسه ، بأن قطة هى التى حركته . وقد يعبر أحد السكان الحوش ونحن ملتصقان بالحائط ، ويعرج على مدخل السلم فيصعد دون أن يرانا .

وبدافع من الخوف (وهى غريزة أيضا !!) ، نشتبك فى قبلة أخيرة قبل أن أخرج أنا لتصعد هى ، فإذا بحلقة النهاية تستحيل إلى بداية لجديد . وننسى الحظر الذى كان همنا أن ننجو منه منذ دقيقة ، ويرفرف علينا الأمان . ـ ومشت الحال على هذا المنوال .

ـ أنت ريفى طبعا .

ـ طبعا . وما دخل هذا فى ذاك ؟!

ـ من كفر البلاص ؟

ـ لا ، يا مغفل .

ـ إذن فأنت لا تعرف البلاص .

ـ أعرفه كما تعرفه أنت ، وأنت من مواليد القاهرة .

ـ ما كل مرة تسلم الجرة . فقلت بصوت ممطوط :

ـ يا سلام !!

ـ وهذا هو الذى حدث . هات سيجارة .

ـ ليس معى سجاير .

ـ إذن فلن يحلو الحديث !!

ـ لماذا ؟!

- الجو . الجو يا أستاذ . يا أجهل الناس بشئون الناس . لا تفصل الجو عن الحادثة ، حتى لا ترى بين يديك مخلوقا لا روح فيه . خل حديث الجو على الواسع إلى فرصة أخرى ، (وحرك حاجبيه ، وضحك بفمه الواسع فبدت أسنانه الصدئة) . لكن ..

- لكن ... ماذا ؟!

- الحلقة التى سأحدثك بها الآن ، تريد سحابا معقودا من الدخان ، لا تفكر فى الشيشة فثمنها ثقيل . سيجارة تشعل من سيجارة ، وتزحف الحوادث تحت ستار من الدخان ، فتدخل إلى النفس سحرا يا مغفل !!

- هذه هى العلبة .

- حسن . كريم . هكذا يقول عنك كل الناس . كريم . من بيتك ولا شك .

حتى كانت ليلة ... فهززت رأسى وأنا أقول مثله :

- حتى كانت ليلة !! فاستطرد يحكى :

- وناديت على بائع الزبادى عند مدخل الحارة . ولم أكن أعلم أن ناسا يراقبوننى من خلال الشيش ، وتعللت ذات الشريط الحريرى الأحمر ليلتئذ بأنها ستدخل الحمام . وكان الحمام مجهزًا حقيقة . ثم دخلت وتسللت منه وأقفلته (على الفاضى) ، وتركت وابور الجاز يئز . ثم نزلت إلى الحوش !!

وبدأنا نهمس فى الظلام ، ثم خفت همسنا !!

وفجأة ، خرج مصباح من الحجرة القريبة التى كانت غارقة فى الصمت والظلمة منذ لحظة ، لمع فجأة كأنه شهاب . وكان فى يد امرأة ما لبثت أن صخبت وسبت ولعنت . وأخذت . وتهاوت الفتاة واقعة على

الأرض ، ثم نهضت متعلقة بملابسى . وألهمت شيئا فى هذه الوهلة . خمن ماذا فعلت ؟

فهززت رأسى فى ارتباك . فعلق قائلا :

ـ لخمة !!

ـ قل أنت .

ـ نفخت مصباحها فانطفأ ، واستدرت نحو الباب لأركض إلى الحارة .

ـ ونجحت الخطة ؟

ـ كادت تنجح ، لولا أن عوامل خارجة عن « التكتيك » تدخلت فى المعركة .

أمسكت المرأة بتلابيبى وصرخت . سمعت أم حبيبتى الصرخة ، فاستيقظت من نومها ، لأنها ظنت أن حادثة جرت لبنتها فى الحمام . ذهبت إلى هناك وضربت بابه برجلها فى غير وعى ، فلم تجد إلا الصفيحة والوابور والليفة والصابونة ، وقبل أن تفيق ، رأت بنتها داخلة من باب الشقة . وكانت فضيحة ..!!

ـ خزاك الله !!

ـ ألم نتفق ؟! نحن متفقان قبل كل شىء يا صديقى الجاهل ، على أنه حيث ترتمى المرأة باسم الزواج فى أحضان رجل كان له بها علاقة قبل الزواج ، فإن « مشروعية » الحوادث بينهما تصبح ذات « أثر رجعى » ، بمعنى أن أخطاءهما الماضية تخف فى ميزان « الحكم » ، ما داما قد تزوجا .

وضحك بفمه الواسع فبانت أسنانه الصدئة ، وانصرف بخطًا طويلة ، ولم ينس أن يقول لي آخر الأمر قبل أن يفارقني :

ـ السلام عليكم ... خيبة الله عليك !!

* * *

ولم تتبدل الحال كثيرا خلال الأشهر التالية .

لا بالنسبة إلى ، ولا بالنسبة إلى زملائي ، ولا بالنسبة إلى عطيات وجمال بعد حكاية الخطابات المجهولة . لأن المرونة كثيرا ما تخدم أصحابها ، وجمال أفندى يتمتع بمرونة الحديد الصلب !! فليتنى كنت مثله !!

ومنذ أواسط شهر أبريل ، والمدارس تستعد لحفلتها السنوية . وهذه فكرة المدير . وهو ينشد من ورائها الدعاية والترفيه وترقية الفن !! وكانوا يحشدون لهذا العمل كل « طاقة » و« مجهود » في المدرسة ويطلقون عليها اسم « مواهب » ، وقد يسمونها « عبقريات » . التلاميذ والتلميذات والمدرسون والمدرسات ، مجندون جميعا لتنجح حفلة آخر السنة .

وكان لجمال أفندى اليد الطولى فيما يساهم به في هذه المناسبة . وهو بطبعه ميال للحركة ، ومن الذين يحبون أن يلفتوا الناس إلى أعمالهم ولو كانت تافهة ، فضلا على أنه كان له في التمثيل سابقة حديثة أيام كان طالبا ، وكان مولعا ببعض الممثلين المشهورين في ذلك الوقت ، حتى إنه كان يحاكيه كلما داعب صديقا له . وقد قابل المدير في منزله قبل هذه الحركة ، وألقى بين يديه قطعة تمثيلية ، حتى إن الرجل على وقاره ، دعا أولاده ليشهدوا هذا الممثل المتجول !!

كان جمال لا يعرف الحياء ، وربما كان هذا من أخص مؤهلاته .

وانقضت ثلاثة أسابيع فى الاستعداد والتنظيم . كان يأتى فيها إلى المدرسة فى وقت باكر ، وينصرف فى وقت متأخر ، وكثيرا ما يعود فى المساء .

كان يدرب التلميذات وبعض المدرسات والتلاميذ الذين سيشتركون فى التمثيل ، أما الموسيقا والألعاب ، فقد كان لها شأن آخر .

وفى أصيل معطر من أحد أيام مايو ، فى يوم ربيعى جميل ، كانت مدارس النصر مجلوة كالعروس الفقيرة . كان بناؤها قديما لا رونق له ، لكن المدير بذل جهده فى أن يطلى حيطانها بالجير ، وإن تغلب عليه فى بعض أماكنها نشع الجدران . وهناك جزء من السور لم يكن تم بناؤه ، فصفحوه بالصاج القديم ، ثم طلوه بالجير . وفرشت الأحواش بالرمل ، ونظف الفراش الشارع أمام المدرسة . وعلقت على الأبواب رايات . وجعل من مناضد الطعام خشبة مسرح ، وأجرت كراسى وملابس وستارة . وقبل بدء الاحتفال بساعة ، كان البيانو يرسل ألحانه من غرفة داخلية .

أما جمال افندى ، فقد كنت تلقاه فى كل مكان يتواثب كأنه النحلة فى بنطلون أبيض ، وقميص من البوبلين مفتوح من على الصدر . وكان مهندما مرهقا شاحبا فرحا كأنه فى شهر العسل . وكنا جميعا ننظر إليه بشىء من الحقد والغيرة . أما أنا ، فكانت غيرتى منه تظهر فى صورة غير مألوفة ، هى الثناء والمديح والمبالغة فى الإشادة بما يفعل وما يقول ، لأتيح لغيرى من المدرسين فرصة الهجوم عليه ، فأروى بذلك ظمأ نفسى من طريق خلفى .

وعلق اسمه بفم المهتمين بالحفلة من ذوى الشأن . فكان كل منهم لا يسأل إلا عن جمال .

وانعقد فى سماء الحى غبار خفيف ، يشوبه ضجيج أطفال ونسوة ، ممن يقصدون إلى المدرسة . وصفق الحاضرون جميعا ، حين دخل مدير المدارس ، خلف زائرين كبيرين ، أحدهما هو مراقب التعليم الحر ، والثانى مراقب المستخدمين فى المعارف . وهمس بعض الجالسين فى ثقة قائلا : « خلاص .. نجحت الحفلة » !!

وارتفع صوت من زاوية مجهولة يقول « هس » فشمل السكون إلا من بكاء طفل على ذراعى أمه ما لبث أن انقطع . واتجهنا كلنا نحو المسرح بأعين وقلوب ، وسمعنا الدقات التقليدية التى تسبق رفع الستارة ، ثم تحركت لتتكشف عن مشهد من مسرحية قصيرة ، تصف ما تعانيه أمثال هذه المدارس من عنت ، وضيق موارد ، وصعوبات اجتماعية تقف فى سبيلها نحو التقدم . وما تؤديه بعد ذلك للناس من خدمات (هذا ما أرادوا أن يقولوا) .

وكان الأثاث يمثل غرفة ناظر مدرسة ، وقد جلس الناظر على المكتب ...

وتهامس التلاميذ والمدرسون وبعض أولياء الأمور تو انكشاف المنظر : « الله !!... الله !! من هذا ؟!.. هو بعينه والله العظيم » .

كان يلبس طربوشا طويلا داكن الحمرة ، وحلة واسعة تبدو من تحت ياقتها ياقة بيضاء منشاة طويلة ، فيها رباط عنق أسود ، وبعد ذلك منظار سميك ، وله شارب تركى مبروم جرى فيه الشيب . وعلى المكتب أوراق كثيرة وبعض كتب وكراسات .

ويدق الناظر جرسا أمامه بتأفف وقلق ، فيدخل عليه الفراش ، وهو تلميذ يلبس جلبابا ، عرفه إخوانه وهللوا له . فانبعثت كلمة (هس) من عدة أركان ، وساد الصمت ، وطلب الناظر كوبا من الماء ، ودخل به الفراش بعد برهة وهو يعلن حضور أحد أولياء الأمور ، وفى يمينه بنت صغيرة يريد أن يلحقها بالمدرسة ، ويطلبه الناظر فى اهتمام ، وينصرف الفراش من أحد جوانب المسرح ، ويدخل من الجانب الثانى رجل ضخم الجثة ، طويل ، ذو كرش عرفوا فيه كاتب المدرسة ، عليه جلباب كحلى من الصوف ، وقد تعمم بكوفية من الحرير فوق قلنسوته ، وفى يده بنية بنت ست سنوات ، فى عينيها الخوف من المجهول .

وتبدأ مساومة غريبة مضحكة ، بين ولى الأمر تاجر السمك ، وبين الناظر حول النفقات المدرسية التى ستدفع لبنته التلميذة . وبعد جهد طويل تنتهى المفاوضات بالفشل ، ويهم ولى الأمر أن ينصرف وبنته فى يده ، لأن محور الاختلاف كان ريالا واحدا فى السنة . ويستدير السماك وهو يقول للناظر ، بصوت غليظ مخنوق معا : « معلهش ... تبيع راجل بريال ... معلهش .. نروح لغيرك » ...

ويضج الجمع بالضحك . ويميل مدير المدارس على أذن مراقب التعليم الحر . ويهمس ناظر البنين فى أذن مراقب المستخدمين . وتضحك الناظرة فى وجه إحدى المفتشات ، ويرتفع صوت فى آخر الحوش ليقول : « أعد » ، فتعاكسه من كل مكان كلمة « هس » .

وهنا يستنجد ناظر المدرسة على المسرح بالفراش ، وهو يستوقف ولى الأمر ويقول فى ضجر وألم وأمل ، كمن يريد أن ينقذ الموقف :

أنا غير قادر على التفاهم مع هذا الرجل . ابعث إلينا بالآنسة سميرة المدرسة ، فربما كانت أكثر قدرة منى على التفاهم ...

ويتحرك وفى الأمر عائدا إلى الداخل ، فتزقزق من تحت قدميه أظهر المناضد التى تكون المسرح ، فيقول أحد الجالسين من النظارة : « يا رب يا ساتر » ، ويكتم القريبون من الخشبة ضحكة . ثم تدخل من الباب الجانبى الآنسة سميرة المدرسة فى فستان أسود ، كأنها تلبس الحداد ، فى يدها حقيبة من الجلد منفوخة بما فيها من أعمال مدرسية ، وعلى عينيها منظار أنيق ، وعلى ثوبها غبار أبيض من السبورة ، فيصفق الحاضرون . وتسرى همسات : « عطيات ؟!... نعم ... عطيات ؟!... ذلك واضح » . إذن فمن هو الذى يقوم بدور الناظر على المسرح ؟... جمال افندى ؟!... نعم ... جمال افندى .. لقد أخفاه (الماكياج) لكن صوته لا يخفى ...

قلت فى نفسى شيئا ، قاله المدرسون ولا شك : « هما دائما معا!!». وبدأ الحوار من جديد ، والناظر ساكت مكب على أوراق يشطب فيها الحوار بين عطيات وولى الأمر . واستأنف من النقطة التى توقف عندها . من عند الريال تماما . فإذا بعطيات فى ثياب الآنسة سميرة ، تقول للرجل الضخم ، بصوتها المتدفق الحار اللين الأخاذ : « ريال واحد ... تختلفون عليه ... سأقسمه على شهور السنة ، وأدفع للبنية العزيزة كل شهر خمسة عشر مليما من جيبى ... من أجل جمالها » .

وربتت على خدها ، ثم مالت عليها فقبلتها ، حتى تراجع الفستان عن ساقها البيضاء .

وكان الناظر على المسرح لا يزال مكبا على الأوراق ينظر بزاوية عينه ويشطب ويشطب ، والطفلة الصغيرة تبتسم . أما الرجل البدين ، فقد بدا عليه الاقتناع ، وأخذت المشكلة في ذهنه صورة أخرى ، وانصرف همه إلى التطلع إلى المدرسة الجميلة بعينين نهمتين ، حتى إنه ترك الطفلة من يديه ، وعقد ذراعيه على صدره ، وارتخت شفته السفلى تحت فمه الكبير في موقف كوميدى ، فبدا كأنه « مسطول » ، وانسجم المنظر مع هيئة الرجل عدة ثوان ارتفع فيها الضحك ، والناظر على المسرح مبالغ فى الانكباب على العمل ، كأنه لا يرى ولا يسمع . ثم انتهى الموقف بأن قال الرجل البدين للآنسة سميرة : « يا سلام يا ستى ... ريال ؟! ريال ؟! اطلبى رقبتى » .

وشد على عنق نفسه كأنه يريد أن يموت ...

- ٣ -

وتوقعنا بعد نجاح الحفلة خيرا كثيرا لمدارس النصر ، فى الموسم القادم !!

ولم يعد الغيورون منا يؤملون فى أذى الخطابات المجهولة ، التى كتبت ضد جمال افندى ، فقد داست مواهبه كل هذه الأشياء ، ونفخها بشجاعة ، فتطايرت كما تتطاير رغوة العرق سوس من فوق وجه القدح .

وانشغلنا فى الامتحان والتصحيح وإعلان النتائج . وأخذ تردد التلاميذ على أبواب المدارس يقل يوما بعد يوم ، حتى أقفرت الأحواش ، وعلا الغبار أدراج التلاميذ ، وأقفلت المدارس أبوابها لمقدم الصيف ، وأخذت كل بلدة تجذب نحوها أبناءها من المقيمين فى القاهرة ...

لكننى لم أسافر .

لم يكن فى قرينى شىء يشغلنى ، أو يدعوننى إلى السفر ، فضلا على أننى بطىء الحركة ، ركين بطبعى . وأرسلت لأمى خطابا أطمئن فيه على صحتها ، وعلى حال أختى : زينب وتوحيدة ، وعن الجديد فى حياة هؤلاء الثلاث ، فجاءنى الرد بعد أسبوعين ، خطابا لا طعم له ، عامرا بالعبارات المحفوظة ، مكتوبا بيد أحد الأقارب .

وكثير منا يفضل الإقامة فى المدينة مدة الصيف ، لما عسى أن يصيده من رزق . درس خصوصى ، أو درسان لتلميذ أو طالب ، من الذين يعثر بهم حظهم فى الدور الأول .

لكننى لم أكن كثير الصلات بالناس ، ولا ماهرا فى تمويه الأمور ، لذلك كنت أقل إخوانى حظا فى تصيد هذا النوع من الرزق .

أما شقتى التى أسكنها ، والتى كنت ألزمها معظم ساعات النهار فى إجازة الصيف ، فقد كانت شبيهة بى : فيها أشياء لا لزوم لها ... حجرتان شغلت إحداهما بأثاثى ، وتركت الأخرى يشغلها الغبار . وفيها هدوء ، لأنها فى حى من الأحياء (الجانبية) إن صح هذا التعبير ، زحف على خراب المدينة ، فاختط نفسه بيوتا . ففى الحارة التى أسكنها كنت ترى حياة جديدة ، وموتا قديما . على اليمين صف من المساكن ،

وعلى اليسار سور من البناء فى طول قامة الرجل ، يحيط بقطعة أرض كانت فى الأصل مدفنا لإحدى الجاليات الأجنبية فى مصر ، ثم تقادم عليها العهد ، فنسى الموتى ، فلم يعودوا يذكرون . وانطمست الشواهد ، وتكسر بعضها ، ولم يبق فى المكان ما تتجدد فيه الحياة ، إلا الشجر المتفرق المخضر الذى يبدد وحشة المكان .

وكنت أرى المدينة ، من خلال الشباك ، عبر هذا الفضاء . وأشهد فى النهار تسلق الصبيان للسور ، والثغرة التى نجحوا فى فتحها ، باستعمال الحديد والخشب والحجارة . ثم اتسعت الثغرة على مرور الزمن .

وكنت أبعثر وقتى الطويل الواسع فى أعمال تأتى كما اتفق . أجلس على القهوة ، أو أزور صديقا ، أو أنام فى وقت اليقظة ، أو أقرأ . لكن ماذا كنت أقرأ ؟ أشياء تافهة لا ترتبط بثقافة معينة ، وكتبا تستعمل منوما ، أمسك أحدها وأنا مستلق على ظهرى ، حتى أستغرق فى النوم .

ولم أعد أرى حموده لأنه سافر ، ولا جمال أفندى لأننى لا أعلم عنه خبرا ، ولم تعد عطيات تمر فى الشارع وسط اثنتين أو ثلاث من صديقاتها ، وقد ظهرت عليهن فى كل شىء ، حتى فى الطول . وكان طعم (الوقت) فى حياتى فى هذه الفترة ، أشبه بطعم (الوقت) الذى يعقب نوما أطول من المعتاد ، فيه فتور ليس نوما ، وفيه انتباه ليس يقظة .

وعزمت على أن أسافر إلى القرية عصر يوم من الأيام ، ولكننى أجلتها لأول الشهر ، وساعد على ذلك مجىء حموده من بلده ليقبض

مرتبه ، ثم يعود . وأحسست بوطأة الوقت تخف نوعا حين وجدت من يشاركني تضبيع أوقاتي . ثم سافر وتركني وحدى ، وكان ذلك في صباح يوم ذهبت في عصره لزيارة أحد الأصدقاء .

كان صديقي يسكن الطبقة العليا من المنزل الذى أقصده ، والمنزل مكون من أربع طبقات . وكنت وأنا أصعد السلم أحك قدمى فى حجر كل درجة ، لأحدث صوتا مسموعا أنبه به الساكن إذا كان بابه مفتوحا ، إلى أن أحدا فى الطريق ، وكانت هذه العادة أيسر فى نظرى من الهتاف بكلمة « يا ساتر » .

وقبل أن أصل إلى الدور الثالث ، سمعت حديثا على بسطة السلم . كان يبدو منه أن ناسا يودعون ناسا ، وأن الطرفين كانا يتمنيان أن يطول بينهما الحديث ، لولا ضيق الوقت !! وحككت أقدامى فى الحجر ليسمع الواقفون رجالا ونساء ، ولكن الجلبة كانت أقوى من ذلك .

وخيل إلى بعد أن اقتربت ، أننى أعرف أصواتا فى هذه الأصوات . ولم أر بدا من أن أقول « يا ساتر » ، بعد أن استطاع الواقفون على البسطة أن يروا رأسى ووجهى على بعد عشر درجات . وارتفعت فى هذه اللحظة ضحكة شاب ، وضحكة فتاة ، كانتا مخلوطتين تماما ليس بينهما فجوة ، ثم ضحك بعض الباقين ، ثم انفرد صوت الشاب يقول وكأنه يشجعنى :

« الله ...؟! اتفضل يا أستاذ عبده . اتفضل يا أخى السكة فاضية ...» ، واستأنف ضحكه بخفة ، وابتسم الباقون ، وابتسمت ووجهى محمر ، وفى نفسى انفعالات كثيرة ، كان أميزها الغيرة .

كان جمال أفندى خارجا من شقة أهل عطيات ، وكانت فى وداعه ، هى بنفسها ، لكن الراحة كانت كأنما منحتها نضرة وشبابا ونماء . وكان معهما أمها ذات الضحكة العالية ، الجسم الشاب والوجه المسن ، وأخوها الذى لا تستطيع أن تفرق بين سنه وسن أخته ، حتى لكأنهما توأمين .

وصافحت هذا الحشد على بسطة السلم ، وانبثقت عطيات بالضحك بشكل ذكرت به ضحكات الأطفال ، حين يرون كبيرا يتزحلق فيقع على أرض الشارع !! ووجهت الكلام لجمال أفندى ، فقلت وأنا أصافحه :

ـ من زمان ؟

ـ منذ يومين فقط ، ومسافر غدا .

ـ هكذا بسرعة ؟! فأجاب بلهجة لا يخفى مغزاها :

ـ حققنا أغراضنا ، ولم يبق فى القاهرة إلا الحر .

ـ طبعا يا سيدى ، فأنت من أهل الإسكندرية .

ـ تفضل عندنا يومين .

ـ أشكرك !!

وسلمت على الباقى سلاما عاديا ، وحملقت فى وجه عطيات لأرى ما فيه ، واستدرت لأضع قدمى على أول درجة توصلنى إلى الدور الرابع ، فسألتنى عطيات عمن أقصد ؟ ثم طلبت منى أن أتفضل فآخذ فنجالا من القهوة أولا ، قبل أن أزور صديقى ، لكننى وعدتهم بأن أفعل وأنا نازل ، إن ظل الوقت مناسبا .

وكنت أسمع ، وأنا صاعد ، وقع أقدام جمال وهو يهبط السلم .

* * *

وكان بابها مقفلا عند نزولي ، بعد أن قضيت عند صديقى ساعة من زمن ، وتوقفت خطواتي عنده قليلا وقلبي يخفق ، وخيل إلى أنه خفقان عادى ، لأننى بطىء لا تجتاحنى العواطف . وتذكرت المظاهرة الودية التى ودع بها جمال منذ فترة ، وأوجست خيفة أن أضع نفسى في كفة الميزان ، فتنكشف رقة حالى وخفتى فيه . ووقفت أتأمل بطاقة أبيها المثبتة بالدبابيس على الخشب البنى . وسمعت أصواتا في الداخل من بينها صوت عطيات ، ورفعت يدى لأدق على البلور ، لكننى هبطت السلم فجأة فى طريقى إلى الخارج .

لم أقصد إلى قهوة الكوكب في مساء هذا اليوم ، بل حملت معى عشائى ، سمكا وشيئا من الخيار المخلل والبلح الأمهات . وجلست آكل بشهية ، ونظرى يسرح بين حين وحين إلى الفضاء المواجه الساكن المظلم .

واستطال الوقت ، فأخذت أدور في أرجاء الشقة ، وأنظر من كل شباك ، وأحملق فى كل ضوء ، وأراقب كل شبح ، وأتخيل وراء كل ستارة تسدل ، وكل نور يطفأ ، ضجعة لحبيبين !!

ودخلت المطبخ فأشعلت وابور الجاز ، بعد أن لوثت يدى بهبابه ، وعملت قدحا من الشاى ، ثم حملته إلى حيث أجلس ، وأخذت أشرب بلا شهية . وكانت صورة عطيات وجمال تملأ على الفضاء كله ، حتى جعلتنى فى هذا المساء أسأل شبابى عن نصيبه في الحب . أنا ابن الخامسة والعشرين .

لم يكن فى المدينة حب حتى الآن . كنت أتكلف حمل الصعاب لأبدو قويا ، وأنا – فى صميم شعورى – أتمنى أن أستسلم للضعف الفطرى

الذى يحيك لنا (التجارب) فى أوائل أعمارنا . ومن ذلك ضعفنا فى الحب .

وقمت فلبست ثيابى ، وأقفلت باب الشقة ، ونزلت وأنا لا أدرى إلى أين .

وكنت أهبط وأتحسس بحذر برجلى فى الظلام ، درجة مكسورة أعرف مكانها من سلم البيت ، وعقلى مشغول بذكرى حب ساذج مارسته فى القرية .

لم يكن غصن واحد يهتز فى أشجار المدفن القديم ، ساعة ألقيت عليه بصرى ، عندما وصلت أرض الشارع . كانت القاهرة مكتومة الأنفاس فى ذلك الصيف ، وكنت أنا فى هذه الليلة مكتوم النفس ، ضجرا ، متضايقا . وسرت أضرب فى أحد الشوارع الرئيسية متجها نحو النيل ، حيث يهيم أناس كثيرون ، وحيث نلوذ الأحباب ببعض الزوايا المظلمة ...

« مرة واحدة أشرفت على القمة التى يصعد إليها كل حبيبين ....!!».

كنت أقول هذا ، وأنا أراقب الناس وهم يشتتون الليلة الحارة ، على مقربة من الماء الذى بدا هو الآخر كأنه حران . وكان صخب باعة الغازوزة والجيلاتى واللب والسودانى على الشاطئ ، يدخل فضوليا على أفكارى ، فتتركنى كالمخدر الذى يهزه بعنف رجل ثقيل ...

وكانت هذه المرة التى أشرفت فيها على قمة اللذة ، هي التجربة اليتيمة التى كسبتها فى شبابى ، مع حبيبتى القروية (حسنة) !! فى ليلة مولد ، وأضواء مصابيح الجاز منتشرة فى فضاء الحقول التى خلت بحصاد القمح . وقد تكدست الفتيات فى جلابيبهن السود ، بعيدا

عن منطقة الضوء . وكنا ندور في النور على مقربة منهن ، ثم ندلف نحوهن ، ثم نعود ونحن نسمع همسا غير واضح .

حتى انسربت في الظلمة وانسربت وراءها ، وتوغلنا في الحقول . ولما تلاقينا ، كان كل منا يرتجف ، وأحسسنا ببرودة الشتاء ونحن في حر الصيف ، وخيل إلينا أن كل من في المولد يطاردنا بالحصى والحجارة ، لكن ذلك لم يحل بيننا وبين أن نقدم على عمل . وغاب عن سمعي ضجيج المولد ، وترتيل الذكر ، ونقيق الضفادع ، وعن بصري ضوء المصابيح حين أخذتها بين ذراعي ، وأهويت عليها أقبلها . وكنا واقفين ، وكانت تهمس بين لحظة ولحظة بكلمة واحدة : « الناس !! » ثم تصمت . ثم رجع كل منا من طريق ، يدوس بحذر على الأرض المتشققة ...

ومنذ الليلة ، وفي ذهني صورة مهوشة عن القمة التي يقف عليها الأحباب . تذكرتها بالصيف ، وتذكرتها بالحر . وفطنت إلى أن استسلامنا للضعف في أول أعمارنا ، قد يكون أخف وطأة مما أمارسه الآن ... أن أتظاهر بالقوة وأنا جد ضعيف ، وأن ألهث في صمت ، كما يلهث الحمال المريض بالقلب .

فأين أين إذن من جمال أفندي ؟! الذي قال عنه أحد الفراشين : إنه رآه يقبل الآنسة فاطمة وهي تهبط السلم ، ولم تسخط عليه . وأكدت طالبة من طالباته لأمها في البيت ، أن جمال أفندي سيتزوج عطيات ، لأن نظراته لا تنزل عنها طول الحصة ، وأنهما يخرجان آخر الخارجين ليخلوا في الفصل لحظة ، وكثيرا ما يراهما الناس في مكان من المستطاع أن تخطف فيه قبلة .

وقد رأيته يزورهم فى بيتهم . ما أمهره فى خلق العلاقات مع من يريد أن يتصل بهم !! وما أبرعه بعد ذلك فى تصفية أخلاط الأصدقاء !!

ومرت على عطيات عصر يوم ، وأنا جالس على قهوة الكوكب . كنت جالسا على الرصيف على الكراسى الموضوعة فى الهواء الطلق ، فمرت على خاطرى . ثم رأيتها فجأة فى الشارع تنقل قدميها فى حذاء أبيض بحذر على الأرض المرشوشة ، وتنظر إلى تحت ، وكنت واثقا أنها لم ترنى ، ووجدت نفسى فجأة ، بعد أن جاوزتنى وسارت ، راغبا جدا فى اللحاق بها ، ففعلت .

كانت يداى فى جيبى بنطلونى ، ماشيا أجد الخطا فى أثرها ، وكان الترام يصر فى منعرج الشارع خلفى ، وجرسه يدوى تحت رجل السائق ، وضاع فى كل هذا الصخب صوتى وهو ينادى : عطيات !!

وحانت منها التفاتة ، لم تكن مقصودة ، لأنها بوغتت حين رأتنى . وشرعت فورا فى التكلم بوقار المدرس الذى لقى تلميذته مصادفة فى الطريق ، فقلت فى دعابة :

ـ تلميذة قليلة الوفاء ... لماذا لا تسألين عن صحة أستاذك ؟

فأجابت فى تطلق وابتسام ورعونة نسوية تهتف بالرجل لكى يخمدها :

ـ أنا ؟ أنا ؟ ... متأسفة . أعتذر . لكن ما بال صحتك يا أستاذ عبده ؟! بالعكس .. أنت تبدو فى أحسن صحة .

ـ إلى أين ؟

ـ خالتى هنا تسكن فى نهاية الشارع . لم أرها من زمان .

فسرت صامتا ويداى فى جيبى البنطلون ، وكنت أنظر إلى وجهها من جانب ، فأرى عليه بحسرة آثار شمس الشاطئ . وقبل أن تنطلق عطيات فى الثرثرة ، وجدتنى أسألها :

ـ ومتى عدت من الإسكندرية ؟

فانفجرت تضحك حتى اهتز نهداها . ولمست وجهها بأطراف أناملها ، كما يفعل الرجال بعد حلاقة الذقن . ثم سألتنى :

ـ أما تزال آثارها بادية على بشرتى ؟!

فأومأت بالإيجاب . وكان ريقى عسرا ثخينا قليلا عن المعتاد ، حتى عجبت .

وانطلقت برهة تثرثر عن حلاوة الدنيا هناك ، والحياة الطبيعية التى تدب على الشواطئ ، وتعاسة سكان القاهرة فى شهور الصيف .

فقلت لها بمعنى : « بل فى كل الشهور !! » . ثم سألتها بهدوء :

ـ لكن ... ألم تريه هناك ؟

فوقفت نظراتها . ولم تطرف ، وهزت رأسها كأنها تناقش فكرة ، ثم أجابت فى بساطة من يتكلم عن أمر عادى جدا مألوف للغاية :

ـ هل تقصد جمال أفندى ؟

فأومأت بالإيجاب .

فأومأت بالإيجاب . دون كلمة !!

* * *

ولم تكن فكرة السفر مختمرة فى رأسى فى ذلك الوقت . لكننى حملت حقيبة صغيرة فى الصباح التالى ورحلت إلى القرية .

ورأيت أمى وأختى الاثنتين فى الحال التى لا تتغير : يقبضن المعاش الذى تركه لهن أبى كل أول شهر ، ويزرعن الحبوب بيد أحد أقاربى ، ويشترين السمن ، ويربين الطيور .

ووجدت أمى وقد بدا على وجهها ضعف السن . وعلمت أن خطيبا يلوح على الأفق لتوحيدة ، أكبر الأختين .

واستغرق الكلام فى شؤوننا المحدودة يومين أو ثلاثة ، عاد بعدها الركود إلى حياتى وحياتهن . كنت أقطع الضحا فى قراءة الصحف ، والتحدث إلى الفلاحين فى السياسة ، والتعليق على الجرائم التى تقع فى القرية ، أو على مقربة منها ، أو تنشر أخبارها فى المجلات . أما وقت العصر ، فقد كنت أقضيه فى الحقول .

ومرضت أمى ذات ليلة وأنا فى القرية .

وكأن شيئا مفاجئا جعلنى أدرك أن طرق الفناء لا تقل غرابة ولا بدعا عن طرق الخلق ... كانت تغرف لنا العشاء ونحن ملتفون حول الصينية ، أنا وتوحيدة وزينب وأمى . وكانت تتكلم . حول ماذا ؟! حول ما عسى أن يجد فى أسرتنا الصغيرة من أحداث عادية كالزواج والأسفار . وتوقفت عن الكلام ، وظللنا ننتظر العبارة التالية ، ولكنها غابت ...

ولما تأملنا أمنا ، وجدنا يدها متوقفة بالمغرفة المملوءة بالحساء ، فى منتصف الطريق ، بين الحلة والصينية . وحين هتفت بها أسألها مالها ؟ أجابتنا بكلمة : لا شىء . لكنها كانت معووجة . لأن أمى أصابها شلل مفاجئ .

وانشغلت أوقاتى منذ اليوم التالى بأشياء ثقيلة . بالتفكير فيما يجد فى أمرها ، ولو أن طبيب المركز أكد لنا أنها حالة خفيفة . وبالتفكير فى شأن أختىّ العذراوين ، ثم فى النفقات .

لكن بلادة الطبع ، وبطء الحركة التى تتسم بها أسرتنا ، كان لها دخل فى مساعدة أمى على الشفاء ، فقد استردت حالتها العادية بعد خمسة عشر يوما ، وإن ظلت مهددة بالغارة مرة أخرى .

وبدأت أجران القمح الواقعة فى الجهة الشمالية من مسكننا ، ترسل على بيتنا طوفانا من التبن ، خصوصا فى الأيام التى تنشط فيها الرياح الشمالية أو الغربية عصر كل يوم . حتى إذا ما دخل الليل ، بدأ طوفان جديد من البعوض ، يدخل من النوافذ ، حتى يغطى زجاج المصابيح . ولم يكن بعد ذلك فى بيتنا شىء يصلح للتسلية ، حتى سكانه أنفسهم . لأن السهرة عندنا كانت تبدأ بعد العشاء ، ثم تنتهى بعد نصف ساعة . تذهب أمى لتنام بعد أن تقرأ عدة أدعية . وتتناقش توحيدة وزينب حول شىء تافه كجمع بيض الدجاج ، أو إصلاح الكانون ، أو الفرن ، فلا تلبثان أن تختلفا ، كشأنهما دائما ، فتقوم إحداهما لتنام . وحين تنفرد بى الأخرى لا أجد ما أقوله لها ، فأتلهى بقراءة جريدة الصباح ونحن فى المساء ، أو جريدة البارحة إذا لزم الأمر ، فلا تلبث هى الأخرى أن تفر إلى مخدعها .

والملل الذى تبعثه المدينة ، أخف وطأة من الملل الذى تبعثه القرية ، لذلك صممت على أن أعود إلى القاهرة فى الصباح التالى وأعلنت الثلاث اللائى يسيطر عليهن الملل والصمت بما عزمت عليه ، فتلاقت أعينهن على وجهى ، ولم تتكلم البنتان .

كانت توحيدة تضيق إحدى جلابيبها ، وكانت زينب تقشر بطاطس ، أما أمي فقد قالت لي ، وهي تذيب في كوب من الماء ملحا من الأملاح التي وصفها لها الطبيب :

- لكن .. هناك أمر له أهمية كبيرة يا عبده يا بني . يجب أن تفكر فيه .

- ماذا يا أماه ؟!

فأجابت ، وعلامات الاشمئزاز لا تزال عالقة بوجهها من طعم الدواء :

- الزواج ... الزواج يا بني . أنا قصيرة العمر ، ولن أعيش في قمقم .

- ماذا تعنين ؟

- اقتصد شيئا من دخلك يا ولدي العزيز ... لتستطيع أن تتزوج .

فغطيت وجهي بالجريدة ولم أرد عليها ، وحين أطللت من زاويتها مرة أخرى على الثلاث ، كانت أمي تستلقي في سريرها على مقربة مني ، وكانت توحيدة تطبق ثوبها ، وكانت زينب تجمع قشور البطاطس .

- ٤ -

وقضيت بقية الصيف على الحال التى وصفتها لك . وكنت أكثر من زيارة صديقى ساكن الدور الرابع من المنزل الذى تسكنه عطيات ، وأحملق فى بطاقة أبيها المثبتة بالدبابيس على الخشب البنى دون أن أجرؤ على طرق الباب . أزورهم ؟ لماذا ؟!

وبدأت نسمات أكتوبر تملأ الجو . وأخذنا نشم رائحة الجير تطلى به حيطان المدارس ، ودهان الزيت تطلى به الأبواب والشبابيك ، فتوحى بمعنى العودة ، وهناك بعض تلاميذ يترددون على المدرسة لمعرفة نتيجة الدور الثانى .

ثم فوجئنا - نحن المدرسين - ونحن مجتمعون فى الحوش بمجىء جمال أفندى ، وكان متطلق الوجه يمشى فى فرح ، كأنه يريد أن يتخفف من خبر يثقل عليه . وقال حمودة بتهكم حين رآه على هذه الحال :

- اه ... لا بد أنه عين بإحدى المدارس الأميرية !!

وقال زميل آخر مكملا تهكم حمودة :

- اه ... وفى القاهرة (كمان) !!

وقال ثالث :

- اه ... وفى (الناصرية) ليعطى دروسا خصوصية لأولاد الذوات!!

ووصل جمال إلى مجلسنا ونحن نضحك وأعناقنا مائلة إليه ، وسلم بطريقته التى لا تبالى ، وسحب كرسيا وجلس واضعا رجلا على رجل . وبدت أفخاذه سمينة بيضاء ملفوفة فى بنطلونه القصير الأبيض ، فحملق فيها حمودة وهو يضحك !! وكان الباقون منا لا يزالون ينظرون فى وجهه الفرحان ، وابتسامته المعلقة تحت شاربه المسبسب ، وقلت أنا له : ما دام يبدو على وجهك أنك تحمل خبرا سارا ، فاطلب لنا إبريقا من الشاى من (بوفيه) المدرسة . وأمن على طلبى بقية الإخوان ، وأقسم عليه حموده بالطلاق أن يفعل !!

وكانت خلاصة الموضوع أنه راحل !! تعاقد مع إحدى المدارس الإفرنجية فى الإسكندرية مدرسا للغة العربية فيها ، فكسب بذلك عدة أشياء . قال أحد المدرسين :

ـ هنيئا يا عم . ستسكن بلا أجرة فى بيتكم هناك .

وقال الثانى :

ـ وتأخذ حصصا أقل وأجرا أكثر .

وقال الثالث :

ـ وتعطى من الدروس الخصوصية ما يعادل كل دروس المدرسة الناصرية .

وقال حمودة حقيقة مغلفة بقدر من الدعابة :

ـ وتفسح لغيرك من غير الموهوبين فى ميادين الغرام . (حل يا أخى !!) .

فضحكنا وذكرناها فى نفوسنا بلا شك . ذكرنا عطيات . على حين كان جمال يهتف وهو يضحك ووجهه محمر :

- ألا خيبة الله عليك يا حمودة .

ثم رحل بعد أيام وفاضت أعين بعضنا بالدمع ونحن نودعه . كنا نتكلف الأسى أكثر مما نحسه ، فلم تلبث الدموع أن بللت وجوهنا . ثم انشغلت قلوبنا بعد غيابه مباشرة بتقسيم التركة .. لأنه لا تناقض مطلقا بين الأسى والتركة فى هذه الحياة !! مسائل تحدث كل يوم !!

من منا سيكون مدرس اللغة العربية فى مدرسة الفنون بعد انتقال جمال أفندى ؟!

ومن منا سيكون محط بصر المحبات فى مدارس البنات بعد غياب هذا القطب ؟!

وفوجئت فى أول الأسبوع باستدعاء مدير المدارس لى ، وكنا نتناول شطائر الفول فى حجرة المدرسين بين أكداس من كراسات تعليق وإنشا ، وأشيا ، وصحة - فى فسحة الساعة العاشرة ودق قلبى والفراش الأعور يقول : تفضل ، وفى عينه الأخرى أثر رمد . ووضعت بقية اللقمة على الجريدة القديمة التى أحمل فيها كراساتى ، وهممت بالقيام بين عاصفة من الضحك والتهنئة :

- مبروك ... مبروك ... موضع (جمال) ... فرصة .

وعدت إليهم بعد دقائق وتحت إبطى بعض الكتب المقررة على طالبات الفنون ، كانت لأعينهم أشبه بوثيقة لا تكذب . ولم أتكلم ، وعرضت قطعة السندوتش الباقية منى على حمودة ، كأنها حلاوة الظفر ، فالتهمها ونحن نضحك ، ولم يعفنى إفلاسى من أن أطلب إبريقا كبيرا من الشاى ، وقال بعض إخوانى مداعبا أو جادا :

- لا تنس بقية التركة !!

ففهمت أنه يقصد عطيات . فاحمر وجهي وخنق قلبي ، وبلعت ريقي في وقت واحد . واستحدت المواقف القديمة التي مرت بهما ، ولم يستطع خيالي البليد أن يضفي عليها شيئا من التنفير .

وفي المساء كنا جالسين على القهوة نتحدث عن بعض إخواننا القلائل الذين عينوا في التعليم الأميري ، ونذكر واحدا منهم بالذات ضحك له الحظ مرتين ، فعين فيه وفي القاهرة ، وانبرى أحدنا يسرد علينا شجرة نسبه ، فوصلت نسبته إلى الوزير بالضبط ، فهززنا أكتافنا في صمت ، ثم طلبنا من الخادم أن يأتينا بطاولة .

* * *

انتقيت أحسن ثيابي في الصباح التالي ، وأحكمت ربطة عنقي في ياقة منشاة ، وكنت قد كويت طربوشي ليلة البارحة ، ولمعت حذائي وأنا على القهوة ، وحلقت ذقني في عناية ، حتى جرحته في مكانين ... كل هذا لأنني أصبحت مدرسا في مدرسة الفنون .

وللمرة الأولى في حياتي وقفت أمام الصدور الناهدة ، التي تجلس صفوفا صفوفا على مقاعد الدرس ، وتلبس لونا واحدا من الثياب ، وتصفف شعرها بطرق مختلفة ، وتنظر إلى المدرس الجديد بفضول باسم وأعين متفحصة . ومن بين هذه العيون ، كان في الصف الأخير من الفصل الصغير ، عينان خضراوان حادتا النظرة ، فيهما قوة أكبر من عمرهما ، هما عينا ... عطيات !!

واجتمعنا وجها لوجه هكذا على غير سابق أمل . وكنت أعلم أن كياني معهن معلق على اللحظات الأولى وقت دخولي الفصل ، فجعلت

أتهيأ لهذا الموقف وأنا راقد طول الليل . وعندما تنفس الصبح أعدت ما جهزت كما نذاكر دروس الصباح .

ورأيت واجبا علـى أن أذكر زميلـى السـابق بكلمـة ، وأن أدعـى أن مجهوداتى ستكون صلة لمجهوداته التى تشبه الدعامة أو الأساس . وقد فعلت .

وأطرق بعضهن إلى الأدراج وابتسم بعضهن خصوصا عندما أثنيت على خلقه وسددت إلى وجه عطيات نظرة ثابتة فرأيت عينيها مفتوحتين فى جمود لا تطفو على أديمهما فكـرة . كـانت أشبه بشـخص لا ذاكـرة له . ورأيت جارتها تنظر إليها من تحت . ثم بدأت الدرس .

وفى مساء اليوم نفسـه ونحـن علـى القهوة وصـل إلـى سـمعى ثنـاء الطالبات على الحصة الأولى من المـدرس الجديـد وذلـك بواسـطة أحـد الزملاء . وصدقت الخـبر ــ لأن مـن طبعنـا أن نصـدق المـدح ــ وإن تلقيته بشىء من الحذر .

وكنت أشعر وأنا فى الـدرس أننـى أهمـل عطيـات إهمـالا مكشـوفا ، كنت أدفــع عنـه نفسـى فـلا تندفـع . وكـانت ذكيـة ... كـالأرض الجيـدة يغنيها قليل من الماء والسماد وظلــت حافظـة توازنـها علـى الرغـم مـن إلحاحى فى عـدم العناية بهـا . وكـانت تكتـب إنشـاء جيدا لأنهـا كـانت مفتونة بالمنفلوطى . وكنت أجور عندما أقدر لها درجة .

ودب خلاف بينها وبين إحـدى زميلاتهـا المنافسـات وبكـت عطيـات تحـت شـجرة فـى حديقـة المدرسـة لأن زميلتهـا قــالت لهـا : إن زمــن المحاباة قد فات . وبلغنـى ذلـك وسـررت منـه . لكنـى بقيـت كمـا أنــا لا تطرف لى عين عندما ألقاها .

وذبلت عطيات شيئا ما واتسع عليها ثوبها المدرسى . وكانت حيوية ثدييها على جسمها الضاوى تثير فى النفس رحمة وشهوة . وأصبحت قليلة الكلام وقد كانت ثرثارة ، أشبه بالمهرة المرحة بعد الشوط الطويل ، فرثيت لها قليلا .

وكنت أوزع كراسات الإنشاء فى حصة من الحصص بعد أن أصلحتها فى البيت وكانت عطيات قد أبدعت حقا فيما كتبت وكنت قد جرت عليها فى الحكم كدأبى معها كأنما كنت أؤدب الغائب فى شخصها الحاضر !! ولاحظت الفتيات وهن يفتحن الكراسات ويهمسن بالدرجة ، وتركز انتباهى على عطيات فرأيتها تنظر بعجب وذعر ثم تحملق فى السقف ثم تطرق ثم تبكى .

وانصرفت عنها إلى ما بدأت فيه من عمل كأننى لم أر ما حدث وتهامست الطالبات فقلت (هس) ووجهى إلى السبورة والطباشير فى يدى ولكن قلبى كان يخفق . وكنت أسأل نفسى سؤالا كان جوابه محيرا ، لماذا نحب أناسا لا نرضى عن ماضيهم تمام الرضا ؟! حتى ارتفع البكاء ، فالتفت :

ـ لماذا تبكين يا آنسة ؟! مريضة ؟!

فقالت جارتها المنافسة وهى تبسم فى خبث : ربما !!. وسمعتها عطيات فانفجرت تنتحب شاكية من تدخل طالبة مثلها فيما لا شأن لها فيه . ووجدت نفسى فى إشكال ، واضطرب نظام الفصل فوضعت يدى فى جيبى بنطلونى ووقفت ساكنا لا أتكلم .

كنت أنقل نظراتى بين وجوههن وأنا عابس كاشر . وأكلت النار نفسها وسيطرت على الموقف من جديد وقلت للطالبة الباكية : ليس هذا وقت النقاش حتى لا يكون على حساب الدرس . دعيه لآخر الحصة .

وأحسست وأنا أستأنف عملي بما يحسه العطشان حين يشرب شيئا من ماء غير بارد فتخف النار ويبقى العطش . حتى دق جرس الحصة فتحرك سكون المدرسة وانبعثت الجلبة من كل ركن .

وانسربت إلى الحديقة كأنني لا أقصد شيئا ، ودخلت ورائي عطيات ومعها طالبة أخرى ، وحين وقفتا إلى جوارى تكلمت الأخرى وعطيات ساكتة :

ـ إن عطيات متألمة منك جدا يا أستاذ .

ـ لماذا ؟!

ـ لأنك تظلمها !!

ـ أظلمها ؟! أنا أظلمها ؟! (ثم قلت وأنا أبتسم) : إذن ظلمنى الله!!.

ثم قلت جادا : هذا إحساس شخصى لست ملزما بأن أشعر به .

ـ إنها أحسن طالبة فى الإنشاء طوال عهد الدراسة . وقد كان ...

ولم تكمل كلامها ونظرت إلى عطيات مبتسمة وكأنها تستأذنها فيما ستقول . وفهمت المرمي . أدركت أنها تريد أن توازن بين درجاتى ودرجات جمال أفندى ، لكنني تغابيت واستطردت أقول شيئا :

ـ حقيقة إن أسلوب عطيات جميل ولكن عندى طالبات يصلن إلى معان أعمق . والمسألة مسألة تقدير .

فقالت المظلومة وهى تنظر إلى بعينين غيمت فيهما دموع :

- أمرك يا فندى !! وهزت كتفيها .

واستدارت الطالبتان منصرفتين ، فرأيت جسم الأخرى طريا سخيا يملأ الثوب ، أما عطيات فقد كان جسمها ضاويا ، وصدرها حيا يثير فى النفس رحمة وشهوة .

* * *

ونشطت الإشاعات فى الشهور الأولى من العام المدرسى حول الرسائل التى تتلقاها عطيات من جمال من الإسكندرية ، وسمعنا أنها تأتى إليها على بيت الفراشة أم خليل الساكنة فى المنيل . وبقى مكان جمال أفندى فى مدارس النصر شاغرا لا يجد رجلا يملؤه : كانت قصص الغرام التى تذاع بعد غيابه أقل سحرا وعمقا وغرابة بعد أن غاب الذى لا يبالى والذى كانت الظروف تخدمه فى أحرج الساعات .

على أننى كنت أسائل نفسى عن قصدها فيما تعمل ، وأعيد عليها كل ليلة وأنا منعزل فى شقتى المنعزلة نفس السؤال : لماذا نحب أناسا لا نرضى عن ماضيهم تمام الرضا ؟! فلا أجد جوابا ... بل وأسمع بعد ذلك شهقة عطيات وشرقتها بدموعها وهى مطرقة إلى الكراس فيخيل إلى أنها تبكى بين يدى .

وجعلت أدور فى الشقة كأننى أبحث عن شىء ضائع وأراقب الأشباح فى الغرف المضيئة من البيوت المجاورة ، وأتنهد ، حين أتخيل أن وراء كل نافذة تقفل أو ضوء يطفأ أو ستارة تسدل ، ضجعة ولذة !!

وجلست مرة أخرى أذكر نصيبى من الحب ... وأنا ابن الخامسة والعشرين ، فلم أجد شيئا . إلا الذكرى التافهة التى حفظتها عن (حسنة)

ليلة المولد . وكان الوقت متأخرا وأنا جالس إلى الشباك بعد أن أطفأت المصباح . وكنت قد اضطجعت فى فراشى فتأخر النوم .

كان الفضاء المظلم ممدودا أمام بصرى والجو مائلا نوعا إلى البرودة وأضواء القاهرة تبدو بعيدا خلف السور ومن خلال الشجر . وكنت لا أزال أتساءل عن الحب وأحاول أن أقدر القوة الكامنة فيه كما لا يقدرون القوى الآلية بكلمة « حصان » وابتسمت هذه الخواطر ثم جمعت مشاعرى وأمسكت أنفاسى حين رأيت شبحين يتحركان فى ظلام الحارة .

كانت النوافذ مقفلة تقريبا وهمهمة خفيفة تسرى فى أوراق الشجر حين كان الاثنان يتحركان على مقربة من السور . وتذكرت حكاية حمودة وكيف كان يلتقى بحبيبته القديمة ثم قصة المصباح الذى فاجأتهما به الجارة والصراخ والفضيحة . ونسيت الماضى واندمجت فى الحاضر .

وتماسك الاثنان وانحنيا عند الثغرة التى فتحها فى السور عبث الصبيان ودخل هو ودخلت هى من ورائه .

وأحسست بمفاصلى تتخاذل وأنا جالس وتلاحقت أنفاسى كأننا مسئولون عما يفعله غيرنا . كما تخجل لمن يتكلم بكلام مخجل . ثم تلاصق الشبحان وهما واقفان عند جذوع إحدى الأشجار وسكنا تماما ختى خيل إلى أنهما ماتا . ثم افترقا فجأة كما لو رأيا شبحا مرعبا وقصدا إلى ناحية الفجوة بخطا مترنحة لكنها سريعة وعبرا منها إلى الحارة وسار كل منهما فى اتجاه . فذكرت موقفى مع (حسنة) مرة أخرى ليلة رجع كل منا من طريق .

ثم استطعت أن أقدر القوة الكامنة فى الحب (بوحدة) كما يعبرون عن بعض القوى بكلمة (حصان) فعرفت أن الحب أقوى من كل شيء . من الحياة ومن الموت فى وقت واحد !! ماذا يفعل هذان العاشقان فوق المقابر القديمة ؟! ألم يذكرا ما كانا يدوسان عليه ساعة اللذة ؟!

وقمت إلى الفراش ورقدت فى الظلام وكانت دقات الساعة تصل إلى أذنى من تحت الوسادة وصرير عجلات أحد خطوط الترام تأتى إلى فى السكون . وتجسمت لى شهقتها وشرقتها فأحسست كأن لى دخلا فيما حدث وكأن لى علاقة بأفكارها . لكن أهذا صحيح ؟

وابتدأ تعصبى ضدها يخف شيئا فأصلحت لها الدرجة بل وكتبت لها كلمة (لا بأس) . وفى الموضوع التالى أثنيت عليها شفويا أمام التلميذات فسرى بين الشفاه الحمر همس خفيف وشكرتنى عطيات بعينيها ورأيت كأن أملا يبدو فيهما .

وسهرت فى إحدى الليالى أصحح الكراسات وحين فتحت كراستها وجدت فيها ورقة ، ورقة غريبة ، موضوعة بين الصفحات التى يتحتم على أن أقرأها . وارتعشت يدى حين وقعت عيناى على إحدى الكلمات المكتوبة مصادفة ، وكانت كما قد تفهم الآن كلمة (الحب) وأدركت من فورى أنه خطاب غرامى قد يكون موجها إلى أو يكون موجها إلى حبيب آخر لكنها نسيته فى هذه الكراسة .

وفحصت الورقة فإذا فيها أغنية ... أغنية من الأغنيات الشائعة المحبوبة مكتوبة بخطها . فجعلت أقرؤها .

المعانى كلها تدور حول شخص يحب ، وآخر لا يدرى (فى العسل نايم) وبقية العبارات إطار مألوف حول هذه الصورة . دموع ... سهر ... أزهار ... ألحان .. وما أشبه ذلك . وفى أسفل الورقة شىء لطيف خفيف الظل ، يحمل مغزى ويضحك فى وقت واحد . فقد فعلت عطيات كما يفعل المدرسون ، أعطت الأغنية درجة كانت عشرة من عشرة وكتبت كلمة (لا بأس) ووقعت بإمضائها وكل هذا بالقلم الأحمر . فاستغرقت فى الضحك وأنا وحدى كأننى مجنون .

ولما أفقت عدت أتأمل الموقف من جديد فتارة آخذ منه شيئا يخصنى وأعدل عما فهمت تارة أخرى ، لكننى تحيرت أخيرا فيما أفعل : هل أترك الورقة فى الكراس ، أو أستبقيها عندى ؟ وإذا كانت قاصدة وضعها فأى الفعلين أشد تأثيرا على قلبها ، وإذا كانت لا تقصد وضعها فأيهما خير إذا كنت طامعا فى قلبها ؟! وأخيرا ... أخيرا كأنى أمام مشكلة عامة ، قررت ترك الورقة فى الكراس . أفعال بنت ستة عشر وأفكار ابن خمسة وعشرين !!

دخلت والكراسات تحت إبطى فساد النظام . واتسندت الظهور الغضة إلى المقاعد الخشبية وتطلعت الوجوه نحو السبورة . لكن عطيات كانت غائبة !! وتألمت !! وأحسست كأننى أركب سيارة توقفت عند حفرة فى الطريق وأنا مستعجل ، فمططت شفتى وعلا وجهى اشمئزاز ذكرت به اشمئزاز أمى يوم كانت تشرب الدواء وتوصينى بأن أقتصد من دخلى شيئا لأتزوج !!

وقالت لى طالبة جريئة : أأنت اليوم تعبان ؟!

ووزعت كراسات الإنشاء بنفس فاترة ، وجاء دور كراستها بعد ست كراسات فوضعتها فى الآخر ، حتى إذا ما انتهى التوزيع بقيت كراستها أمامى . ونظرت إليها على درجى وإلى درجها الخالى فى آخر صف بعين فهمت الطالبات ما فيها ، فقالت جارتها المنافسة : إنها غائبة . فأجبت وأنا مبتسم وبلهجة فيها شبه تأنيب :

ـ عارف !!

ـ هل تحب حضرتك أن آخذها وأحتفظ بها فى درجى حتى تعود عطيات ؟

فأجبت دون أن أرفع وجهى إليها :

ـ لا . ولم أر ما بدا على وجوههن ، ثم قمت فاستأنفت عملى .

ولم يكن لى حصص فى اليوم التالى فى ذلك الفصل ولم أحاول أن أعلم عنها شيئا ، وكنت واثقا أنى سأراها ثالث يوم فى حصة التطبيق لكننى لمحت مكانها خاليا وأنا لدى عتبة الفصل ، فأحسست كأن مسمارا دق فى كل أذن وأن دوارا أطاح برأسى لكننى أفقت بعد ثانيتين .

وتشددت على نفسى فلم أسأل عنها زميلاتها ، ولما انتهت الحصة وخرجت دون أن أسأل كذلك أحسست بحلاوة الظفر التى تمس قلب من يعبر النهر عوما ، ولما زايلتنى هذه الحالة ، قلت : ما أتفهنا !!

وفى اليوم الرابع زاد إصرارى على عدم السؤال وإن علقت عيناى بمكانها وحضرنى طبعى كاملا ... أن أتكلف دائما فوق ما أطيق . لكننى حين عبرت عتبة الفصل خارجا كنت شديد الانقباض . وجلست

على القهوة آخر النهار وجاء حمودة يتبختر وبين إصبعيه بقية سيجارة فلما رآنى ساهما بدأ يتهكم :

ـ أفكار ... يا أستاذ عبده !!

ـ أفكار يا حمودة !!

ـ ومن أين تنبع هذه الأفكار ؟ من الجيب أم من القلب ؟!\

فاندفعت أقول جادا تماما دون أن أدرى :

ـ أريد أن أتزوج يا حمودة !!

فاستغرق فى الضحك حتى بدت أسنانه الصدئة ثم أخرج منديلا غير نظيف ومسح به عينيه ثم قال فى هدوء :

ـ ألا خيبة الله عليك . حسبك من شر سماعه . ثم استطرد كأنه يرتل القرآن : ألم يأتك نبأ قوم تزوجوا من قبلك ؟! واسترد لهجته العادية : اتق الله فى نفسك يا شيخ وفى الأجيال القادمة . وضحكنا . لكنه قال بعد فترة جادا :

ـ أتتكلم جادا ؟! فأجبت فى تردد :

ـ يخيل إلى أننى جاد .

ـ هل أحببت . ففررت من الجواب :

ـ (اتنيل) !!

ـ خيبة الله عليك . اسمع عندى فكرة : تزوج الآنسة فاطمة ... لا ، لا ، هناك خير منها . ما قولك فى عطيات ؟!

ومط الحروف فانمط قلبى ... لكننى فررت من الجواب !! وأعطيته سيجارة !!

وفى اليوم الخامس لم أصبر عن السؤال ، فقالت إحداهن : إنها مريضة . وسألته مرة أخرى : هل زارها أحد ؟ فهززن رءوسهن وقلن : لا . وقالت طالبة : ذكرتنا بالواجب !!

ـ ٥ ـ

وفى عصر ذلك اليوم رأيت حتما أن أزور صديقى ساكن الدور الرابع من البيت الذى تسكنه هى . فلماذا لا نصارح نفسنا بأغراضنا ؟ ولماذا نهرب منها ؟!

وسمعت جلبة شديدة عند دخولى . وكانت تسقط من بير السلم بشكل عنيف ويغلب عليها صوت الصبيان . وفهمت أنه احتفال بسبوع مولود وأن السلم ملغم والطريق مشغول ، فصعدت ببطء حتى إذا ما أحسوا بى تراجع كثير من النسوة وبقى الصبيان والأطفال والصبايا وكان بين الجمع أخت عطيات .

كان باب شقتهم مفتوحا وكانت واقفة بجواره بجسمها الضاوى وصدرها الحى ، وكان ظاهرا أنهم أصحاب الفرح ، وضحكت عطيات حين رأتنى ضحكة كثيرة المعانى كأنما استحت فيها الأمومة التى لم تنتج بعد ، فبدت فى غير طبعها !! ورجتنى أن أعرج لأشرب فنجالا ...

ـ أى نوع يعجبك يا أستاذ ؟ فعندنا اليوم مشروبات مختلفة !!

ـ أنا دائما أفضل القهوة .

ـ إذن تفضل ... قهوة !!

ـ وأنا راجع .

وبدأ لغط الصبيان يخف قليلا قليلا وأنا فوق . واسترد البيت حالته العادية . ودخل علينا حجرة الضيوف نبيل الابن الأصغر لمضيفى وفى يده شمعة يتراقص نورها فى النهار وفى جيبه أرواح ، فقال صديقى وهو يشير إلى تحت بسبابته ويبتسم : (العاقبة عندكم فى المسرات) .

ـ وعندكم ...

ـ أوه ... أرجو أن ننهض بما عندنا .. الحمل الآن أقوى من الجمل !!

ولم أسمح للحديث أن يتشعب فقد كنت أريد أن ألقاها .. أن أراها ... وأن أنظر فى عينيها باحثا عن المعنى الضائع . ولم يتشبث بى صديقى حين ادعيت أن كراسات أسبوع كامل تتكدس الآن فى البيت بانتظار القلم الأحمر .

وطرقت بابها برفق وأنا أقرأ بطاقة أبيها . وقادتنى أختها الصغرى إلى حجرة الضيوف ، وجلست أتسلى بسؤالها عن معلومات مدرسية حتى يأتى من يؤانسنى .. حتى جاءت !! فى ثوب أزرق كأنه لون البحر هيئ لى أنه جديد وحذاء من الجلد واطئ الكعبين وخلفها مباشرة خادمة متآكلة اسمها مريم !! أذكر اسمها . تحمل صينية ، لم ألبث أن ضحكت حين رأيتها . كان عليها فنجالان من مغات وقهوة . ووضعتها الخادم وانصرفت وبقينا نحن فى الحجرة .

وانبعثت من الراديو مقدمة موسيقية فى هذه اللحظة لأغنية مشهورة ظننت أول الأمر أنها من جرامفون . وكنت أرشف المغات فأحرق

شفتى لأننى شربت وأنا شارد حين سمعت اللحن ولأن المغات يحتفظ بالحرارة . وجعلت أمسح شفتى بمنديلى غير ناظر إلى شىء حتى بدأت الأغنية على لسان امرأة عرفت بحدة العاطفة . وهى نفس الأغنية التى كتبتها عطيات ومنحتها عشر درجات بقلمها الأحمر .

لم يكن أحد قد دخل علينا حتى الآن وكنت حريصا على أن أعرف ، فلما التقى بصرانا وجدتها تبتسم ومع الابتسام كلام ، فقلت :

ـ أغنية جميلة !

فأجابت وهى تكتم ضحكها :

ـ عشرة من عشرة !!

ـ هل كنت تقصدين ؟

ـ أظن ...

ـ الكراسة لا تزال عندى .

ـ .....

وأطرقت ولم ترد . فقلت :

ـ ولماذا غبت كل هذه المدة ؟ حسبتك مريضة ؟!

ـ غبت من أجل صاحبة المغات .

ـ وما اسم أخيك الجديد ؟

ـ اسمه فتحية !!

وضحكنا . وقلت وأنا أضع فنجالا وآخذ فنجالا : كانت تكفينا القهوة ما دام اسمه فتحية !!

وبدا المرح على صدرها أكثر من أى جزء ، كان حيا كعينيها أو أكثر منهما . وذكرت زميلى (جمال) ولكن ذكراه لم تطفئ نشوتى

لأننى كنت محصورا فى الحاضر محاصرا بمزاياها . وأقوى الملذات هو ما ينسينا أن نرسم حياله خطة ، ما يجعلنا نـأخذه هكذا عميانـا عن مستقبله وماضيه .. (وفيها فرج !!) .

وسمعت نحنحة فى الصالة تعرف أنها لرجل مدمن على التدخين ، ثم خطوات متثاقلة دخل بها علينا رجل بدين تبدو عليه الطيبة يلبس معطفا من الصوف فوق جلباب منزلى ، وكان هو والد عطيات .

ـ أهلا وسهلا بالأستاذ . أهلا بك فى بيتك .

ـ أهلا وسهلا يا عمى .

وكان أنسب ما نتحدث عنه وألصق شىء بنا جميعا هو عطيات .

ـ لعلك مسرور منها .

ـ جدا . طالبة مجتهدة ، ذكية .

ـ كتب الله لها المستقبل السعيد . اه .. علينا أن نجاهد !!

ـ لو أنكم غيرتم الخطة وألحقتموها بالتعليم الثانوى لرجوت منها إحدى أستاذات المستقبل ...

فضحك بصدر يخرخش وتملق السعال عدة مرات ثم أشعل سيجارة واستأنف الحديث بثقة من جمع شتات ذهنه :

ـ ماذا قلت ؟! أستاذة ؟!. فقلت وأنا محمر الوجه :

ـ أى نعم .

ـ بناتنا للبيت .

ـ ليس هناك تناقض .

ـ ذلك شرح يطول .. تعليمهن فى نظرى أشبه بالزوادة التى يعبئها المسافر ، وعطيات إلى الآن تعتبر مسافرة حتى تستقر فى بيت !!

وكانت مطرقة . وكان الراديو لا يزال يبعث ألحانا وغناء وأحاديث وأشياء أخرى بلا حساب ... ولا سامع !! كأنه صنبور قريب من يد الأطفال . حتى خرجت !!

وكنت أخلع ملابسي آخر السهرة بعد عودتي من القهوة شبعان حامدا الله وأنا أذكر شيئا لعلك تذكره . تذكرت « أن قصة غيرنا قد تكون الفصل الأول من قصتنا ونحن لا نشعر . وحين ينكشف لنا ذلك فجأة ندق كفا بكف ... » .

ودققت كفا بكف ـ فعلا ـ حين انكشف لي أن قصة جمال أفندى كانت الفصل الأول من قصتي مع عطيات !!

لكن أحلامي كانت كخضرة الحقول ، واجتزت عتبة الفصل في المنام خمسين مرة وأنا أنظر إليها ... حتى طلع النهار .

ولكنها لم تحضر . وقالت إحدى الطالبات بعد بدء الدرس ، وفجأة كأنما كان هناك فرصة للتدبير : بعض الناس زار عطيات ليلة أمس واطمأن على صحتها يا أستاذ . وسمعتها حين كان وجهي إلى السبورة فابتلت الطباشيرة بين أصابعي لكنني استدرت على الرغم من كل شيء وسألت في وقار : من منكن ؟ فلمعت في عين بعضهن نظرة وانطفأت وقالت إحداهن : إنها فوزية . فسألت : هل وجدتها بخير يا فوزية ؟ فأجابت : إنها لم تكن مريضة . واستأنفت الدرس وقلبي يخفق ، وسؤال معلق في رأسي لا يزال ينتظر رأى العقل فيه : لماذا ؟!.. لماذا نحب بعض أناس لا نرضى عن ماضيهم تمام الرضا ؟؟

إننا حين نفلسف الحب لا يصبح حبا (كما يقولون) ولذلك كنت حريصا على ألا أتفلسف .. ومشى الرضا والقلق في كياني جنبا

لجنب ، حتى أدركت سر الازدواج فى هذه الدنيا وأنه ليس ممكنا فحسب بل هو ضرورى . وعلى الرغم من كل شيء لم أقل لها كلمة حين رأيتها فى الفصل للمرة الأولى بعد غيابها حتى تورد خداها من نظرى وصمتى .

وهربت من نفسى فى اليوم التالى عقب إنصرافنا من المدرسة آخر النهار .

هربت من نفسى وقررت أن أزور صديقى ساكن الدور الرابع وأدركتنى فى الطريق .

كنا نقصد بيتا واحدا كما تعلم ولست أدرى لماذا كانت وحدها فى هذا اليوم ؟! لعلها مصادفة . كنت ماشيا أنظر إلى الأرض ويداى فى جيبى بنطلونى ، وحذائى الجديد يصر فجعلت منه لحنا توقيعيا . وسمعت صوتها القوى بالنسبة إلى أنوثتها يهتف من ورائى :

ـ إلى أين ؟ فنظرت بعينين مسكينتين إلى جنب وأجبت بنفس مقطوع :

ـ لا أدرى ؟... هل تعرفين أنت ؟!

وخيل إليها أنها أمام شاب يتغزل فى الفتاة العشرين فبدا فى عينها مرح وفى وجهها طيش فاقتربت منى حتى لمست كتفها كتفى فى لمحة ثم عادت فخلقت بيننا مسافة وقالت تسأل :

ـ على فين والنبى ؟! فهززت كتفى فى يأس وقلت :

ـ ليتنى أعرف . فعادت ترجونى بعينيها ، فقلت :

ـ إلى بيتكم .

ـ آه ... عنده أيضا ؟

- نعم . فاستردت ملامحها العادية كأنها تجيب عن سؤال فى الفصل قبل أن تقول :

- إن أبى مسرور منك جدا . جدا إلى حد لا تتصوره .

- صحيح ؟

- يجب أن تصدقنى . أنا صريحة هكذا لا أعرف الكذب .

- بعض الصراحة طيش ؟!

- لم أوفق حتى الآن فى التفرقة بين « الصراحة الصراحة » و«الصراحة الطيش » أنا أعرف عن نفسى أننى صريحة فقط ..

- وما الذى سره منى ؟

- راهن على أن الأيام المقبلة كفيلة بأن تكشف لنا فيك عن قلب طيب .

- اشكرى بالنيابة عنى حسن ظنه بى .

فقالت ، وأهدابها تلمس قوس حاجبها من فرط ما فتحت عينيها :

- ولماذا لا تشكره أنت بنفسك . ألأنك لن تزورنا مرة أخرى ؟!

فلم أرد . وكنت أنظر فى عينيها بحيرة ، وأسأل نفسى سؤالا جديدا ، أهم من الذى لا يزال معلقا ينتظر حكم العقل « لماذا نحب بعض أناس لا نرضى عن ماضيهم تمام الرضا » ؟! أما السؤال الجديد الذى نبت فى رأسى وأنا إلى جوارها فقد كان « إلى أين ؟! » وانضم السؤالان بعضهما إلى بعض ، ينتظران الإجابة ...

ولما تحول بصرى عن وجهها إلى الطريق رأيت أحد الباعة وهو يقشر التين الشوكى على عربته ويقدم إلى الزبائن بطرف المدية ثمار هذه الفاكهة الوحشية ..

* * *

تذكرت قول أمي ووجهها متقلص واشمئزاز الدواء لا يزال عالقا على ملامحها : « يجب أن تدخر شيئا من دخلك يا بنى ، لتتزوج » — وكان ذلك فى ليلة أحسست فيها حرقة الأرق والقلق .

ومنذ هذه الليلة لاحظت سؤالا ثالثا يطفو على السطح وينضم إلى السؤالين السابقين . وكان منطوقه : هل تصلح عطيات زوجة لى ؟!

فأصبح كيانى فى هذه الفترة مبنيا من أسئلة ثلاثة :

لماذا نحب بعض أناس لا نرضى عن ماضيهم تمام الرضا ؟

إلى أين ؟!

هل تصلح عطيات زوجة لى ؟!

لكن هذه الأسئلة بقيت معلقة فى رأسى تنتظر حكم العقل .

لكن ... هل تبقى أعمالنا معلقة حتى يرسم لنا العقل خطتها ؟! لا ، مطلقا . إنه بالنسبة إلى كثير منا أشبه بالأم المتزنة لست بنات طائشات ... تراجع الأم أعمالهن بعد وقوعها وتحرق من أجلهن أعصابها !!

وانزويت فى أحد أركان الحديقة أدخن سيجارة بإمعان بعد فسحة الساعة العاشرة وكنت فارغا من الدروس محبوسا خمسا وأربعين دقيقة فى انتظار الحصة الأخرى .

وكانت أصوات الأطفال فى الروضة تحمل إلى غناء يصاحبه البيانو ، وصوت أحد مدرسى الإنجليزى يأتى من نافذة فصل . وجرس الناظرة يقرقر طالبا الفراشة . وفوجئت وأنا أدوس بقية السيجارة تحت قدمى على أرض الحديقة بعطيات مقبلة نحوى فى الممر . أخذت

وسألتها ولا يزال بينى وبينها مسافة : (إلى أين ؟!) ثم دق قلبى لأن هذا السؤال لا يزال قائما فى حياتى ، ينتظر الجواب !! فأجابتنى وهى تقف على مقربة منى :

ـ إلى مدرسة البنين . أخذت أقصر طريق إلى حجرة الطبيب هناك .

ـ مالك اليوم ؟

ـ أشعر بغثيان ، ودوار ... مستمر !!

ـ .....

ـ مستمر ؟!

ـ آ .... وكان ينقصها حرف لتصبح آهة . وكان وجهها ذابلا كأنها معصورة لكن صدرها كان حيا . ووضعت يدى فى جيبى بنطلونى ونظرت إليها فى ارتباك وكانت أهدابها تلمس قوس حاجبها وهى رافعة نظرها إلى وعلى فمها شيء أشبه ببقايا الكلام أو بوادره كان أقوى من احتمالى لكننى تجلدت . ولم يكن الصمت طويلا لكن خيل إلينا أنه طال . ومدت يدها إلى صدرى ، فأخذت ، ثم أدركت أنها شاءت أن تعدل ربطة عنقى فى الياقة المنشاة وقد كانت فى غير مكانها . فارتجفت مفاصلى !!

يخيل إلى أننى هممت أن أفعل شيئا بصرف النظر عن أى اعتبار ، غير أنها تركتنى وواصلت سيرها عابرة إلى طبيب المدرسة . وأشعلت سيجارة أخرى وأنا فى مكانى حتى دق جرس الحصة .

لم تعد من نفس الطريق . لعلها خرجت من الباب الآخر . إلى بيتها!!

وبعد ذلك بأسبوع ...

دست عطيات فى يدى رسالة مغلقة وهى تجتاز أحد الممرات وكنت أجتازه إلى فصل غير فصلها ووضعت الرسالة فى جيبى وأنا أتلفت فخيل إلى أن عينى الفراشة أم خليل ترقبنا !!

وانزويت أقرؤها بعد انتهاء الدرس وأنا واقف فى أحد الأركان . كان اسمى على الغلاف مكتوبا بخطها هى فدعانى ذلك إلى أن أحذر حتى لا يجوز ارتجاف يدى على الخطاب فى الداخل فيمزقه . لكننى فوجئت حين وقعت عينى على الخطاب أنه بخط رجل ، بخط غير خطها على كل حال . وفوجئت مرة أخرى بأنه مذيل بإمضاء أبيها . ولم تزد الرسالة على بضعة سطور فى أولها تحية واحترام وفى وسطها سؤال عن الصحة وفى آخرها استدعاء على عجل لأمر (خاص وهام) !!

كان اليوم يوم خميس والدراسة فيه نصف يوم . ولم أر عطيات وأنا خارج حتى أسألها عن الأمر . وتغديت فى أحد المطاعم بنفس قلقة ، مجالات التخمين مفتوحة أمامها فى كل اتجاه . ولم أجد بى حاجة إلى النوم بعد الغداء وإن كان النوم من عادتى ، فجلست على قهوة الكوكب أضيع الوقت حتى جاء الميعاد .

فتحت لى مريم خادمتها المتآكلة غرفة الضيوف . ووقف على بابها أحد الأطفال ينظر إلى وهو يقضم قطعة الشيكولاته وفى عينه تأمل ،

فجرته يد الخادمة ، وسمعت السعال المخرخش فى الصالة فعرفت أنه الوالد :

- أهلا وسهلا بك فى بيتك . كيف الحال يا أستاذ عبده ؟ من زمان !

- تحت النظر يا عمى .

- أهلا وسهلا . أهلا وسهلا . وأخرج علبة السجاير .

وتفرست وجهه أقرأ فيه أنباء المستقبل فتعثرت فراستى بين تجاعيده .

ثم دخلت علينا الأم بجسمها الشاب ووجهها العجوز فعجبت كيف تحتفل مثل هذه السيدة بسبوع جديد . وخيل إلى أنه كان يجب أن تقفل مثل هذا الدكان منذ سنوات . لكنها أحوال !!

وابتدأت (أهلا وسهلا) تخف عن الحديث وسألتنى الأم عن بنتها ، وقلت بالطبع ما يقوله الناس . ودعت هى لها بالمستقبل السعيد وهى تنظر إلى غوايشها الذهبية وإلى خاتم الزواج فى كفها الشمال . ودخلت عطيات علينا بعد ذلك .

ونظرت فى الساعة لأستعجلهم وقالت عطيات : (وراك كراسات) ؟

فقلت وأنا أضحك : ورائى وأمامى وخلفى وقدامى ، وتحت قدمى وفوق رأسى . واستغرق الجمع فى الضحك . وعادت الفتاة تسألنى :

- وأين كراساتى بين كل هؤلاء ؟ فأشرت وأنا خجلان إلى رأسى من أعلى .

وسر الأب بأدبى ، وابتسمت الأم ، ونقلت عينين غير مستحيتين بينى وبين بنتها كأنها تقيس بيننا المسافة . ثم قال الأب بعد صمت قصير :

ـ أيوه يا أستاذ عبده . هناك موضوع أرجو أن توافق عليه .

ـ نعم يا عمى .

ـ أنت تعلم أنى موظف فى وزارة الصحة ، ورئيسى هناك رجل طيب ، وقد كلفنى خدمة . (وسكت) .

ـ نعم يا عمى .

ـ سألنى عن مدرس مخلص لأحد أبنائه ...

ـ فهمت ، وأشكرك .

ـ موافق ؟

ـ وبالمجان من أجلكم .

ـ لا . لا . أنا أتحرى مصلحتك أولا وقبل كل شيء . إنك لا تعدو الآن أن تكون أحد أبنائى . هل تحس بذلك ؟!

ـ أشكرك . هذا أملى فيك .

ولما انصرفت كانوا يودعوننى عند الباب . وكانت عطيات بينهم ، ناضرة نوعا . والجو مائل إلى الدفء ، وروائح الامتحانات تهب من قرب . وحين دلفت إلى الشارع كنت أفكر فى الموضوع من نواح شتى ، لكنه استغرقنى حتى غرقت فيه !!

وبدأت أعتبر التلميح غيرة والتهكم حقدا والسؤال بالحسنى تدخلا فى الشخصيات . وأخذت العلاقة بينه وبينها وضعا سافرا تحوطه من ناحيتى ركانة وعدم اندفاع ، ومن ناحيتها أن لأبويها صلة بى تزيد كثيرا على الصلات العادية .

لكننى حتى هذه الفترة ، لم أجلس معها فى خلوة ، وكنت أرى فى عينيها توددا ووعدا ، فشعرت أنى أملك شيئا . ووازنت بين مسلكى ومسلك حبيبها القديم (الذى أكدت لنفسى أنها نسيته) فوصفته ـ ولست أدرى لماذا ـ بأنه ... رجل سخيف !!

وهكذا حللت العقدة وتوهمت أنه حكم سليم ، وإن بقيت الأسئلة الثلاثة التى يتركب منها شبابى معلقة تنتظر الحكم .

وفى مساء يوم سيظل ماثلا فى خاطرى ... كان يوم خميس أيضا ذهبت فيه لأزور صديقى ساكن الدور الرابع من بيتها الذى تسكنه . ومررت على بابها فرأيت نورا ينبعث من ورائه خافتا بعيدا ، فلم أعرج بل واصلت صعودى لاويا عنقى إليه . فوجدت شقة صديقى غارقة فى الظلام ، وكان أمام بابها باب السطح فرأيت عند مدخله صفيحة القمامة ، وقطة بلقاء تنكت فيها فاستوحشت وأسرعت بالنزول.

وتوقفت عند بابهم كأنما نقد وقودى . وطرقت عليه خفيفا فلم يرد أحد وخيل إلى أن أحدهم فى الداخل ولا يريد أن يفتح ويسأل من هذا

الثقيل ؟ لكنني تذكرتها فخبطت بشدة . ولمع نور المصباح الخارجي على رأس الباب قبل أن تفتح الخادمة المتآكلة وكفها على خصرها كأنها تشكو وجعا .

ـ تفضل يا سيدى !.

فدخلت لا ألوى على شيء . لم أسمع صوتا وأنا فى حجرة الجلوس كان البيت خال من السكان . ولم أسمع دبدبة فوق رأسى كما هى العادة لأن أسرة صديقى كانت فى الخارج . وخيل إلى أن وحدتى طالت فصفقت ليجيء من أستأذن منه فى الخروج وفى هذه اللحظة كانت عطيات تعبر العتبة ... فى ثوب أبيض فيه نقط حمراء قدر حب السمسم . وجسم مال إلى النمو حتى خيل إلى أن الثوب القديم لأنه كان يدنو إلى القصر وجلست على كرسى مجاور وهى ترحب ، ولم ألبث أن سألتها عمن هنا فأجابت :

ـ غايب يا أفندم !!

ـ لماذا ؟

ـ فى فرح يا فندم !!

ـ ولماذا تخلفت عن القافلة !!

ـ مشغولة يافندم !! (وأطرقت تنظر فى حجرها وهى تضحك) .

ـ جدا ؟!

ـ آ ... (وهى التى تخصها والتى ينقصها دائما حرف (لتصبح آهة) ... ونظرت بعينى المسكينتين إلى صدرها الحى فخيل إلى أنه يلمس صدرى . وأحسست بحاجة إلى أن أسمع كلمة من عطيات ،

كلمة معينة ... بدت لى كأنها « أمر بالحياة » وأن كل القوى الظاهرة والكامنة فى كيانى ستنبعث فورا عند سماع هذا « الأمر » .

وظلت عيناى المسكينتان تنظران فى فتحة الثوب فوق الصدر وتحت العنق . وتخيلت ثانيا أن شيئا عذبا يتفجر من هذا المكان فلم أملك نفسى حتى لمسته .

عند ذلك ألقت رأسها على كتفى فى استسلام طبيعى بلا خوف ولا ترتيب . وكانت تنظر إلى تحت فرأيت رأسها من أعلى وتأملت شعرها المفروق من ناحية ثم قبلته .. وحين أمسكت ذقنها بإصبعين لأرفع وجهها إلى انطفأ النور فوق فمى على فمها فى الظلام . ثم حاولت أن تتركنى لتشعل مصباحا فلم أفلتها من بين يدى . وكانت الخادمة فى الداخل مشغولة بالبحث عن علبة الكبريت فى المطبخ فأوقعت على البلاط إناء من النحاس أحدث ضجة فى السكون المظلم . وكان الحى منطفئا كله فسمعنا ضجة الفجأة عند انطفائه ثم أعقبها صمت !!

وعند ذلك استطاعت عطيات أن تسمع همسى :

ـ أتحبيننى ؟!

فأجابت بوله :

ـ آ ... جدا !!

ثم سمعت أنفاسها وأنا أطوق خصرها بذراعى ، وسمعت بعد ذلك قولها بنبرة يغلب عليها الضحك :

ـ ولكن ... لماذا لم تسألنى هذا السؤال ... ونحن فى النور ؟

وغمغمت بضحكة وأنا أفتش عن شفتيها من جديد ثم قلت لها :

- أعيده ... أعيده طول الليل حتى تطلع الشمس ، وأعيده طول النهار حتى تغرب ...

وجاء صوت الخادمة من ظلام الصالة يسأل ونحن ملتصقان :

(ستى ... ستى ... ستى ... فين علبة الكبريت ؟!)

ولما انفصلت عنى وذهبت مع الخادمة ، استطعت أن أدرك أى شيء فعلنا ، ففكرت فى النزول عندما تعود . لكن النور سطع فجأة وجاءنى من المطبخ صوت ضحكتين . فابتسمت وأنا فى مكانى لأن مفاصلى كانت مرتعشة .

* * *

ومنذ ذلك اليوم جعلت ألتمس الأعذار للأحباب حتى كدت أرى تسللهم إلى المدفن القديم تحت نافذتى أمرا يكاد يكون طبيعيا !!

حضن وقبلة غيرا رأيى وحولا أفكارى عن جمال افندى . ولم تعد الإسكندرية تخطر على بالى من أجل خاطره ، وتبعت الحياة كلها وصبت من (عطيات) ولم نعد نأبه كثيرا بالعيون المتطفلة التى تناوشنا فى الفصل ولا بالأقاويل الباطلة أو الصحيحة التى تشاع حولنا . وأصبح ماضى حمودة مع زوجته دستورا غير مكتوب أقتبس منه قانون علاقتى معها ، حتى انتهى العام !!

وكان حتما أن أسافر ...

لأن هناك شئونا فى القرية يجب أن أشارك فيها : أمى مريضة ، وتوحيدة على وشك أن تزف إلى زوجها . وهناك بعض حسابات بيننا وبين المزارع على أن أصفيها وأنا الرجل الوحيد فى البيت منذ مات أبى .

وخيل إلى أن الهواء الصالح للتنفس لا يوجد إلا في فضاء القاهرة وأننى سأختنق إن رحلت . قلت لها ذلك بالحرف حتى ضحكت من قولى بمرح ، وقبلتنى خلسة وأنا خارج من مسكنهم آخر السهرة حين ودعتنى إلى السلم ولم يكن أبوها هناك فى هذه الليلة وتشاغلت أمها بعمل كأنما لتمنحنا فرصة .

وقلت وأنا أدور مع الدرجات نازلا إلى الشارع ونور غير زاه يغمر البسطة .

قلت ووجهى إلى أعلا وهى منحنية على الحديد تودعنى بهمساتها :

ـ أسبوع واحد .. فقط !!

ـ صحيح ؟!

ـ صحيح !!

ـ وإن زاد ؟

ـ عملت على أن أفصل بينه وبين الذى سيليه بمدة ... ولو بيوم واحد أقضيه فى القاهرة ، ثم أرجع ...

ـ مع السلامة .

ـ ...

وتنهدت وظللت ناظرا إلى أعلى حتى وصلت إلى الأرض ، وعبرت العتبة فألقيت نظرة على واجهة البيت .

وهناك فى القرية رأيت أشياء كثيرة ، قوية ، استطاعت إمكانياتها أن تنسينى وعدى . ومر أسبوعان وأنا مقيم لا أفكر فى العودة بإلحاح لأن أمى كانت متعبة ، مريضة تريد أن تعجل بزفاف بنتها ، أما البنت

الأخرى فليرعها الله !! وأما أنا ، فأنا رجل ، لا يخشى على من حيف الزمن !! (هكذا قالت أمى) .

وسافرت توحيدة مع زوجها مساء وأضحى بيتنا فى اليوم التالى عميق السكون . وظلت أمى فى فراشها حتى وقت متأخر من النهار ثم نهضت صفراء . واستيقظت زينب منذ الصباح الباكر وكانت تعمل حاجات البيت بسرعة غير عادية ووجه غير باسم كأنما يحزنها أمر .

وقلت لهما : لا بد أن أسافر .

ـ هل وراءك شيء يا بنى فى المدينة ؟!

ـ أوه ... بل أشياء .. هل نسيت ما قلته يا أمى ؟ ألست معى فى أنه من الضرورى أن أجتهد حتى أدخر شيئا لزواجى ؟ دروس !! درس خصوصى بانتظارى هناك ... لا بد أن أسافر .

فنظرت زينب إلى من فوق كتفها وهى تعجن فى وعاء صغير وأطرقت أمى تنكت الأرض بعود ثم تنهدت ودعت لى بالنجاح .

وكنت واثقا أن عطيات قلقة من أجلى وأنها ربما كانت غاضبة منى لأننى أخلفت وعدى معها . على أن نار شوقى إليها كانت شديدة . وكنت وأنا فى طريقى إلى المدينة أقلب الثلاثة الأسئلة التى يتركب منها شبابى لأصل إلى نتيجة سريعة مع هذه التى أحببتها ....

ورميت ببصرى من نافذة القطار وأنا أقول فى نفسى : إذا أدركنا كيف نولد ... أدركنا كيف نحب .

ثم ابتسمت وأنا أرجع ببصرى إلى الداخل ليقع على رجل ينهش خيارة كبيرة وكنت أسمع قطمة فيها وأنا أفكر . وكان يتكلم مع فلاح آخر ويحدثه عن أسعار القطن .

وحين دخلت شقتي الصغيرة رأيت التراب معششا فيها وصحيفة من صحف المساء مرمية على السرير تحمل التاريخ الذى رحلت فى صباحه . ونظفت المكان بقدر الإمكان ثم اضطجعت . وكنت أسأل نفسى : هل تصلح عطيات زوجة لى ؟؟ فأجابتنى كمن يزجر طفلا : «تصلح !! » .

ولما عدت أسألها : لماذا نحب بعض أناس لا نرضى عن ماضيهم تمام الرضا ؟ أجابتني بنفس الطريقة : « دعك من الماضى . العبرة بالمستقبل !! ومن حق الفتاة أن تلقى شبكتها !! » .

ولما سألتها السؤال الثالث : إلى أين ؟! أجابتنى بعنف شديد : « أيها الغبى ، إلى حيث يذهب كل الناس !! ... »

فضحكت وأنا مستلق على ظهرى كأننى سمعت نكتة ، وكنت نائما بملابسى التحتانية فقط ، بلا جلباب من شدة الحر . فقمت وأنا أتمطى لأسحب حذائى من تحت الكرسى ، وحين أتممت لبس ملابسى كان الليل قد هبط وخيم على الحارة سكون ناعم .

ووصلت إلى ناصية الشارع الرئيسى فرأيت عطيات تعبر فيه . عرفتها من ظهرها . كانت متجهة ناحية بيتها سالكة إليه أقصر الطرق . وخيل إلى أن عودها نما فى الخمسة عشر يوما ، فأصبحت طويلة وبان بيان ساقيها ودقة خصرها أكثر وأكثر .

وليس أيسر على نفوسنا من إلغاء الناس من حسابنا فى بعض الظروف . الناس الذين نذكرهم بغير وعى ، حتى حين نعقد ربطة العنق أو نرمى بزر الطربوش إلى الوراء ، ننساهم ببساطة حين تنبض قلوبنا بشدة .

وهتفت وأنا أسرع الخطا كأننى أجرى فى الشارع : عطيات .. عـ ... فإذا بها تلتفت ، وتقف كأنما نفد وقودها ، كما كنت أقف عند باب شقتهم . وسلمت عليها بكفى الاثنين ولم أتكلم ، وشدتنى إلى اتجاهها ، فمشينا عدة أمتار . فسألتنى وهى تضحك : هل جئت ؟ فأكدت لها أننى لا أزال غائبا ... عن وعيى وحسى ، لأننى لم أرد !!

كان ريقى جافا وأطرافى باردة لكننى وقفت فجأة فى عرض الشارع كما يقف الحصان الحرون . وشعرت عطيات بخطر داهم ففغرت فمها وفتحت عينيها . لكن ظل البشاشة وقف على خديها على الرغم من كل خوف ، وسألت : مالك ؟!

ـ لنرجع !!

ـ إلى ... ؟

ـ إلى البيت .

ـ أى بيت ؟!

ـ بيتى .

ـ لماذا ؟

ـ لماذا ؟

ـ أليس ذلك مخيفا ؟!

ـ لا !! مطلقا .

ـ يخيل إلى كأن كل الناس يعرفوننى هنا .

ـ يخيل إليك ... فقط .

ـ .....

ـ لنرجع !!

فاستدارت في صمت وسرنا كأننا في حلم وأوحينا إلى نفسنا بطريقة رجوعنا بمعان ربما كانت لا تخطر على بالنا من قبل . وحين دخلنا الحارة سرنا بجانب السور ومررنا على الفجوة المفتوحة التى صنعها الصبيان ليدخل منها العشاق إلى ظلال الشجر . وارتجف جسمى جدا كأنها كانت نافذة مفتوحة على (القطب) عبرت إلى من خلالها أنفاس الجليد ، لكننا واصلنا مسيرنا حتى دخلنا البيت . وعثرت عطيات فى أول درجة من درجات السلم وكانت مكسورة فأمسكت بيدها فى الظلام ثم أنهضتها . وأطلقت الظروف فى نفسنا بعض معان أحسست قوتها كأنها يد تقلقنى . وحين أشعلت نور الحجرة التى تحوى كل أثاثى كانت عطيات متداعية لا يبدو على وجهها شيء من جرأتها المألوفة !!

وسألت نفسي بسرعة : لماذا تبدو هكذا ؟! سألت نفسى هذا السؤال فى اللحظة التى رأيتها فيها تتحرك نحو النافذة لتلقى نظرة على الفضاء المواجه . ذى الشجر ، الساكن المظلم ، الذى تلمع من بعده مباشرة أضواء الشوارع . فقلت لها وأنا أقف إلى جوارها وأشير إلى شجرة بدت أكثر ضخامة :

- هناك رأيتهم يلتقون ؟

فهزت رأسها تسأل :

- من ؟!

وكان ظهرنا إلى النور فبدا بياضها أشد نصوعا ، فقلت :

- الأحباب .

فشهقت من الخوف ولم ترد على . لكن كل شيء فيها كان يدفعنى إلى الكلام وإلى أكثر من الكلام . فقلت وأنا أمسك كفها :

ـ وعرفت ـ منذ ليلتها ـ أنه أقوى من الحياة ، ومن الموت كذلك !!
فنظرت مستفهمة ، مع علمي أنها تفهم !!... فوضحت :
ـ أقصد ... الحب !!
وضغطت على (الباء) وعلى كفها ... !! ففتحت فما حبست فيه آهة ...

« وهناك بعض أعمال يزاولها الناس حتى في المرة الأولى بنفس الطريقة وبنفس الدافع الذى نلتقم به الثدى لنمتص منه غذاءنا لأول مرة . لكن هذه الأعمال جميعها نعبرها كما نعبر الأحلام ، ثم نحس أننا مارسناها ، بالنتائج التى تتوصل إليها . أما العمل نفسه فقد لا نشعر به !! »

فقد قالت عطيات تسألنى وكان على وجهها جزع حقيقى :
ـ وكيف عملنا كل هذا ؟! فأجبتها وأنا مستخذ :
ـ طبعا ... بلا قصد .
قالت وفى عينيها دمعتان كبيرتان :
ـ طيب ... والنتائج ؟!
قلت وأنا أقبلها قبلة لم أحس لها حلاوة كأننى آكل جميزا بعد أن مصصت السكر :
ـ النتائج ؟!... أى نتائج ؟!... سنتزوج .. ضرورى !!
وحين كانت تهبط السلم رأيتها تتلفت كأنما ضاع منها شيء . وحين استقررت فى مكانى من الحجرة رقدت وأنا أنظر إلى مصباح السقف وكنت أذكر شيئين كانا أكثر وضوحا من كل ما وقع :
قولى لها : سنتزوج !!

وقول أمى لى : تزوج يا بنى !!

ليلة كان على وجهها تقلص واشمئزاز من طعم الدواء وفى عينيها شرود ووجل من المستقبل ...

فهل درت أمى ليلتئذ أن هناك أناسا يتزوجون بطريقتى أنا وعطيات ؟!

- ٧ -

كنت أريد أن ألقاها كل يوم !!

ففى الحب أشياء أحلى من الشكوى . ذقناها ونحن فى غفلة . فلما أفقنا لم تعجبنا . حتى أحسست عصر اليوم التالى أنها شىء طبيعى ...

وطرقت عليها بابها ففتحت لى مريم ، خادمتها ، ذات الثوب الرمادى الذى لا يتغير والوجه اليابس . وأشارت وهى مطرقة إلى الأرض نحو حجرة الجلوس .

وكان ذلك فى المساء . وكان البيت ساكنا كأن ليس فيه إنسان . وخيل إلى أننى سمعت سعلة أبيها ذات الخرخشة وكأنما مر فى الصالة ولم يدخل . وأطل الطفل الصغير من باب الغرفة وهو يقطم شيئا فسحبته يد لا أعرفها . وطالت وحدتى حتى شعرت بالإهمال . ربما كنت مرهف الحس فى هذه الليلة كثير الخيالات لكن أمها دخلت على وعلى فمها ابتسامة مغتصبة وكأن فى أعماق عينيها شيئا غير الذى يبدو على السطح .

وقدمت إلى القهوة فارتعشت يدى بالفنجال حتى تلوثت ثيابى فنظرت إلى الأم بزاوية وهى تقول : « معلهش . خير إن شاء الله !؟ » وتكلمنا عن كثير : عن الناجحين والناجحات ، والراسبين والراسبات ، وعن موجة الحر التى اجتاحت القاهرة والتى قالت مصلحة الأرصاد إنها لم تشهد مثلها منذ ثلاثين سنة ... كل ذلك وعطيات لم تظهر .

وتحيرت . هل أسأل ؟!

وبعد إطراق وتفكير استجمعت فيه قواى ، جازفت أقول :

ـ هل عطيات مسافرة ؟!

ونظرت إلى وجه الأم فرأيت على فمها اللئيم استصغارا لمجهودى وكأنها كانت تقول « على مين ؟! » . ثم هزت رأسها بالنفى :

ـ لا ... إنها هنا ... غير أنها متعبة قليلا .

وكأنما حملت كل كلمة من إجابتها شيئا من سر ليلتنا المعهودة فبلعت ريقى وأطرقت أنظر إلى حذائى الذى لم يلمع وكان عليه شىء من تراب الريف . وبعد مجهود جديد جازفت أسأل :

ـ ولا تستطيع أن تنهض من فراشها ؟

فقالت بشبه أسف :

ـ تستطيع ، لكن ، أظنها الآن نائمة ... لأنها لم تنم ليلها الماضى .

فاستأذنت فى الخروج فلم تستبقنى وقتا آخر .. ولم تودعنى إلى الباب بل سلمت وهى فى مكانها وتركتنى أفتح بنفسى بابا مستقلا يؤدى إلى البسطة ، فنزلت ورأسى يدور كأننى خارج من حانة . ولما اقتربت من قهوة الكوكب سمعت ضجيج بعض المعارف وهم يلعبون وتوقفت على البعد نفسه أوازن بين الراحتين اللتين أطلب كبراهما . راحة

الوحدة ، وراحة الاندماج فى الناس . فألفيتنى أضع يدى فى جيبى بنطلونى وأجد السير نحو شقتى الخالية .

وبددت الليل بالطريقة التى يبدده بها المؤرقون . أطللت على النوافذ من حولى وتخيلت أشياء تناسب قلقى . وعلى الفضاء ذى الشجر . وحين رأيت عاشقين ينفذان إلى الداخل من الثغرة المفتوحة خطرت ببالى عبارة قرأتها فى جريدة يومية قالها واعظ من وعاظ السجون لمحكوم عليه بالإعدام « من دخل باب الجريمة خرج من باب العقاب » ثم حورتها أنا وأنا أنظر إلى الفتحة : « من دخل من باب اللذة خرج من باب الندم » . ثم استلقيت فى فراشى أنظر إلى مصباح السقف حتى نمت ثم استيقظت والنور موقد والحر خفيف والوقت قريب من الفجر وبعض نسمات وانية تلعب بأشجار المدفن . فأطفأت النور ثم استأنفت نومى .

وعندما صاح أول بائع فى الحارة كنت لا أزال محتاجا إلى الراحة ، لكن طرقة على الباب أرجعتنى إلى اليقظة . قلت فى نفسى : حتما ، ككل مرة ، واحد أو واحدة من أهل المرضى الفقراء الذين يسألون عن الممرض الساكن فوقنا ... لعنهم الله . دائما يخطئون !! لكننى إذ فتحت وجدت إنسانا يطلبنى .

مريم !! ... خادمتها المتآكلة ذات الثوب الرمادى الذى يغير بثوب رمادى . كانت كأنها ناهضة من فورها من النوم ، وكأنها لم تغسل وجهها بعد ، وناولتنى رسالة مغلقة وهى تلقى تحية الصبح ، ثم نزلت فلم أسمع وقع أقدامها لأنها حافية .

لم تكن بى قوة تساعدنى على فض الرسالة بسرعة . ولم يكن على غلافها كتابة ، فلم أجزم بأنها منها هى .

ووضعتها على المنضدة وجعلت أنظر إليها وأنا أهمس « يا فتاح يا عليم » ، وبائع الفول ذو العربة المتنقلة يجادل إحدى البنات بصوت مرتفع . ثم ... فضضت الرسالة فكانت منها هى !!

قرأتها ثلاث مرات حتى عرفت طعمها ، لا لأنها كانت غامضة أو ضعيفة ، بل لأنى كنت فى ذهول . ورأيت فيها أثر سهرها لأنها طويلة ، ورأيت فيها أثر مجهود استعانت فيه ببعض الكتب . كأنها مذكرة لأحد المحامين .

قصت علينا قصتنا مرة أخرى !! لكنها جعلت من نفسها فتاة مسلوبة الإرادة ... كواقفة فى الصحراء تبحث عن الطريق ، فإذا سمعت أى صوت اتجهت إليه . معذورة !!

وأنها لا تستطيع أن تقول لأبيها شيئا إلا إذا أخبرته قبل أن ترحل ... إلى مكان فى الدنيا ، أو مكان فى الآخرة !!

أما أمها فإنها تشم . لأن الأمهات اليقظات يشممن رائحة البنات ، ويعرفن ما يجول فى خاطرهن !!

وأخبرتنى أن الأرق سيجننها ، وأنها لا تنام لا فى الليل ولا فى النهار وأنها أصبحت كالمنزوفة ، صفراء مثل القطنة المندوفة ، هزيلة ليس فيها إلا عينان تبرقان . كل هذا فى فترة وجيزة .

وأخبرتنى أنها لم تقابلنى ليلة أمس ، فى بينهم ، لأن الموضوع كان حتما سينكشف ، لو أنها طاوعت نفسها وقابلتنى . كان لا بد أن تبكى عندما تقع عيناها على ... فماذا يكون الموقف ؟!

وذكرتني بشيء غريب لعلي لم أنتبه إليه ليلة دخولي بها إلى شقتي . ذكرتني أنها عثرت على السلم عند أول درجة !! في الظلام !! ثم وقعت !! فتشاءمت في نفسها !!

لكنها عادت فذكرتني بأنني أنهضتها من عثرتها حين أمسكت بها من تحت إبطها ، ثم استأنفنا صعودنا !!

ثم ذكرت أنها خرجت في الصباح التالي لليلة نفسها ، لبعض الشؤون . فلما وصلت إلى باب الحارة رأت طفلة بنت خمس سنين في ثياب مدارس الروضة واقفة تبكي في خوف وقلق وانكسار ، وقد ضمت إلى صدرها طبقا فارغا . وكان بكاؤها يثير الشفقة والدمع والضحك !! كانت تمثالا صغيرا ضخما للمسئولية . وفهمت طبعا أنها أضاعت شيئا . وقد كانت الطفلة قد فقدت القرش الذي ستشتري به الفول بتكليف من أمها . وأخرجت الطفلة إصبعها الصغير من الخرق الكبير الموجود في أحد جيوب (المريلة) البني .

فأخذتها عطيات وهي تضحك ... واشترت لها الفول من نقودها ثم تركتها تعود وعلى خديها الصغيرين بلل دمع ، ولا يزال في صدرها بقايا شهقات .

وبعد أن خطت عطيات في طريقها إلى حاجاتها عدة خطوات ، بكت بأشد من دموع الطفلة ، ولم تستطع أن تواصل السير فقفلت راجعة .

وكان منظرها بعد عودتها إلى البيت يثير الشكوك .

هذه الطفلة الصغيرة فقدت شيئا صغيرا فوقفت تبكي عليه ولم تستطع أن تواجه المسئولية . فماذا تفعل الطفلة الكبيرة التي فقدت شيئا كبيرا ؟!

(وإلى اللقاء . إن التقينا !!)

وبهذا ختمت رسالتها .

فهمست ثانيا وأنا أضعها من يدى « يا فتاح يا عليم » . ثم تنهدت .

وكانت مخاوف كثيرة ترقد فى باطنى بعضها من شيء مؤكد وبعضها من شيء محتمل الوقوع . من المؤكد أن أمرنا سينكشف فى يوم ما ، ومن المحتمل أن تهرب عطيات كما قالت فى رسالتها إلى مكان فى الدنيا أو مكان فى الآخرة .

وتخيلت أنها هربت إلى مكان فى الدنيا ، فلم أجد موضعا لائقا بها إلا الإسكندرية ... كأنها بائعة فى متجر كبير ، أو كأنها جالسة على الكرسى العالى أمام صندوق إحدى الصيدليات ، هاربة من الماضى خائفة من الملامة . وكأن (جمال) لقيها فجأة فتعرف بعد برهة على الفتاة المرحة منطوية بين أعطاف البائسة المسكينة فحملق فيها فارتمت بين ذراعيه باكية من الذئب الذى اعترض طريقها فى القاهرة . ثم سألت نفسى : « وهل أنا ذئب ؟! ... إذا كنت حيوانا ، فهل أصلح ذئبا ! » ومصمصت بشفتى !!

وإذا هربت عطيات إلى مكان فى الآخرة ، فما هو هذا المكان يا ترى ؟ وتصورتها فى الجنة فى ثياب الشهيدات ، ثم تصورتها فى ثياب الساقطات ، فتألمت من أجلها فى كل حالة .

تنهدت ثانيا كأنما لأجعل التنهد فاصلا بين فكرة وفكرة ...

وأخذت أتساءل : ماذا يجب أن أفعل . وكيف أراها ؟

وصممت على أن أعود إلى بيتهم مرة أخرى . وفى هذا المساء . أما الخطة فلن أرسم خطة . ما قيمة الخطط فى هذه الهيجاء ؟! إن

الخطط التى خابت أكثر جدا من التى نجحت ، فى حياة كل الناس !! هناك ، وبوحى من الوجوه التى تلقانى سأرتجل عملا . ما أفظع عينى أبيها الطيب ، العاتبتين ، حين يدخل فى جلباب وقلنسوة ، فصلتا من قماش واحد ؟! وما ...

وانقضى اليوم ثم هبط المساء . وتذكرت أننى لم آكل وقت الظهر ففضلت أن آكل لقمة قبل خروجى . فرصة ، فربما حدث ما لا يسر ، فأغتنم ما قد أكلت .

وحين وضعت البيض المسلوق والجبن الأبيض على مقدمة المنضدة أمام الكتب طرق الباب ، فسرت وأنا ألعن المرضى وأهل المرضى ، والممرض الذى يسكن فوقى من أجل خاطرهم هم . وحين فتحت لم أجد أحدا ، فرجعت وأنا ألعن أوهامى .

وتكرر الطرق بعد أن اجتزت الصالة ، فرجعت مصمما على أن أرى الموضوع . وخرجت إلى البسطة ونظرت فى كل اتجاه ، شبحا واقفا فى ظلمة السلم ، تحت ، على بعد عشر درجات ، وكان بياض وجهه واتساق عوده ، لا يدع مجالا للشك فى أنها هى ، فهمست من أعماقى : عطيات ؟!... فسألتنى بصوت خافت وهى فى مكانها :

ـ ألنت وحدك ؟!

ـ نعم . تعالى !!

فاستأنفت صعودها ، وكانت لابسة حذاء من الكاوتش ، فلم أسمع وقع أقدامها على الحجر ، وأقفلت الباب وكأنما الدنيا كلها ستدخل على إثرها .

وكانت فى حالة يرثى لها .

لم تكن كاذبة فيما وصفت به نفسها . كانت كالمنزوفة ، أو كالقطنة المندوفة . غير أن هذا كله لم يستطع أن يهزم أنوثتها .

ورأيت عطيات الحاضرة أمامى فى صورة جديدة : تخيلتها أمرأة تمشى فى القرية فى يوم شتوى كثير الوحل ، وتلبس جلبابا طويلا يعوق من تلبسه ، وتمشى حافية فى الطين ، وتحمل على رأسها قفة من الدقيق ثقيلة ، تعبث الريح بخطائها من فوق . وهى حريصة على أن تصل إلى الدار بهذا الحمل المهم الثقيل الغالى قبل أن تتزحلق ، أو أن يبعثر الهواء ما فوق رأسها ، أو أن يرى الرجال سيقانها العريانة . وهى بعد ذلك كله .... تلهث . وتلهث ....!!

وفتحت عينى كأننى أطرد حلما ، واستحالت بلادتى إلى إصرار . ولما رأيتها جالسة على كرسى وهى مطرقة ، وشعرها البنى المنهدل يوارى وجهها من جنبين ، قمت فى صمت ووقفت خلفها ، ورفعت رأسها إلى الوراء وقبلتها . وقالت عيناها كلمة موجعة لم ينطق بها فمها :

ـ هل بقى ما أخاف عليه ؟

فقلت لها :

ـ أأنت حزينة ؟!

فبكت . فأخذت أجفف دمعها بكفى وأقبلها فى رأسها ، كأنما لأثبت لها أننى أقبلها لغير المعنى الأول . وكان العشاء لا يزال على المنضدة وأنا بملابس المنزل . وبعد أن أفاقت قالت تخاطبنى :

هل تعرف لماذا جئت الآن ؟... لا ، طبعا (ثم سكتت قبل أن تستطرد) لأخبرك بأننى لم أطق أن أحتمل الذى حدث ، وحدى . قلت لأمى !! وبكت من جديد وهى مطرقة ...

وساد الصمت . وكنت جالسا على طرف المنضدة ونظرى جهة الشباك ، فوقعت عينى على الأشجار المواجهة فى المدفن ، وكانت ساكنة كأنها مرسومة . وتذكرت الحوادث ... كلها بالتفصيل .

وكانت عطيات لا تزال تشهق وهى تنظر إلى أناملها المبلولة ببعض دموعها حين قلت لها :

ـ أنا سامع .

ـ قلت لأمى ... آ ... (ثم سكتت) .

ـ هيه ...

ـ وقد قالت لى : سيصبح الأمر خطيرا إن تجاوز السر نطاق « الحريم » والأستاذ عبده نفسه أقدر الطرفين على تدارك الموقف .

آ ... ثم ... مسألة الهرب ...

ـ مالها ؟!

ـ تركتها الآن مؤقتا حتى أرى الموقف .

ولم أرد !! فساد صمت جديد . وملأت الجو فرقعة شديدة جاءت إلى أسماعنا من انفجار عجلة سيارة فاهتززنا فى أماكننا ثم نظر كل منا إلى الآخر . ثم استطعنا بعد فترة أن ينظر كل فى عين صاحبه وكنا قبل ذلك لا نستطيع كثيرا ورفعت إلى وجهها وهى جالسة وأنا نصف واقف ونصف جالس على زاوية المنضدة فرأيت المهرة المرحة مرهقة من التعب .

هتفت دون أن أعى ، ولكن بحنان :

- عطيات !!

- نعم !!

- لا تخافى !! فقالت بانكسار ذليل :

- متشكرة !! ونظرت فى حجرها . فأخذتها بين أحضانى فاستسلمت قليلا ثم دفعتنى فى صدرى بكلتا راحتيها .

وكان فى يديها رفق وكان فى عينيها قساوة وكان على شفتيها المتقلصتين بوادر ملامة . فانكسفت !!

* * *

ولم يطل مكثها فانصرفت بأفكارها وتركتنى لأفكارى . واتفقنا قبل نزولها على أنى سأطلب يدها من أبيها . غدا ، غدا عصرا ، بلا تأخير .

وأذكر أنى تلجلجت كثيرا وأنا أتحدث مع والدها وكان الرجل يتكلم بطلاقة وقد بدا كأنه لا يعرف شيئا . ودخلت أمها قبل أن أفتح الموضوع فتذكرت شاهد الإثبات فى الجنايات الكبيرة . وبعد أن أعاننى الله ونطقت (بالكلمة) تبسمت أمها فخيل إلى أن غيوما قد انقشعت .. وقبلنى الرجل من جبينى وأنا خارج . ولم أر عطيات فى هذه المرة لكننى سمعت فى الصالة حركة غير عادية عقب نطقى (بالكلمة) أشبهت حركة الإفطار فى مغارب رمضان تلك التى تعقب انطلاق المدفع .

وتناوبتنى فى هذه الليلة إحساسات كثيرة . أحسست كأننى غبنت فى صفقة كبيرة . أو كأننى اشتريت شيئا ما كان ينبغى لى أن أشتريه وحدى . وتارة كنت أحس كأنى خطفت ، أو كأننى خطفت ، أو كأنى

أحمل خرجا ثقيلا مملوءا بالحديد يكاد يخلع كتفى ...

ولذلك ثرثرت بالخبر لكل من لقينى . وقصدت أولا وقبل كل شىء إلى قهوة الكوكب حيث رأيت المعارف هناك مجتمعين يلعبون فألقيت عليهم الخبر المفاجئ فسهمت وجوههم وتوقفوا عما يعملون ، ثم ضحكوا كأنهم سمعوا نكتة ، ثم مط حموده عنقه وقال هامسا وقد بدت أسنانه الصدئة :

ـ يا سلام !! وعملتها ؟.. وقدرت ؟!... وعطيات ؟!... ألا خيبة الله عليك ... لكن ... مبروك ... مبروك يا عم !! »

وانضمت قضية زوجين جديدين إلى ملفات القضايا الكبرى فى محكمة الحياة .

ـ ٨ ـ

كانت لمسات الخريف ظاهرة على أوراق الشجر حين كنت ألقى نظرة من نافذتى على الأضواء البعيدة . ثم أقفلت الشباك بيدين فيهما ارتجاف طفيف وأرخيت عليه ستارا من (الدنتلا) . المسكن لم يتغير ولكن الظروف تغيرت ، فهناك على بعد مترين من الشباك يقوم سرير العروس وعطيات جالسة على حافته فى ملابس النوم ، عارية القدمين تنظر إلى رجليها على السجادة ورأسها منكس إلى أسفل فيكاد ذقنها يلمس صدرها العارى .

وقلت فى نفسى وأنا أقطع المسافة بين النافذة والسرير : أما كان يستحسن أن نغير هذا المسكن ؟! ثم اعترضت على نفسى قائلا :

ولماذا ؟!. وكنت قد استقررت إلى جوارها على الفراش فى هذه اللحظة ، ولما تلامس جسمانا ندت منها شهقة صغيرة معها دمعة كبيرة ونحن فى النور فقلت وأنا أقبلها : لماذا تبكين .. لقد مضى وقت البكاء .

ثم تذكرت قصة حمودة وتذكرت قصتنا مرة أخرى .

وكانت عطيات مائلة إلى الصمت فى غير طبعها المألوف . كأنها تلبس غير أثوابها . فذكرت ساعة بدت كالعصفور المذعور الذى وقع فجأة فى الفخ ليلة حدث بيننا ما حدث . منذ شهر واحد !!

ومسحت دمعها بشفتى فسرت عنها هذه الحركة . وضحكت كما يضحك الطفل حين تدغدغه من تحت إبطه أو فى أسفل قدميه وكان رائعا أن تبدو هكذا وبقية الدمع عالقة بهدب عينيها . ولم يكن صوتى جميلا لكننى حاولت أن أغنى لها . ولم أكن أغنى مقطوعة لرجل وإنما غنيت مقطوعة لامرأة ، نفس الأغنية التى أعجبتها فدستها لى فى طيات كراسة الإنشاء قديما !! غنيتها بصوت رجالى وغنيتها بصوت حريمى فضحكنا واختلطت ضحكاتنا .

ثم تلاقت أفواهنا فى قبلة مطمئنة فتذكرنا ليلة تلاقت فى الظلام ورنة إناء النحاس الذى وقع على البلاط حين كانت الخادمة تبحث عن الكبريت . أما الليلة فقد كان شعاع أحمر يلون أثاث الحجرة ويلقى على بياض جسمها الناصع لونا من الإغراء . وحاولت التلميذة المجتهدة أن تكون امرأة مجتهدة فى ليلتها الأولى التى تقدم النساء فيها شيئا يحاولن وهن عذارى أن يدخرنه لهذه الليلة !! كنا فى الحقيقة مسئولين معا عن

تبديده وضياعه ولكنني حزنت عليه . ونحن أحيانا ننقم على أشياء جنيناها بأيدينا حتى لكأنما جناها علينا غيرنا .

وكانت هي تحس بذلك بلا ريب وتحسه أكثر مني فعملت جاهدة على أن تدفعني نحو نفسها وأن تغريني بسرعة حتى بدا التصنع في أعمالها وكأنها امرأة جازت تجارب كثيرة .

ولم يطل بنا السمر ... فاندمجنا في التجربة ...

ثم أشعلت النور من جديد وشيء من الاشمئزاز يلون حركاتي . لكن الماضي كان قد اتصل بالحاضر في هذه الآونة كما يلتقي نهر بنهر وجريا معا إلى المستقبل الغامض . وذهبت نحو الشباك المغلق ووقفت أحملق في الستار المسدل وأتأمل العاريات اللاتي رسمن على (الدنتلا)... « عري في عري » ... همست أقول هذا وأنا قلق النفس . ثم همست ثانيا : « ما أجمل المستور !! » كنت كالطفل الذي لبس كسوة العيد قبل حلوله . فلما أعاد لبسها يوم العيد لم يجد لها رونقا .

أما عطيات فكانت لا تزال راقدة على ظهرها في إزار هادئ في لون أوراق الورد . كالأسيرة . تبدو ساقاها المكشوفتان وإحداهما فوق الأخرى وشعرها البني راسب على الوسادة وإحدى ذراعيها على عينيها وليس على أكتافها إلا شريط الصداري وحمالة القميص .

وكان سكوتنا قريبا إلى الوحشة وجلبة الحي على بعد مائتي متر تدخل إلينا كأنها الصدى . وتحركت راجعا إلى الفراش فأحسست أنها تبكي فأطفأت النور ورقدت إلى جنبها . أردت أن أتيح لها فرصة تعبر فيها عن مخاوفها بصراحة وإن كنت في الحقيقة قد استحلت منذ دقائق

إلى رجل قليل العطف نوعا على الخطأ المشترك فقلت لها ونحن في الظلام بلهجة غير عامرة بالحماسة :

ـ ألم نتفق من قبل على أن زمن البكاء وقد ولى ؟! فلم ترد على .
فسكت لحظة ووضعت فيها كفى على شعرها وهى صامتة ثم قلت من جديد وأنا أتكلف حرارة يحتاج إليها الموقف :

ـ كنا نحلم بهذه الليلة ، فهل يحزننا أن يتحقق الحلم ؟!

فقالت بصوت بدا فى نبراته جفاف حلقها :

ـ عبده ... أنا خائفة .

ـ من ماذا ؟

فلم يجئنى ردها فوضعت يدى على شفتيها المضمومتين ثم أعدت عليها سؤالى :

ـ من ماذا يا عطيات ؟!

فقالت وهى تتنهد :

ـ من أفكارك . أنا خائفة أن تتغير !!

فأجبت وأنا أتكلف الحماسة :

ـ لا تخافى شيئا .

ـ صحيح ؟! هل تقسم ؟!

ـ صحيح . وأقسم .

ووضعت فمى على فمها بعد أن قلت هذا وأنا واثق أن فيما قلت شيئا من الزيف لأننى لم أكن مطمئنا إلى المستقبل . وبدأت أنفاسها تنتظم وهى على عتبات النوم وكانت تقع على خدى كأنها تأتى من منفاخ صغير ناعم . على حين كنت أنا لا أزال أفكر فى طلبها أن

أقسم . كانت فيه أشبه بالطفلة تستحلف أباها على كل طلب ، وبدت في طلبها هذا أكثر حداثة وأدنى إلى الطفولة . فتنهدت ومصمصت بشفتي . أما هي فكانت قد استغرقت في النوم .

* * *

ولما دخلت مدارس النصر للمرة الأولى بعد زواجي ، استقبلتني وجوه عابسة ، وأعين قلقة ، كأنها تحمل سرا . حتى الذين هنأوني خلت عباراتهم من الحماس ، ولم يسخر حمودة . ولم يرسل نكتة ، فلم أر بدا من أن أسأل : ماذا هناك ؟ فعلمت أن الناظر مات اليوم فجأة ، وأن الذين قابلوني من إخواني عز عليهم أن يفجأوني بالنبأ ، وعطر العروس يفوح من أرداني . لكن تحرجهم زال بعد الكلمة الأولى ، وجعل حمودة يقص النبأ بالتفصيل بوجه يتعاقب عليه العبوس والابتسام ، كأنه سحابة تبرق :

كان بيننا أمس في غاية من الصحة والمرح ، وقد تجرأت فأخذت سيجارتين معا من علبته حين قدمها إلي ، وكان يتحدث عن رغبته في بناء مقبرة جديدة ، لأن منازل الآخرة يجب أن تكون أغلى من منازل الدنيا . ثم طلب فنجالا من القهوة ، ثم أبدى رغبته في تأخير البناء حتى يتم تجهيز بنته . وأصلح بين اثنين من المدرسين كانا متخاصمين منذ شهر تماما ، ودعاهما للغداء على مائدته آخر هذا الأسبوع ، ثم انصرف آخر النهار .

وجاءنا خبره منذ نصف ساعة يا أستاذ عبده . مات وهو جالس على مكتبه في البيت ، دخلت عليه بنته العروس ، فلم تجد منه إلا شبحا ...

فقال واحد منا :

- اه ... دنيا !!

وقال ثان :

- استراح . وقال حمودة :

- من رذالة المفتشين على الأقل !!

وقال رابع :

- دعوا العريس فى أحلامه . لا تزعجوه بأخبار الموتى .

فتذكرت أشياء كانت تربطنى بهذا الرجل أهمها الحب والاحترام .

وتذكرت رأسه المحلوق (بنمرة واحد) ووجهه الشديد الحمرة يوم استبقانى وحدى فى حجرة المكتب ، ليقص على نبأ الخطابات المجهولة ..

تلك التى كتبتها يد حريمى لتنبه أذهان أولى الأمر فى مدارس النصر ، إلى وجود علاقة غير عادية بين جمال وعطيات !!

فشعرت أن حملا جديدا من الحزن يهبط على قلبى ... يهبط رويدا رويدا ، كأنه سحابة مشحونة . وانبعث الماضى بغتة فى ثياب غير نظيفة . وأنا لا أزال حديث عهد بالزواج . وفرت من عينى دمعة أكبروا فيها وفائى ، وإن كنت لا أعرف ــ وأنا صاحبها ــ سبب مولدها ، وروحت آخر اليوم كئيب النفس ، وعلى ملامحى الهادئة سكون زائد . وألقيت نظرة على الثغرة المفتوحة فى سور المدفن قبل أن أدخل من باب البيت ، وتذكرت ليالى الخيالات وأنا ألقى فى الظلام نظرات على العشاق المتعثرين بين جذوع الشجر . ثم صعدت السلم وحملقت فى الدرجة المكسورة التى كبت عليها عطيات ، فانكبت على الأرض .

ووجدت في البيت عشاء جاء من عند أمها ، وكان طازجا يغرى بالأكل . وكانت عطيات تأكل وتثرثر ، وتشكو من كثرة الخبط على باب الشقة بأيدى أهل المرضى الذين يخطئون حين يطلبون الممرض الساكن فوقنا ، ثم انتقلت إلى تفوق أخيها فى المدرسة . ووثبت إلى ذكر الشاب الذى تقدم لبنت عمها ، وإلى امتيازه فى مركزه وأخلاقه ، فنظرت إليها من بين أهدابى نظرة لم تكن مريحة ، لكنها فيما أظن لم تفطن لها . ثم انتقلت إلى انحراف صحة أبيها من كثرة التدخين ، وأن طبيب الوزارة نبهه إلى وجوب الاقلاع عن هذه العادة . ثم قدمت إلى ورك دجاجة ، وأقسمت على أن آكله فأخذته فى صمت ، على حين قامت هى تبحث عن بقايا فاكهة فلم تجد . فاكتفينا بما أكلنا . ولما انتهينا شرحت لها سبب وجومى ، فأخبرتها أنه انتقل إلى رحمة الله !! فهمست وفى صوتها بحة :

ـ الناظر ؟!

ـ نعم ، هو !!

ـ لا حولا ولا قوة إلا بالله . كان رجلا طيبا .

فرددت بشىء من المغالطة :

ـ وهل الطيبون لا يموتون ؟!

فقالت فى ابتسام وفى عينيها بوادر دمع :

ـ ليس هذا قصدى . بل إننا نحزن عليهم . كنت أحب هذا الرجل !!

فذكرتنى هذه الكلمة شخصا آخر لعلها كانت تحبه !!

وحين أوينا إلى فراشنا لم أستجب لبوادر الرغبة التى لمعت فى عينيها قبل أن تطفئ النور ، ولا لمقدمات الحب التى بدت فى حركاتها ونحن فى الظلمة ، فلم تلبث أن سألتنى :

ـ هل يؤلمك شيء ؟ أنت غير طبيعى يا عبده !!

فقلت بفتور :

ـ نعم .

ـ مم ؟!

ـ لم أسترد حالتى العادية منذ سماعى خبر وفاة الناظر . لقد كنت أحبه !!

وانفتح باب الحديث على مصراعيه . وحين جمع الله بينى وبين عطيات جمع بين النقيضين . المتكلمة التى تدنو إلى الثرثرة ، وقليل الكلام الذى يدنو إلى الصمت . وانفتحت وهى تطوقنى بذراعها تذكر ماضيها القريب الذى سمته وهى تضحك « أيام زمان » ، وتذكر الناظر الفقيد ووفاءه وذكاءه . نعم وذكاءه !! فسألتها وأنا لا أزال فاترا :

ـ وهل تعرفين آية من آيات ذكائه ؟

ـ نعم ، اكتشف شيئا أيام كنت فى المدرسة ونبه إليه المدير . كان هناك كثير من الشكاوى المجهولة والمقالب غدت مدارس النصر مسرحا لها دون أن يعرفوا اليد التى تدبرها حتى اكتشف المرحوم هذه اليد .

فسألت متجاهلا :

ـ يد من ؟ فاندفعت مجيبة :

ـ يد الآنسة فاطمة . واستغرقت فى الضحك .

وفى الوقت الذى كنت أستعيد فيه تفاصيل الخطاب الذى سطرته فاطمة حسبته لوجه الله فى شأن جمال وعطيات ، كانت هى تعيد على ما سبق أن علمنا به من أنها لقيت ما لقيه القرد من النجار من إحدى الأمهات ، حين تدخلت تدخلا غير مشروع بين فتاة وحبيبها فغضبت الأم من الآنسة واشتبكت معها فى عراك ...

وانتهت من قصتها وانتهيت من أفكارى وتوقفنا فى وقت واحد وختمت حديثها بقبلة ثم سألتنى بنعومة :

ـ عبده ... أما تزال غير مرتاح ؟!

ـ نوعا .

ـ دع الأفكار السود . لا تجعلها تسيطر عليك !!

ـ ليتنا نستطيع !!

ـ نحاول إذن !!.. وإلى أين ذهبت ؟!

ـ إلى الماضى !!

فضحكت وهى تقبلنى ، ثم عادت تستفسر :

ـ أى ماض . البعيد أم القريب ؟!

ـ القريب !!

ـ ومالك تقولها هكذا بحسرة كأن فيه ما كان يؤسف عليه ؟!

فناديتها :

ـ عطيات !! فأجابت مذعورة :

ـ نعم !!

ـ عندى سؤال . سؤال واحد أرجو أن تجيبى عنه بصراحة . وأنا أعرف أن الصراحة من مزاياك .

فعرفت اضطرابها من حرارة نفسها وقلقها من صوت ريقها ، وتراخت ذراعها الملقاة على كتفى ، ثم قالت :

ـ تفضل . فسكت برهة لأستجمع قواى .

ـ ليس من الضرورى أن يكون مستقبلنا امتدادا لماضينا ..

ـ نعم .

ـ و ...

ـ نعم !!

ـ أقصد أن أقول : إنك فتاة طيبة . و...

ـ نعم !!

ـ إن لكل واحد من الناس هفوة ، وأنا شخصيا (فسمعت وجيب قلبها فى صدرها اللاصق بى) أنا شخصيا نادم ..... (فقالت بلهجة الظافر) :

ـ على هفواتك ؟!

ـ يا ليت !! نادم على أنه لم تكن لى هفوات كبيرة ، لأحس نظافة التوبة ، ولذة النظافة ، حين أقصها عليك معترفا . لم يكن لى هفوات تذكر !!

ـ آ ... هيه ...

ـ وأنا أظن أن الاعتراف بالتفاهات على أنها جرائم ، يترك فى نفس السامع شكا وقلقا . كالذى لقى مليما فى الطريق فنادى : يا من ضاع منه مليم .

فسمعتها تضحك ضحكة مشوبة . لم تكن من القلب ، ولا فيها مرح . فاستطردت :

- بس ، هذا هو كل ما عندى !!

وخيم على جونا سكون قصير كنت أسمع فيه وجيب قلبها مختلطا بشيء من الندم . ندمي أنا على تورطى فى هذا الكلام . فهناك أشياء يحسن بنا السكوت عنها ، حتى ولو كنا نعرف أمرها . ثم إن جوابها لن يخلو من أن يكون اعترافا أو إنكارا ، فحدثني أنت ... أى الاثنين أكثر راحة لقلب المتجسس ؟!

ومسحت على شعرها كأنى أعيد إلى نفسها الطمأنينة ، أو كأنى أوحى إليها بتفاهة ما قلت ، على أن نفسى كانت متعطشة إلى أن تسمع ، وخائفة في وقت واحد .

كانت عطيات تتنفس بسرعة ، وظلت كذلك لمدة دقيقة ، أدنت بعدها فمها من فمى ، حتى لم يبق بين شفاهنا ما يسع الدبوس ، ثم همست تقول :

- عبده !!

- نعم !!

- أنا لم أزل إلا معك . وأنت ... واثق من ذلك .

وسكتت متعبة كأنها جرت شوطا على طريق غير ممهد . وظللت لائذا بصمتى ، ثم همست فى شبه مزاح :

- أنا أعرف هذا جيدا يا حبيبتى ، وأنا لا أتحدث عن الزلات .

- إذن عم تتحدث ؟!

- عن الحب !!

- الحب ؟!

- الحب !!

ـ آه ....

وخيم الصمت مرة أخرى . ومرت بأناملها على شعرى ، وتشبثت بخصلة منه ، وجذبتها كأنها تنقذ غريقا . فعرفت أن تيارا سريعا يتدفق فى داخلها .

كنت فى هذه الليلة أنانيا أحمق ألقى شعاعا وراء شعاع على ركن يجب أن يظل فى الظلام . وعيوننا تتطلب الظلام بدافع من المصلحة يتساوى فى بعض الأحيان مع تطلبها النور ، كنفوسنا حين تتطلب الدموع بدافع من المصلحة ، يتساوى فى بعض الأحيان مع تطلبها الضحك .

غير أنى كنت مدفوعا بلا وعى ، لأنى عشت معها فترة من الماضى كنت فيها غير مستريح . كنت محبا غير واثق ، والحب بلا ثقة نار ودخان !!

وعادت عطيات تهمس من جديد :

ـ آه ... أخيرا أدركت قصدك . إنك تقصد ... جمال أفندى ، أليس كذلك ؟!

فأجبت متخابثا :

ـ ربما ... على أننى لا أقصده هو بالذات ، بل أردت أن أعرف هل كان فى حياتك حب فعال ، قبل أن تتحاب يا عطيات ؟!

ـ كان جمال أفندى يحبنى كتلميذة .

ـ كما كنت أنا أحبك ؟

وتحدد الجواب فارتبكت المسكينة وتقلقلت في الفراش وقامت جالسة ، وظللت أنا كما كنت ممدودا ، ولما لم ترد ، أعدت عليها سؤالي :

ـ هل كان يحبك وأنت تلميذة مثل حبي لك أو أقل أو أكثر ؟

ـ لا أعرف بالضبط . لكن ... على كل حال ... آ ... وهذه الأسئلة ... لن تورثنا إلا المتاعب !!

وقامت إلى دورة المياه ثم عادت تشكو مغصا وتمسك بطنها من جنبه . وخيل إلي حين رأيتها في النور أنها جد شاحبة ، وأن شفتها السفلى عليها علامات الهزيمة ، وأن لونا بنفسجيا فاتحا يصبغ ما تحت عينيها .

ولم يستأنف بيننا الحديث . نزعنا منه صوت عراك وضرب وشتائم متصاعد من الحارة ، وبين كل أولئك عدة صرخات من امرأة . وجرينا إلى الشباك وانحشر جسمانا في فضائه ونحن بملابس النوم ، فرأينا عند الثغرة المفتوحة في سور المدفن كمينا من أشخاص تربصوا لعشيقين نفذا إلى الداخل واشتبكا معهما في عراك ، ولم يكن هناك مخرج للعشيقين إلا من حيث دخلا . وتجمع الخلق وتشعبت آراؤهم في الموقف ، أما الفتاة فكان حالها يدعو إلى الرثاء وإن استبسل الشاب في الدفاع عنها وعنه .

ودخلت عطيات توحوح بعد لحظة ، لأن الجو كان مضببا مائلا إلى البرودة وتركتني في موقفي . حتى إذا ما انتهت المعركة وتفرق الجمع ، وقال أحد الكهول « إن الله حليم ستار » وأخذت الأصوات

تتباعد _ أقفلت النافذة وأسدلت ستار الدنتلا ومشيت إلى الفراش فخيل إلى أن عطيات قد استغرقت فى النوم .

_ ٩ _

لا أستطيع أن أزعم أن الماضى قد انتصر عليها ...

لم ينتصر عليها بعد ، لأن نزعات الحب فى قلبى كانت أقوى من أى عامل !!

أما اللحظات التى أكون فيها طليقا من تأثيرها بعيدا عن كهربتها ، فإنى ربما نقمت عليها . لكن .. فى الليل تتلاشى هذه النقمة ، لأنه من النادر أن تتطابق أعمالنا مع أفكارنا ، حتى فى خطوط حياتنا الرئيسية !!

وكانت تحب الحياة ...

ثيابها زاهية . وصوتها مرتفع . وضحكتها رنانة .

خرجت من نطاق العذارى ، واختفى استحياؤهن فيها مع الزغب الذى كان منتشرا عند منابت الشعر ، فظهرت فيها حرارة حريفة ، يعرفها الرجال .

إنها تحب الحياة . والحياة عندها حركة وضجيج .

ولما كانت وهى عذراء تسير بين البنات كما يسير ذكر الوز بين القطيع العائد من البركة _ فإنها صارت فيما بعد أكثر حركة ، وأشد ضجيجا !!

قطعة فسفور . حية إنسية لينـة تطـوق بكـل مـا فيهـا . تـأكل وتتكلـم وتضحـك ، وفـى العينيـن الصـافيتين دمـع ، وعلـى الشفتين السـمينتين ابتسام ، والملعقة تخبط فى جدار الصحن ، وقدمها تعبث برجلـى تحـت المائدة ، وأردافها قلقـة علـى الكرسـى ... هذا كلـه فـى نفس واحـد !! وأصغى وأنا صامت ، وأتملى وأتأمل وأتعجب من المقادير !!

ولم تكن حياتنا تخرج عن نمط واحـد إلا مـا لا يدخـل فـى حسـابنا . أودعها فى الصباح ، خارجا إلى المدرسة ، وألقى إليها نظرة عند ملف السلم قبل أن أغيب فى عمقه ، وتكون واقفة تبتسم داخـل البـاب نـاظرة من الفتحة ، ثم أرفع رأسى إلى الشباك فى الحارة ، فأراها قد وصلـت إليه وأطلت على . ثم أنشغل فى مدرستى وتنشـغل فـى البيـت . أمـا إذا كان هناك فراغ ما وقت النهار ، فإنها كانت تقضيه عند أهلها ، وتعـود قبل رجوعى ، وقد نلتقى فى الطريق .

وكنت أقطع وقت العصر نائما دائمـا . أمـا هـى فكـانت تمضيـه فـى القراءة . ولا أستحى أن أقول إنها كانت تقرأ أكـثر منـى ، فـاضطرتنى أن أتردد على دار الكتـب لأنتقـى لهـا مـا تقـرأ . فـإذا مـا دخـل الليـل ، ذهبت إلـى قهوة الكوكـب ، ولكـن فـى أحيـان قليلـة ، لأن الميزانيـة المحدودة لم تكن تسمح بالإسراف . ثم نتنـاول عشـاء نجلس بعده إلـى مكتـب فـى حجـرة النـوم نفسـها ، فتقـرأ لـى كراسـات الإنشـاء كراسـة كراسة ، ثم تدعنى أضع الدرجة . وكثـيرا مـا تقترحهـا علـى ، فـإذا مـا بـدأت عملـى فـى التطبيـق ، لمت نفسـها وخرجـت مـن الميدان وهـى تضحك ، وبحثت عما تقرؤه .

ويسكت الليل ويهدأ الحى فلا يبقى إلا الصدى الآتى من بعيد ووقع أقدام تأخرت فى العودة ، على الرصيف المبلط فى صف البيوت ، كل هذا ونحن مستغرقان كل فى عمل . وبعد وقت لا يكون فى الغالب قصيرا ، ألقى القلم الأحمر من بين أصابعى ، تلك الأداة التى تستل نور عين المدرسين برفق ، وأتمطى وأمد ساقى اللتين يخيل إلى أن التجمد سيلحقهما فتقفل عطيات كتابها وهى تبتسم وتلمع عيناها بالرغبة مخلوطة بالنوم ثم تقوم فتغير ملابسها وترتدى غيرها أكثر شفافية وأقل سترا . ونستلقى على الفراش فتبدأ فى الكلام . فتقص على طرفا من الحوادث التى قرأتها أو الشخصيات التى مرت بها . ويتوهج الفسفور فى ظلمة المخدع وتسرى الحرارة الحريفة فتدفئ الفراش فنكف عن الكلام وقتا ما . ثم نستغرق بعد ذلك فى النوم !!

وهكذا هكذا ... كأنه جدول حصص . مشت حياتنا فى الليل والنهار لمدى شهور عدة . حتى جاء فصل الصيف .

وكنت أتلقى الرسائل من أمى من حين إلى حين وأعلم أحوالهم باختصار . لكننى كففت عنها كفى بعد أن صرت زوجا فلم أقدم إليها معونة ولم أبعث لأختى بمنديل ولا جلباب . حتى إذا ما انفضت جموع التلاميذ وأعلنت النتائج وأقفلت المدارس وبدأ التراب يخيم على الأدراج الخالية فى حجرات الدراسة ، فكرت جديا فى أن أسافر إلى القرية .

قلت لعطيات : هل تجيئين معى ؟ فقالت بحرص على المصلحة : أنت تعرف دخلنا يا عبده فلا داعى للمصاريف . سافر وحدك !!

ـ وأنت ؟

ـ سأقيم فى منزل أبى حتى تعود بالسلامة !

- أخشى أن تضجرك الوحدة .

- سأحس قطعا بثقلها على ... لكن ... سافر !!

وكان فى عينيها النديتين وداع بديع تجسم فى نظرة طويلة تنبأت بالشوق . وكانت فى هذه الليلة ترتدى ثوبا بلا كمين أحمر جدا ، يعض بجوع فى إهابها الأبيض ، وكانت قد نسيت فى شعرها منذ الصباح شريطا من لون الثوب ، فأحسست حرارة الماضى فى باطنى أيام كنت أراقبها وأنا فى الفصل أو فى الحديقة ، وظاهرى ثلج وباطنى شعلة ، وأصحح كراستها وأقيس كلماتها ، وأمر على بيتها فأرفع رأسى إلى شقتهم ، حتى أصطدم بأحد الناس .

وانبثقت عطيات تثرثر ، بنفس الطريقة التى حدثتك عنها منذ قليل ، وكل شىء فيها يتوهج ويترقص من الحياة الزائدة الكامنة فيه :

(سافر . سافر لتحس نحوى بشىء من الشوق . جرب . جرب البعد ، نم ليلة أو ليلتين وبجانبك فضاء . ثم لاحظ ماذا سيدخل إلى نفسك من الفضاء المجاور ...) وضحكت .

(ربما كان راحة ، وربما كان تعبا ... هئ . هئ . هئ) .

وأخذت تحل الشريط الأحمر المعقود على شعرها ورأسها متطامن بين ذراعيها العاريتين فى فتنة جديدة ... كأنى لم أرها فى الشهور السالفة . فتيقنت أن الحوادث تجدد قديمنا ، وأن البعد يحرك سكوننا فيقتل السأم بهذه الحركة .

ولما استلقينا على الفراش توهج الفسفور ، فكففنا عن الكلام وقتا ما. ثم استغرقنا بعده فى النوم !!

وبعد الشروق بقليل كنت متأهبا للسفر .

وقبلتها خلف باب الشقة قبلة طويلة بعد أن أقفلنا النوافذ وقبل أن نفتح الباب وأوصيتها بنفسها وأوصتنى بنفسى وأكد كل منا لصاحبه أنه هو الأهم وأنه لا يجب عليه أن يفكر فى الطرف الثانى أكثر من اللزوم . ثم هبطنا السلم معا وافترقنا عند الباب الخارجى وتلفتنا عقب كل خطوة .

ولما وقفت سيارة الركاب العامة المزحومة بالفلاحين على الطريق الزراعى القريب من بيتنا فى القرية ـ نزلت منها بعسر وأنا أحمل لفة وكيسا . كان فى اللفة ملابس نومى وفى الكيس عنب وتين . وبعد أن لمست قدماى أرض الطريق الصغير المؤدى إلى الدار تبينت أن الفاكهة قد استحالت إلى (شربات) من حرارة الجو وكبسة الركاب . وكان ذلك مثارا لضحك أختى ورثاء أمى حين وصلت إلى البيت . وقبلتنى الأم وكانت مريضة كما هى دائما ، وحملقت فى وجهى وقالت عيناها السليمتان : ماذا فعل الزواج بك ؟! ثم سألتنى زينب بحسن قصد : هل كنت مريضا ؟! فأكدت لهما أن مخبرى خير من مظهرى وأننى أحس تماسك الصحة . لكن نفسى انقبضت لهذا وتذكرت مسلكى فى القاهرة منذ زواجى وأننى مرهق وأن امرأة حادة العاطفة ذات حرارة حريفة تقاسمنى فراشى وأننى فى سن واسعة الطاقة قابلة بطبيعتها للمط كأنها كاوتش جيد !! لكننى تنهدت . وسمعت إلى أمى وهى تقص على ملخص أحوالها ثم اندمجنا فى الحاضر .

وكانت تذبح لى دجاجة كل يوم ، ولم تعف من أجل حبها بعض دجاجات تمدها بالبيض . وسمعت خبرا وليدا من فمها هو أن خطيبا لزينب قد يدق علينا بابنا فشكرت الله . وأمضيت الأيام الجديدة بنفس

الطريقة القديمة التى كنت أمضيها بها فى الماضى : ضحوة النهار فى قراءة الصحف والتحدث إلى الفلاحين فى السياسة والتعليق على الجرائم في القرية أو حولها أو التى نسمع خبرها فى الصحف . أما وقت العصر فكنت أقضيه في الحقول .

ولم أرجع إلى القاهرة بالسرعة التى كنت أتوقعها ، فكتبت إلى عطيات أخبرها بأنه من المحتمل أن أغيب فترة أخرى . وكان ذلك بسبب انتظارنا لحادث الخطبة وبسبب التقدم الصحى الذى لحظته فى نفسى .

ولم يتقدم الخطيب لسبب مؤقت . ولم أحس فراغا إلى جوارى وأنا راقد فى الليل وبدأت أسمع نصائح أمى فيما يتعلق بمعاملة الزوجات وألمح فى عينيها الصدق إذا تجلت بصفة الأم ، والخداع إذا تجلت بصفة الحماة . سنة الطبيعة التى لا تتغير !!

وكان وداعى لأمى حارا أكثر من المألوف . غير أنى أحسست وأنا فى القطار بانفصال مفاجئ عما كنت فيه وكثير من الشوق إلى عطيات . وأمضيت الوقت فى قراءة قصة بوليسية من تلك التى تجعل الأعصاب وكأنها تحت سيطرة الكحول . حتى فطنت إلى زفير القطار فى محطة العاصمة .

وكان الليل قد هبط تماما وقت وصولى إلى الحارة وطقس اليوم مائلا نحو اللطافة حتى رأيت ذوائب الأشجار فى الفضاء المقابل تهتز كالمروحة فى يد السكرى . ولم أر نورا يلمع من نوافذنا فرجحت أن تكون عطيات فى بيت أبويها حتى الآن . ثم رأيتنى أصعد السلم معللا نفسى بأنها ربما كانت فى المطبخ وأهملت فتح النوافذ ، غير أنى رأيت

قفلا ضخما يتدلى من الباب ، والشراعة الزجاجية العلوية مظلمة تماما فوقفت جنب الدرابزين على البسطة ونظرت فى عمق السلم ، كما أنظر فى البئر ، ثم استأنفت نزولى .

وقبل أن أصل إلى الدرجة المكسورة قرب الأرض سمعت وقع حذاء عرفت فيه مشيتها فسكنت فى مكانى كأننى متربص حتى رأيت بياض وجهها متميزا فى الظلمة ، ورأت شبحى فهتفت بشىء من الخوف :

- من ؟! فأجبت وأنا أغالب ضحكة :

- عبده !!

- عبده ؟!.. وهكذا صدق قلبى !!

وكنت أقبلها قبلة كلما صعدنا درجة وترد إلى مثلها . حتى إذا ما استقر بنا الجلوس بدأ كل منا يسرد موجز ما لقيه فى الأيام التى قضاها بعيدا ... فى إطار من الشوق والحب واللهفة .

وكان معى لحم ودجاج فقامت وأنضجت عشاء ووقفت جنبها فى المطبخ نحكى ونثرثر . وتعشينا فبدأت السهرة ... وانتهت ككل مرة ... ثم استغرقنا فى نوم عميق !!

وبعد يومين اثنين تماما جاء أول شهر جديد فعاد كثير من الزملاء الغائبين إلى القاهرة ليقبضوا مرتباتهم . وكان حمودة غائبا ، فخمنت أنه راجع وتمنيت أن أراه ، فقد أحسست بشوق إليه .

وهذه هى الدوافع التى ساقتنى إلى قهوة الكوكب فى هذا المساء . كنت أنقل قدمى بحذر على الأرض المرشوشة وأنا على بعد أمتار من القهوة أستمع باسما إلى ضحك الزملاء الذين جمعهم أول الشهر فى

الهواء الطلق أمام المقهى ، أستمع إليهم وأنا سائر ويداى فى جيبى بنطلونى وأصوات طفيلية من صنجات بائع العرق سوس وصرير الترام عند المنعرج تدخل إلى سمعى .

وقلت لهم وهم ملتفون حول المنضدة :

ـ السلام عليكم . (ومططت النصف الأخير من التحية) .

فردوا السلام بضجيج وتصفيق وتهليل وفرح . وغلب على كل أولئك صوت حمودة وهو يقول :

ـ عبده ؟.. أوه ... ألا خيبة الله عليك .. مالك صرت هكذا يا ولد . النص بالنص . يخرب بيتك !؟

واحمر وجهى فلم أرد وتشاغلت بالحديث مع غيره . وبدأنا نتكلم عن شئون التعليم وعن حركة التعيينات المنتظرة فى المدارس الأميرية وعن بعض إخواننا من الحاضرين الذين قد يلحقهم الدور . ونغص عليهم أمانيهم أن التعيين سيكون فى الصعيد . وقال مدرس أنيق وهو يضغط النار على حجر الشيشة ويشير بعنقه نحو الشارع :

ـ يا سلام !!.. لقد ظهر !! ... « ظهر الفساد فى البر والبحر » !!

فنظرنا فى اتجاه نظره وهتفت أفواهنا كلها : جمال ..؟!

وارتفع ضجيج مختلط جديد ظهر فيه صوت حموده واضحا جليا وعانقوه فردا فردا وأنا واقف فى انتظار دورى وحلقى جاف ووجهى محتقن وقلبى يخفق وكفى ممدودة متحيرا كيف أسلم ؟!.. أأصافح أم أعانق ؟ لكن (جمال) عانقنى بشوق وشد على كتفى بين ساعديه الرياضيتين كأن فى داخله نارا . وعرقت فى حضنه وهممت أن أدفعه

حين خيل إلى أنى أرى فى عيون من حولى بريقا غير عادى تعرف معناه . وانقطع الضجيج والتففنا حول المنضدة .

وأشبهت طريقتنا فى الكلام فى هذه الليلة طريقة التلاميذ فى فسحة الخمس الدقائق ، حتى دعانا أحدنا إلى النظام : « هس » !!

وجاء ماسح الأحذية يخبط على الصندوق بالفرشاة فأسلمته قدمى لأنظر إلى تحت وانعزلت عنهم وجعلت أتأمل حركات الرجل وهو قابع على الأرض ، لكن (جمال) لم يدعنى فى همى بل اقترب منى بحركة مكشوفة وجرجر كرسيه حتى جاورنى وقال وهو يضع ذراعه على كتفى :

ــ ألف مبروك . فقد علمت بالخبر السعيد .

فأجبت وعينى على علبة ورنيش سوداء :

ــ العاقبة عندكم ...

فجاء صوت المدرس الأنيق الماسك بلى الشيشة يقول فى سخرية :

ــ هئ . لا . جمال رجل عاقل !!

فرد حمودة فى دعابة :

ــ لكنه ابن مجنون . فارتفع ضحك الجماعة ولم أفهم لشرودى قصد حمودة حتى رد عليه جمال قائلا :

ــ وأبوك ؟.. ألم يتزوج مثل أبى ؟ ألا خيبة الله عليك يا حمودة !!

ثم استتب النظام . وطلب بعضهم (طاولة) وصفق الأنيق ليدفع الحساب ليقوم فيلحق السينما . وفرغ ماسح الأحذية من عمله وخبط على الصندوق بالفرشاة وجعل يجمع العلب وينظمها فى الخانات .

ووضعت يدى فى أحد جيوبى أفتش عن قرش ثم أعطيته له وأنا واقف على قدمى .

قال أحد الجالسين :

ـ إلى أين يا أستاذ عبده ؟. لماذا أنت متعجل ؟!

فقال ثان :

ـ أعمال !!

وقال ثالث :

ـ بل ابق وقتا آخر ... فالليل طويل .

فتعللت بصداع طارئ وتركتهم يستنبطون ما يشتهون وألقيت عليهم السلام بقلب فاتر ونفس مكسورة ثم أوليتهم ظهرى وصوت حمودة يتابعنى كأنه يد تدفع بى فى عرض الشارع :

ـ عليكم السلام والرحمة .. ألا خيبة الله عليك يا أستاذ !!

* * *

عثرت مرتين فى الطريق : إحداهما فى حجر ، والثانية فى ذيل بنطلونى !! وعلمت أننى أترنح حين سمعت أحد طفلين يهمس لصاحبه عند باب إحدى الحارات ويقول : « أفندى سكران » وتنهدت ليخف ما بى . ودخلت حارتنا فألقيت نظرة على الثغرة المفتوحة فى سور المدفن ومططت شفتى باشمئزاز ، وعثرت فى درجة السلم المكسورة كأننى لا أعرف مكانها !! وحين طرقت باب المسكن كان انقباضى قد بلغ القمة . قالت عطيات وهى تفتح الباب :

ـ رجعت مبكرا على غير انتظار !!

ـ عندى صداع .

وكان صوتى صوتا فحسب ، خاليا من كل معنى مقفرا من كل تعبير . فقالت لى :

ـ سلامتك . وأخذت رأسى بين كفيها . ثم استطردت وهى تبتسم :

ـ لكنك نسيت شيئا .

ـ هو ؟

ـ العشاء . العشاء يا عزيزى وإن كنا فى آخر الشهر . لم تحضر معك الليلة شيئا تتعشى به ؟

فقلت كأننى مجهد وأنا أتهالك على كرسى :

ـ آه ... معذرة ... أنزل ثانية فأشترى ما تشائين .

ـ وأنت ؟

ـ لست جائعا ، ليس عندى شهية !! فردت وهى تفتح عينيها الواسعتين :

ـ إذن لا داعى لنزولك ... أى لقمة فى البيت سأجدها وآكلها ... لا تتعب نفسك .

وبدأت أخلع ثيابى وأنا ساكت ، وسمعتها تضحك ببال خال بعد أن لبست جلبابى ، فتعجبت ، لكنها فطنتنى إلى أننى لبسته مقلوبا حتى كان ظاهر الخياطة ، فقلبت المقلوب مرة أخرى ودعوت الله أن يعدل حالى . ولما طال سكوتى وانقباضى تسربت إليها العدوى ففارقها المرح وخبت حركتها كما تخبو جمرات المدفأة ، وبدا على وجهها قلق . أو هكذا تخيلت .

وتثاءبت ، فتثاءبت . فقلت بصوت كان صوتا فحسب :

ـ ننام ؟ فأومأت بأجفانها :

ـ ننام !!

وتمططت فى الفراش راقدا على ظهرى وتركتها تطفئ النور قبل أن ترقد . ومضت لحظة صمت . كان صوت الحى يأتى إلينا فيها متوسط الحركة ووقع أقدام راجعة تطقطق على الرصيف . خمس دقائق أو تزيد قليلا . ثم أحسست أن كفها فى طريقها إلى شعرى ، ثم شعرت بأناملها تعبث به وبجسمها يدنو من جسمى فلم أتحرك . قالت بهمس :

ـ عبده !!

ـ نعم .

ـ نمت ؟

ـ لا .. حتى الآن .

ـ تعبان ؟

ـ قلت ذلك قبل ذلك . وكان ردى لا يخلو من الرداءة . فقالت :

ـ طيب ... ولماذا أنت غاضب ؟!

ـ أنا ؟!

ـ لا ... أنا !! وضحكت فى شبه مرح . وألقت الظلمة على ضحكتها تأثيرا زائدا . لكن فعلها كان عكسيا صرفا فقلت :

ـ إن كنت حريصة على إغضابى فأنا فى خدمتك .

ولم أكن أرى تعبير وجهها ، ولكننى أحسست حرارة أنفاسها قالت :

ـ أوه ... لنسكت إذن حتى لا يتطور الموقف بلا داع .

ـ أحسن !!

ـ وهذا هو نفس سلوك أمي ... مع أبي ... حين كان ينجم ... بينهم خلاف .

ـ أحسن !! فقالت بلهجة مسترضية :

ـ صحيح أحسن ... لكن ... هل أغضبك أحد في الخارج ؟

ـ لا ...

ـ إذن ...

وسكتت وسحبت كفها من على رأسي ورقدت على ظهرها وكتفها ملاصق لكتفي وأحسست كأنها تناقش فكرة ، ثم قامت إلى دورة المياه وأشعلت النور فوضعت ذراعي على عيني أحول بينهما وبين الضوء .

قالت عطيات بعد أن عادت وقد جلست على طرف الفراش وتركت النور مضاء .

ـ عبده ... نسيت أن آكل . هل في الدنيا ناس ينسون أن يأكلوا ؟

ـ أريد أن أنام .

فقامت وأحضرت لقمة خبز غير طازج كنت أسمع قطمها فيها ونظري في غير اتجاهها . وكانت تأكل وهي جالسة على الحافة وثوبها الأحمر جدا يكشف عن صدرها وظهرها ويعض في بياض إهابها بجوع . وتوقفت عن الأكل مدة غير عادية فنظرت بطرف عيني فرأيت اللقمة في يدها وهي كأنها شاردة . ثم سمعت صوت قطمها ... قطمة واحدة لا غير ، وتوقفت من جديد ، حتى سمعتها تناديني بجد :

ـ عبده .

ـ نعم .

ـ لا بد أن تقول لي ماذا حدث لك في الخارج ؟

- لا شيء .

- من كان معك على القهوة في هذا المساء ؟

فظللت مستلقيا على ظهري وشرعت أعد على أصابعي وكأنني أتشفى :

- حمودة ... محسن ... الدكروري ... عبد الله ... خلاف ... بدر الدين . وأيضا يا سيدتي ... جمال افندى !!

فردت كأن حجرا أصاب نحرها :

- جمال أفندى ؟!

- ....

وظللت ناظرا إليها .

- على القهوة ؟ فقلت بلؤم :

- نعم على القهوة !! وهل هذه حادثة ؟! فأجابت بارتباك :

- أبدا ... لكن هناك شيئا نسيت أن أقوله لك . كان ينبغي أن يجيء في أوانه . غير أني نسيت . (وأطرقت) فقلت :

- لأنه غير مهم . فأجابت وهي تطفئ النور بعد أن وضعت بقية اللقمة على حرف المكتب وتحسست طريقها إلى مضجعها .

- بالضبط !!

- قولي . فاستأنفت ونحن في الظلام :

- حين كنت غائبا ... وأنا في بيت أبي ...

- هيه .

- لم يكن يخطر على بالنا أن جمال أفندى لا يزال يذكرنا . لكن سمعت ضجيج صوته وأنا في حجرة النوم مع والدتي .. وكان يتكلم مع

أبى على باب غرفة الضيوف ... وقالت أختى الصغيرة ... إنه مدرسك القديم يا عطيات ...

قلت فى نفسى : لا داعى لمقابلته .. لكنه كان قد علم من أختى الصغيرة ... أننى .. فى البيت ..

وانقطع صوتها فلم يجىء . ومفهوم تماما أن القصة مفهومة وأنها سلمت عليه وجلست معه . لكننى استزدتها من القول !! وفى بعض الأحيان يطيب لنا أن نطلب المزيد من الهموم !! فاستطردت بصوت أقل شجاعة :

- كنا كلنا فى حجرة الضيوف ... وتكلمنا فى الشؤون العادية التى يتكلم فيها الناس . فسألت متهكما :

- وتعشى ؟! فأجابت ببساطة :

- لا .

فهدأت قليلا . وخيم علينا صمت جديد . وأحسست كأنى موشك أن أنام لكنها قبلتنى فى شفتى الساكنتين ونادتنى :

- عبده !!

- نعم .

- هل فيما قصصته عليك شىء يغضب ؟! فأجبت بدون قصد :

- لا . لكن . كان يجب أن أعرف هذا من قبل .

فأجابت مسالمة فى وداعة وتهالك :

- صحيح ... هناك أشياء يختلف مغزاها إذا تأخرت عن مواعيدها المقررة ... فهمست :

- إذن فأنت فاهمة . فاستطردت بنفس اللهجة :

- من أجل ذلك ،.. أنا ... أحاول أن أسترضيك ... عبده !!

- نعم !! فقالت وهى تطوق عنقى :

- ألا تحاول أن تقبلنى . هل نهون بهذه السرعة ؟!... ليس هذا أملى فيك ...

ونسيت . نسيت ما كنا فيه ولو مؤقتا . واستسلمت وأنا مهموم لشيء قد يجلب المسرة ... لكننى تنهدت بعدها متعجبا مما حدث ، وسمعت تنهدى فغمغمت بضحكة . ولم أعد نشيط الفكر ولا حادا فى شىء ... كنت لا أريد إلا أن أنام ... فقط ... ونمت !!

- ١٠ -

واستردت طبعى الهادئ بعد ذلك ، فعدت وكأننى لجة من الزئبق .. ثم غابت ذكريات (جمال) بعد رحيله عن القاهرة .

وفكرت فى إحدى الأمسيات وكنا فى بيت أصهارى أن أقول لهذه الأم : إنه لا داعى لتردد هذا الشاب على بيتكم ، ولكننى خفت من الجواب أن يكون أحد ردين : فإما أن يقولوا : « هل نطرد رجلا يطرق علينا بابنا » . وإما أن يقولوا : « إنه سيخطب بنتنا الأخرى » .

والأم قاسية كأنها كرباج ، وأنا رجل غير شكس أوثر السلامة دائما . وكنت أنظر إليها وهذه الأفكار تدور فى رأسى ، فأرثى لنفسى

من المستقبل إن استحالت البنت إلى مثل أمها عند بلوغها هذه السن . فانطويت على نفسي حتى خرجت .

وفي مستهل عامنا الجديد ، دخل علينا حمودة فناء المدرسة وكنا وقتذاك قد فرغنا من تصحيح امتحان الملحق ، ووضعنا خطة صدنا بها أحد الزملاء ، فطلب لنا شايا وجلسنا نشرب . كان ذلك حين دخل حمودة وهو يهتف :

ـ أين المدعو محسن ؟ أين محسن هذا أيها الإخوان ؟

وكان في صوته فرحة ، فصرخنا نجيب :

ـ هل لحقه الدور ؟! فقال :

ـ ألا خيبة الله عليكم جميعا !! لقد أصبح في عداد مدرسي الأميري والله العظيم . ألا تصدقون ؟ قرأتها اليوم بعيني هاتين ... ديروط الابتدائية يا أستاذ . طابت الحلاوة !!

واتفقنا على الوليمة . وجعلنا بعد هذا الخبر ننظر بهدوء شامل واستقصاء عميق إلى محسن باحثين عن فضائله كما تتفرس الأتراب ملامح من خطبت منهن . أما أنا فلم يكن لي أمل في أن يلحقني الدور قبل سنين وكنت أخاف من الغربة ، وكنت أحب القاهرة ، فلم تكن غيرتي معادلة لغيرة إخواني الباقين . وأما في البيت فقد كنا كما كنا منذ عامين تقريبا .. لم يتغير شيء ولم يتبدل نظام . زوجان يعيشان في حجرتين بلا خادم ولا ولد . ليالينا متشابهة تشابه الأيام المدرسية ، خالية من الهزهزة التي تطيل اليقظة مشحونة بالرتابة التي تخلق التثاؤب .

وكان الفصل شتاء فى هذه الليلة ، ليلة كنت عائدا إلى البيت بعد أن عزيت صديقا فى فقيد . ولم يكن الجو يسمح بالخروج لولا حرصى على الواجب ، فقد كان لابسو المعاطف يحسون برد الطقس ، وكنت من غير معطف أسير بسرعة لتسرع دورة الدم فأدفأ .

كنت أجتاز آخر شارع فى طريقى إلى البيت ، وكان مقفرا . كان المجاز الرئيسى الذى يؤدى إلى مستعمرة البؤس ... أقصد عدة أكواخ بنيت من الطين والصفيح ، على أرض حكر يقيم فيها بإيجار مناسب الباعة المتجولون وأصحاب الصنايع غير الرائجة وبائعو اليانصيب وبعض الشذاذ واللصوص ومن لا أعمال لهم .

وكانت مصابيع الشارع نائمة (من بدرى) . كانت ضعيفة بطبعها والجو مرطب يندى الزجاج فظهرت أكثر ضعفا وذبولا . وكنت أعد المصابيح وأنا سائر وأسنانى تصطك من البرد وسمعت جعجعة عربة تقرقر وكان الصوت يأتى من أمامى . وانقطع فجأة فساد سكون نسبى لم يشبه إلا صوت راديو أحد المقاهى ووقع حذائى على الأسفلت . وأتاحت لى سرعتى أن أدرك العربة وهى لا تزال واقفة فرأيتها كما تصورتها ، عربة صغيرة عليها بقايا جزر لم تأكله السوق وبجانب الجزر ... ماذا ؟ كرمب ملفوف ؟!... لا ... بل طفل نائم . لم أستطع فى النور الخابى أن أتبين سنه . لكن من المؤكد أنه ضئيل وأنه سرح مع أبيه طول النهار لسبب ما ، هو قطعا متعلق بأمه . لما غلبه النوم رقد متدثرا جنب البضاعة مغطى بتلفيعة أبيه . وعند أول الشارع وقف الأب ليخلع سترته ويلقيها على ابنه فلم يبق عليه إلا الجلباب كأنه لا

يحس بالبرد . وألقيت عليهما نظرة ، ودفع العربة بشدة فزادت سرعتها حتى حاذاني فسمعته يدندن !! وسبقني !

ولما انحرفت إلى اليسار داخلا إلى الحى ، كانت جلبة عربته تبتعد وجلبة أخرى تقترب ، فحواها أننى لم أخلف حتى اليوم ، وأن زوجتى لم تزعم مرة أنها حامل .

وكنت قد وازيت سور المدفن فى هذه اللحظة وبدأت أسمع تحريك الهواء للأغصان واصطفاق الأوراق فى عنف ، وكانت نفسى جائشة جيشان القدح تصب فيه شرابا مازجته الصودا . كنت أناقش قضية الأبوة والبنوة بحمية شديدة حتى دخلت فناء البيت فتحسست السلم المكسور قبل صعودى .

ورأيت عطيات فى ثوب نوم ثقيل واسع طويل الكمين يتناسب مع برودة الليل ، أبيض فيه أزهار حمراء . وجالت به أمامى تجهز عشاء فاكتشفت ـ وكأنما كان ذلك فجأة ـ أن عامين من الحياة الزوجية قد جعلاها أكثر خصوبة . كانت كالروضة فى فصل الربيع كل شىء فيها طرى ملون . ولم ينجح اتساع ثوبها فى ستر جسمها المفصل ، بل لعل أنوثتها بدت أكثر طراوة .

ووضعت على المنضدة بيضا مقليا كثير السمن وجبنا وبقايا طبيخ ، فبدأنا نأكل وبدأت تثرثر :

ـ من الضرورى أن نملأ بطننا فالجو شديد البرودة . ما كان ينبغى أن تخرج هذا المساء ما دمت لا تملك معطفا . مش كده ؟!... لكن الشتاء قصير العمر ، عمر عدوك يا حبيبى ..

(ودفعت أمامى طبق البيض وأخذت تصيد حبات الفاصوليا من المرق بملعقة صدئة نوعا ، وكنت سارحا فيما كنت فيه) .

ـ فى الشتاء القادم يا عبده ينبغى أن تفصل معطفا ...

ـ بإذن الله .

ـ المدرس فى التعليم الحر مزروع على صخرة لا يستطيع أن يمد جذوره إلى تحت . ربما يلحقك الدور فى العام القادم . (وضحكت مستطردة) فى هذه الحالة ليس من الممكن إذن أن تفصل معطفا لأن نفقات انتقالك إلى الصعيد ستكون كثيرة .

ـ انتقالى وحدى ؟!

ـ أقصد انتقالنا . (على أننى كنت لا أزال سارحا شارد اللب) .

ـ أح .. ح .. ح . هل تشعر بالبرد ؟ يجب أن نأكل جيدا . نسيت أن أخبرك أن مريم خادمة أبى كانت عندى قبل حضورك وأبلغتنى أن أمى معتلة المزاج ...

ـ لا بأس عليها . ماذا بها ؟

وكانت عطيات جانحة إلى الأمام فرأيت فى جلستى بقعة صغيرة من صدرها ظهرت كأنها عاج . كانت عظمتا الترقوة مستورتين بإهاب من الحرير تحت سلسلة رفيعة من الذهب سرحت حليتها إلى أسفل ، فأجابت وعيناها تعبران عما فى نفسها :

ـ أمراض الأمهات ....!!

ـ إنها كثيرة ، فأيها تقصدين ؟

فضيقت عينيها وسددت أهدابها إلى الأمام . وتركت ابتسامة تقف على شفتيها فى شرود ، فقلت أنا :

- هل سيزيد الكرام واحدا ؟

فأومأت برأسها وهمست تكمل :

- وربما واحدة !!

وقمت عن عشائى فلم أجد صابونا على الحوض فكأنما كان هذا حادثا ضخما زاد من انقباضى . كنت فى الحقيقة أشبه بالعين المحتاجة إلى دموع منذ رأيت الأب وابنه فى الشارع فأدركت أن زوجتى أشبه بشجرة الصفصاف أو بالحقل الذى زرعنه الطبيعة بالحشيش البرى ... خضرة لا طائل تحتها !!

وتبدو عطيات وهى فى فراشها أكبر من سنها عادة . ربما ظهرت فى حياتها اليومية بنت عمرها بالضبط ، فهى حين تطبخ أو تدبر نفقات اليوم تفعل ما يفعله أمثالها ، أما فيما بعد ذلك فقد كانت أقرب إلى امرأة عركتها التجارب . وألقت نظرة على شرودى وهى تطفئ المصباح . ورأيت فى عينيها فى اللحظات الأخيرة التى سبقت الظلمة عزما على أمر ، فعزمت على ضده لأن ثورة هادئة كانت تتسرب فى أعصابى لمحتها عيناها الذكيتان على وجه غير فصيح الملامح .

وفاح من أردانها عطر خفيف حين رقدت إلى جوارى . كان يمازج أنفاسها الساخنة على الرغم من برودة الليل . وذكرنى شذاه فى الظلمة شذا شممته من قبل واختزنته ذاكرتى ... شممته فى شعرها فى الليلة الرسمية الأولى تحت هذا السقف . ليلة جلست على حافة الفراش ناكسة الرأس حافية القدمين تنظر إلى رجليها على السجادة . ذكرت هذا فزاد انقباضى .

وأقبلت تطوقنى ، كالحية الإنسية تلتف بكل ما فيها . ووضعت فمها على شفتى الصامتتين ، فوجدتنى فجأة أسألها :

ـ عطيات ... ما اسم هذا العطر ؟!

فشهقت وضحكت كأنما عجبت من السؤال ، ثم أجابت وأنفاسها فى صدرى :

ـ حلم العروس !!... اه ... لكنه ... سؤال غريب !

ـ الدافع إلى هذا هو أننى شممته من قبل ...

وسكت . وسكتت قليلا كأنها ترقب شيئا معينا . وانحط فوقنا سكون شامل سره أن الحى ينام باكرا فى ليالى البرد . وبين الفينة والفينة كانت تأتينا هفة أو هفتان أو أكثر من أغصان الشجر فى المدفن . وكنا نستمع إليها معا .

ولما شعرت عطيات أن الشىء المعين الذى ترقبه قد تخلف ، خلقت موضوعا جديا للحديث ، فسألتنى عن العلاقة التى تربطنى بالرجل الذى كنت أعزيه فى هذا المساء ؟ فقلت :

ـ صديق !!

ـ آ ... وما علاقة الميت به !

ـ أبوه .

ـ ولم يخلف سواه ؟

ـ خلف ، ترك ولدين : أحدهما مدرس وهو صديقى والآخر طبيب ...

وسكتت ، وكنت متوقعا أن تستأنف أسئلتها عن الطبيب ، وصدق ظنى ، فقالت :

- جراح ؟

وكان جراحا فعلا فضحكت ، لكننى أجبتها بما أراح نفسى أنا فقلت :

- لا . ليس جراحا ، بل طبيب فى أمراض النساء والولادة !! فلم تزد على أن قالت :

- آ ...

وانحط فوقنا السكون من جديد عميقا باردا ، وعادت هفات الأغصان تدخل إلينا من خلال النوافذ . وسمعت لوح زجاج غير مثبت فى مكانه يزقزق من القلق . واندمجت فى الأفكار والأصوات حتى شعرت بالخدر يسرى فى عظامى وبأنامل النوم الرقيقة تتجسس طريق أجفانى . لكننى وجدت نفسى فجأة واقفا فى وسط الغرفة ووجدت عطيات قد أشعلت النور وسارعت إلى الشباك تفتحه بعد أن تلفعت بالشال ...

كان الصراخ يأتى عاليا من البيوت القريبة المجاورة للمخبز . وكانت النار قد اندلعت معه أثناء السهرة ، فاستيقظ الحى من النوم .

ولما ابتعدت عربة المطافى راجعة بعد أداء مهمتها وابتلع الليل آخر رنة من رنات جرسها كان المارة لا يزالون يعلقون على ما جرى ، ففهمنا ونحن فى مكاننا من النافذة أن سرقة حدثت فى الطبقة الأولى من البيت المجاور للفرن أثناء الهرج والمرج وأن صاحب المخبز رجل شرير ابتلاه الله بالنار وأن سيدة أغمى عليها وهى تهبط السلم . وأخيرا أخيرا ... وكنا ننظر من فتحة صغيرة من الشيش حتى لا يصيبنا

البرد ، رأينا منظرا قديما جديدا . عشيقين جمع بينهما الحريق فتسللا داخلين من فتحة السور ثم غابا بين الأشجار !!

* * *

وجعلنا هذا المنظر نمتحن الحياة فى داخلنا بعد فترة من رجوعنا إلى فراشنا ... كدأب كل الناس بعد لحظات القلق التى تهدد الحياة !!

ورأت عطيات آخر الأمر أن الفرصة أكثر سنوحا فاستحلفتنى ألا أكتم عنها ما فى نفسى . وكنت شديد الرغبة فى النوم فآثرت أن أختصر الطريق فقلت :

ـ رأيت فى عودتى إلى البيت هذا المساء منظرا أثار فىّ كوامن الأبوة . وقصصت عليها قصة البائع . واستطردت : ليس عندنا ما يسميه الناس تركة بعد وفاتنا ... لكن ...

فأجابت وكأنها على كرسى الاعتراف :

ـ إن أمى أشد قلقا منى ومنك وأكثر اهتماما بهذا الموضوع !!

ـ هل عملت شيئا إيجابيا دون أن أعلم ؟

ـ نعم . صحبتنى إلى بعض المستشفيات بتوصيات كبيرة ، لكن ...

ـ لكن ...؟

ـ لا شىء !!

ـ أفصحى .

ـ أنا لا أصدق الأطباء يا عبده ، إن قانون الوراثة أصدق قانون على وجه الأرض . أمى امرأة ولود ، ولا بد أن أكون مثلها ...

ـ تقصدين ... فقاطعتنى :

- لا أقصد شيئا . أقصد فقط أن الوقت لم يحن بعد . وبعد ، فإن صديقك طبيب أمراض النساء والولادة الذى كنت تتحدث عنه من الممكن أن يوضح الموقف .

- هل في الموقف غموض ؟!

- قرر كل من رآنى من الأطباء أننى جهاز صالح ...

وتفتحت على أبواب جديدة بعضها رغبات وبعضها هموم . كان بودى ألا تنوم بيننا مثل هذه القضية الشائكة ، لأن أخلص الأزواج وأكثرهم مودة لا يرضى لنفسه أن يكون هو سبب الخلل ولا مصدر العقم . فلو أن قضية النسل قامت بين روميو وجولييت لابتهل كل منهما إلى السماء أن تكون فى صفه . من أجل ذلك انفتحت على أبواب من الهموم والرغبات ، وأدركت أن واحدا منا سيكون حتما مثل شجرة الصفصاف وأن الثانى سيدل عليه كلما سقاه وكلما رعاه ... فوضعت ذراعى على عينى وسكت حتى سرقنى النوم .

وفى مساء اليوم التالى كنا فى بيت أصهارى .

وبيتهم نموذج شديد الوضوح للبيوت التى تتراجع إلى الوراء دائما . دخل قليل وأفواه كثيرة ، والدخل واقف والأفواه تزيد !!

المرآة المكسورة فى صوان حماتى منذ خمسة أشهر لا تزال مكسورة فظهر الصوان بمرآة واحدة كأنه أعور العين . والبياضات على كراسى الصالون حليت بخروق حديثة العهد ، وبعض الكراسى أصيب بلين العظام فمالت رجوله فلا يستطيع أن يحمل نفسه ، والسجادة الصغيرة التى كانت فى غرفة النوم رأيت نصفها مفروشا فى الصالة ونصفها منشورا على حديد الشرفة . والراديو يكركر . وثلاثة

أطفال متلاحقون فى العمر ملابس بعضهم أطول منه وملابس بعضهم أقصر منه ـ كانوا خارجين من المطبخ وفى يد الأكبر طبق فيه رز يأكل منه بأصابعه وهو فى طريقه إلى الصالة ، والطفلان الآخران يطاردانه ومع أحدهم ملعقة وفى حفنة الثانى طبيخ .

أما حماى فقد كان مضطجعا يدخن ويلعن التدخين كلما أشعل سيجارة ، وأمام الكنبة التى كان مضطجعا عليها شبشب ملفق كل فردة من زوج ، وعلى رأسه قلنسوة من نفس قماش الجلباب ، ووجهه المستطيل شديد الكرمشة ، وسعلته التقليدية ذات خرخشة عميقة . لم يتغير !!

أما أزهى شىء فى البيت فهو حماتى !!

سمعت صوتها وهى فى طريقها إلى الحجرة التى كنا فيها تلعن أبا مريم وتسب تربية نبيل ابنها وشكل فتحية بنتها . فتذكرت بعض سيارات النقل التى تسير بالجاز فتنتشر حولها منه سحابة من دخان أسود فى عرض الطريق .

ودخلت من الباب كالفلك المشحون ، بادية الحمل ، مكورة البطن . ولم يكن ثوبها واسعا فأطبق على جسمها بفوضى ، وبدا من الأمام قصيرا ومن الخلف طويلا .

ونظرت أنا إلى عطيات نظرة كانت ذات مدلول ، وتعجبت من المتناقضات التى تقوم فى حياة الناس . ثم تركت الأم تثرثر عن متاعب « البلايا » التى يسمونها الأولاد ، والأب يتسخط عن حياة الوظيفة بالعبارات التقليدية التى آلت وكأنها شكوى من الحب . تركتهم يتكلمون وسرحت أنا أتصور أمرا لعله غريب .

تصورت أن هذا الرجل المضطجع على الكنبة المقارب على الستين خرج من هذا البيت صباح يوم ولم يعد !! أو دخل هذا البيت ظهر يوم ولم يخرج !! فانقطع بذلك المدد الشهرى الذى لا يزيد عن عشرين جنيها فماذا يكون مصير هؤلاء الذين يتزاحمون على حفنة من الرز ؟!

وكما سألت نفسى فى الماضى قائلا لها : لماذا نحب أناسا لا نرضى عن ماضيهم تمام الرضا ، فنكصت عن الجواب . نكصت عن الجواب فى هذا أيضا . لأن تناسى الأخطار من أولى دعائم اللذة !!

ولما أوينا إلى فراشنا بعد عودتنا إلى بيتنا ، كانت أفكارى عن الذرية أقل حرارة ، وأنفاسى أميل إلى الهدوء .

- ١١ -

نحن ندرك أن العمر ينقضى كلما وقفنا عند رأس سنة جديدة ، ولكن إدراكنا لانقضاء العمر يبلغ القمة إذا ما فارقنا حبيب بموت أو سفر . عندئذ يبدو لنا العدد الضخم من السنين فى تفاهة طرفة العين !!

اهتزت مشاعرى بعنف فى أول هذا العام ... يوم دخل علينا حموده واجما حزينا لا يتفق حزنه ووجومه مع مرح وجهه ، كأنه شربات تدور فى مأتم . وجلس على الكرسى فى تهالك . واضعا رجلا على رجل ، فبدا طويل الساقين كأنه شبح . ولما تحسس جيبه فلم يجد فيه سجاير ، نظر إلى أحد المدخنين بطرفه وتنحنح . وضحكت من أعماقى

وأنا أسأله عما جرى ، فقال أحد السخفاء من الذين عينوا جديدا فى مدارس النصر ولم ينسجموا مع المجموع :

ـ الست عيانة . فرد حمودة قائلا :

ـ سلامتها ... ألا خيبة اللّه عليك .

ثم قال وهو ينفخ الدخان فى وجهى :

ـ عبده ... قضى الأمر !!

فقلت وقلبى يدق :

ـ هل تركتنا يا حمودة ؟! خلاص !!

وكان معنى انتقال هذا الصديق إلى المدارس الأميرية أننى أصبحت آخر عود من الحزمة . عودا منفردا وحيدا ، فشعرت بالغربة التى يشعر بها المسنون بعد موت أندادهم . وأصبحت بعد فترة من الوقت أشبه بالسكين بعد أن يجرى على المسن . فدخلت فى طبعى حدة لم تكن فيه من قبل .

وفى المساء الأخير الذى سهرت فيه أنا وحمودة على قهوة الكوكب ، شعرت بظلال الوحشة تزحف إلى نفسى . وألقيت على مجاميع الأصدقاء على القهوة نظرة من فوق كتفى ونحن خارجان . وقبل أن يفترق بنا الطريق عانقته ، وفى عينى دمعة سترها الظلام ، وظللت فى مكانى حتى غاب عنى ، وكان آخر ما قاله وهو يشير بذراعه : وداعا يا عبده ... أنتم اللاحقون ونحن السابقون ... ها ... ها ... ألا خيبة الله عليك !!

لم أكن أبث هذا الشخص كثيرا من متاعبى ، لكننى كنت أدخره لوقت الحاجة ، أو كنت أشعر بذلك على الأقل ، ونحن نحزن على فقد

ما يدخر ، مثل ما نحزن على فقد ما يستهلك .

وكانت نفسى كثيرة المخاوف منذ قامت مشكلة الخلف بينى وبين عطيات ، لأننى لمحت تغيرا طارئا على تصرفاتها ، جعلنى فى ندم من باح بسره لغير المؤتمن .

وأنت تعلم أنها - حين تكون فى فراشها - تظهر أكبر من سنها ، كأنها باب جازه رجلان ويجتازه الآن رجل ثالث . وكثرت زيارات أمها لها وكثرت زيارتها لأمها . وكنت أدخل عليهما على غرة فينقطع بينهما الحديث ، وإن بقيت آثاره على الوجوه . وبدا كرباج حماتى أشد لسعا وقد أحسسته فى يد بنتها .. زوجتى !!

أصبحت عطيات زاهية الزينة ، تذكرنى عند مدخل كل ليلة بمولد السيدة ، أو بملابس أطفال القرية فى ضحا العيد الصغير .

وصادف فى هذه الأيام أن عانت مدارس النصر نقصا فى مدرسيها ، فأصبح كل واحد منا يقوم بعمل رجل ونصف . وأضحيت مثل علبة الساقية ، لا أكف طول النهار عن الطنين والدوران . وأملأ حقيبة وجريدة قديمة بكراسات من كل نوع ، آخذها معى إلى المنزل لأعمل بها فى الليل .

ولم تعد قهوة الكوكب داخلة فى حسابى ، لأنها صارت مقفرة من الإخوان . ولم يكن هناك وقت لأن أزور أحدا ، خصوصا بعد أن رزقنى الله بدرس خصوصى ، امتص فضلة فراغى . فكان لا بد إذن من الاحتباس فى المنزل بعد العشاء ، واستعمال القلم الأحمر ... أنبوبة المحقن التى ركبت على عروقى . وكانت عطيات تناوشنى برعونة ، أو هكذا خيل إلى ، حتى تصورت أننى أعاشر غانية لا أصاحب

زوجة . كانت أشبه بثلة من الأطفال الجياع أمام الفرن البليد ، فهم يتلقفون ما يخرج منه فطيرة فطيرة ...

وأخلص من عملى فى تصحيح الكراسات ، وآوى إلى فراشى ، فأرى فى اللحظات الأخيرة ، قبل أن ينطفئ النور ، عطيات وهى شاهرة زينتها ، عارضة أنوثتها فى مناورة غير سلمية ، فأتنهد فى هدوء . ويخيم الظلام على الحجرة ، فتأخذ فى قص القصص ، وحكاية الحكايات ، ورواية الروايات ، والتحدث عن الحوادث ، وكثيرا ما أغيب عنها قسرا عنى وعنها ، فأغرق فى النوم وقد يحدث أن تصنع من رمادى نارا بطريقة النفخ !! كما تفقد القروية علبة الكبريت فتجمع الورق على الجمرة التى تجدها فى الرماد ، ثم تظل تنفخ وتنفخ ... حتى تحيلها إلى نار .

وفى صبيحة تلك الليالى تدور الساقية فى مدارس النصر . ويتجدد الطنين واللف ، والناظر والمدير والمفتشون والنتائج من خلفنا . وحياة كأنها فى كهف أو منجم ، يقدم لى فيها الغذاء القليل ، والعمل الكثير ... وحتى الملذات قد استحالت فى حياتى إلى عمل !!

وإذا أصبحت اللذة عملا . انهارت الحياة من كل جوانبها . وضعفت صحتى ، فضعفت روحى . ولا تنس أنها من الأصل روح ضعيفة . وركبنى الخوف من المستقبل ، وأصبحت كثير الهواجس . وأصبحت عطيات كثيرة المطالب ، وأنا رجل محدود الدخل ، وهى تعلم حقيقة دخلى . فاستطاعت ببساطة ـ وأعتقد أن ذلك من أمها ـ أن تشعرنى أننى مفلس ... ضعيف !!

وطويت جوانحي على ما في نفسي ، فلم أعد أذكر شيئا عن الذرية ولم أكن متبينا طريقي . كان موقفي منها وهي في بيتي نفس موقفي منها وهي في بيت أبيها . فلم أكن أعلم إلى أين أنا ذاهب ، لكن قدمي كانتا تتحركان !!

ووضعت حماتي أنثى ، وشربنا عندها المغات . وأوقدوا لها الشموع ليلة السبوع . وقال حماى : إنه في انتظار رزقها ، لأن اللّه الذى يشق الأفواه ، كفيل بإطعامها .

وقالها الرجل الطيب في يقين ساذج وثقة صماء . ثقة الريفي في شربة الزيت التي تشفي من كل مرض . وتذكرت عدد الأطفال الذين يحيون في هذه الشقة ، فأدركت أنها « كتيبة » . أثاث يختفي ، وأطفال يظهرون ، كأنها حركات سيماوية ، كحركات الحاوي في السوق حين يحول المنديل إلى أرنب !!

وكانت حماتي ليلة سبوعها كعود القصب الذى مص وهو مزروع . وكان هناك دجاجة ذبحت من أجلها ، شقي لحمها بالعيون التي سلقته أكثر من شقائه بالأفواه التي مضغته ...

وقلت لزوجتي ، ونحن في الطريق إلى بيتنا : أنا مسافر ... بمناسبة إجازة نصف السنة . سأرى ماذا هناك ... فأمي مريضة . وربما وجدت جديدا فيما يتعلق بأختي . فلوت بوزها وأشاحت بوجهها . وكنا في الشارع فلم أعلق على الموقف ، وكان مزاجي معتلا : أشعر بدوار شديد وأدوس على الأرض فتهبط تحت قدمي كأنها كاوتشوك منفوخ ...

ووجدنا الحارة نائمة حين دخلناها ، والأشجار في المدفن تهمس بكل أغصانها ، كأنها تحكي حكايات . وحدأة راقدة على السور فوق الثغرة

تماما ، وقد دفنت رأسها تحت جناحها . وكنا لائذين بالصمت ، حتى عرجنا على البيت ودخلنا ، ففوجئت بعطيات منكفئة على الأرض ، وكان من المحتمل أن يصيبها مكروه ، لولا أن اعتمدت على راحتيها . كانت قد عثرت في السلم المكسور الذى لا يريد صاحبه أن يصلحه . فقلت لها وأنا أنهضها من تحت إبطها :

ـ سليمة ؟! الحمد لله !!... ألم تعرفي الطريق حتى الآن !؟

وتنهدت ولم ترد . وأخذنا نخلع ملابسنا ونحن صامتان ، ولبست قميص نومها بحركة عصبية ، وتمددت على السرير . وكنت فاتر النفس كأنني شبعت من الخصومة . كنت كطرف ضعيف في قضية ضعيفة ، أريد أن أسمع الحكم فيها على أى حال . ولم أكن أعرف بالضبط أين تقع عطيات من قلبي في هذه المدة . كنت كالمدين الحائر المضطر ، تجده مستعدا لأن يبيع أنفس نفائسه بثمن بخس . حتى إن كانت عطيات من النفائس .

وكانت لا تزال نائمة ، أو لعلها متناومة ، وأنا ألبس ثيابى وقت الصباح . وأخذت حقيبة سفر صغير فيها بعض حاجاتي ، وأيقظتها من النوم :

ـ عطيات ... أنا مسافر .

فنظرت إلى نظرة لينة لا تخلو من اللؤم :

ـ صحيح ؟ مصمم ؟... أصبحت أعاشر رجلا عنيدا ...

ـ أنا مسافر !!

فنهضت من فراشها . فرأيت زينة الليل سليمة لم يتلفها لمس إلا ذوائب شعرها البني . وألقت بنفسها على صدرى ، فاحتضنتها ، فقبلتني . ثم سارت خلفي حتى الباب .

وشممت هواء الشارع طريا حلوا ، فأحسسته في أعماق صدرى . وبعد أن ركبت القطار أحسست براحة ... لن أقول : إنها أشبه براحة من قضى مدة السجن وخرج ، ولكن أقول : إنها كراحة من خلع من قدميه حذاءه الضيق بعد أن مشى به شوطا متعبا !!

ورأيت أمي في القرية أشبه بالدجاجة الراقدة على بيض ، هزيلة لا تفارق مرقدها . ومن الغريب أنها كانت تشرب دواء ، وقت دخولي عليها ، فنظرت في وجهي وسألتني عن صحتي ، وعلى وجهها تجعدات ألم واشمئزاز ، كنفس الصورة التي حفظتها لوجهها يوم كانت تغريني بالزواج ، وسألتني زينب من جديد : هل أنت مريض ؟! فقلت : لا !! وهززت رأسي مطرق العينين .

وتجدد الشيء القديم الذي حدث من قبل : ارتحت ، وتغذيت ، فتقدمت صحتي ، وجرت النضرة في لوني كما تجرى الخضرة في أعواد التوت قبل تفتح البراعم .

واختلت بي أمي عصر يوم من الأيام وسألتني ، كانت جالسة على سريرها العالي ، وكنت أنا على أحد الكراسي قريبا منها ، وكان وجهانا في تجاه نافذة تطل على الحقول . سألتني أمي :

ـ عبده !!

ـ نعم يا أماه !!

ـ حالك لا يسر يا حبيبي !!

- أنا فى الحقيقة مرهق يا أمى !!

- أعمال ؟!

- نعم . أعمال !!

فهزت رأسها ، ونظرت فى بعينيها السليمتين نظرة لا تطرف . ثم مصمصت بشفتيها ، وتنهدت ، ونظرت إلى الحقول من خلال النافذة .

وطال الصمت . ودخلت علينا دجاجة من الباب المفتوح . فقالت وهى فى فراشها لتطردها : « هش » . فانفتح الحديث :

- عبده !!

- نعم يا أماه !!

- كان بودى أن أرى زوجتك مرة واحدة .

- سأصحبها معى فى فرصة أخرى .

- لكن ... أهى حامل ؟

فأطرقت خجلا كأننى أخفقت فى مشروع . وقلت وأنا أنظر إلى نقش الحصير تحت أقدامى :

- لا !!

- هل حدث أنها أسقطت جنينا ؟!

- لا أيضا !!

- طول هذه المدة ؟!

فلم أرد ..

ودخلت دجاجة أخرى فقالت لها : « هش » ونادت زينب وأمرتها أن تحبس الدجاج . ثم سمعنا خوار ثور وصياح فلاح ، فابتسمت أمى

وهى فى مجلسها ونظرها إلى الخارج ، فرأيت على بسمتها نور من اهتدى إلى حقيقة . ولم تمض برهة حتى أشارت إلى :

ـ عبده . تعالى إلى هنا .

فقمت . وحاذى رأسى رأسها وأنا واقف وهى على السرير . ونظرت إلى الحقول ، فرأيت ثورين معلقين فى محراث على مرمى البصر ، ومن ورائهما فلاح يفرقع بسوطه . سألتها :

ـ هل أخرجت هذه الأرض زرعا ؟ إنها مملحة .

فضحكت حتى تكرمش وجهها وقالت :

ـ منذ ثلاث سنين وصاحبها يحاول . ولكنها تأكل البذور أولا بأول !! فهل فهمت ؟!

فأجبتها فى شبه غضب : أنا لا أريد ذرية ، اسكتى ، أنا رجل فقير ! ولبست حذائى وخرجت .

* * *

وآل بيتنا فى القاهرة إلى حالة ، لا هى سوداء ولا هى بيضاء ، ملؤها قلق من الحاضر وخوف من المستقبل .

أما قلقى من الحاضر ، فلأننى كنت ظمآن كارها ، تماما كأننى أمام كأس من الخمر . وكانت أنوثة عطيات فى تقدم نحو الكمال كأنها ليالى الأشهر القمرية . وكنت أحس حينا أن شخصا ما يرقد بينى وبينها ، صورته مطابقة لصورة جمال افندى . وحين يغيب عنى هذا الخاطر المسموم ، فتكمل فى فراشنا عناصر اللذة ، أذكر أخيرا وأنا أجفف عرقى ... عرق الفلاح ، الذى رأيته من النافذة ، يوم أشارت أمى إليه ، والثور والبقرة الربيطين فى المحراث ، وفرقعة السوط من

خلفهما ، والجهد والعناء ، والأرض ... الأرض المملحة ، التي تأكل البذور أولا بأول . فأشعر بنقمة مزدوجة تمشي في خطين متوازيين بعضها على أمي !! وبعضها على امرأتي !!

وأما خوفي من المستقبل ، فقد كان شيئا خطيرا . كنت أنفيه عن رأسي وأحول بينه وبين الدخول . لكن ... الأقوياء لا يدفعون ، فقد تسلل هذا الخاطر إلى نفسي قهرا وقسرا ، وناوشني في أوقات متباعدة . وذلك هو خوفي من ولد مزيف !!

أما قلق عطيات ، فقد كان أقل ترتيبا ، وأكثر فوضى . كان كحرب العصابات يستعمل فيها كل شيء حتى الطوب والزجاج .

كانت واقفة لي بالمرصاد تنفخ في رمادي ما استطاعت ، حتى تحيله نارا ، وتستحيل النار إلى تراب . وليس يعنيها بعد ذلك أن تسالمني ، بل كثيرا ما كانت تشتبك معي في عراك .

وكانت نظراتها إلى الأطفال غريبة ، خصوصا إذا كانت أمامي .

وإذا كنا لا نصدق الكذابين ، فإنه قد يعن لنا أن نتبعهم حتى لا نخنق أول خير صادق يقصونه علينا . من أجل ذلك ، وجدتني مجبرا على أن أصدق ما قصته عليّ عطيات :

ـ في أثناء غيابك يا عبده ، حدث شيء عجيب .

ـ خيرا ؟!

فضحكت بين كفيها ، ثم تناولت مشطا من على المنضدة ، وجعلت تمشط شعرها غير المحتاج إلى تمشيط ، لكنها حركة :

ـ عدت في إحدى الليالي من بيت أبي باكرا ، لأن الجو كان ينذر بالمطر ...

(فقلت فى نفسى عندئذ : لا بأس . نفس القصة القديمة التى تحكيها كل زوجة . رجل غازلها فى الطريق ، وطاردها حتى الباب . ورفعت صوتى قائلا) :

- هيه ...

- ولم أكد أكمل خلع ملابسى ، حتى سمعت طرقة جريت بسببها إلى الباب وفتحته ، لأنها كانت نفس طرقتك ، فرأيتنى بغتة أمام شاب غريب . ولما تراجعت جافلة ، وأنا أسأله عما يريد ؟ قال بهدوء : أليست هذه هى شقة الممرض ؟ فأشرت فى سخط وأنا أرد الباب قائلة : لا ... فوق .

- وما فى هذا ؟ ألم يحدث أن أخطأ قبله ناس كثير ؟

- حدث . لكننى تذكرت أننى رأيت هذا الوجه ذات مساء . وكان سائرا ورائى خطوة خطوة .

فسألت فى قلق كنت لا أشتهيه :

- ثم ....

- اعتذر وانصرف .

- صعد ؟

- لست متأكدة ، لأننى أقفلت الباب قبل أن يتحرك من مكانه . ولم يكن على وجهه دلائل البراءة .

- ثم ...

- وبعد ذلك بليلتين طرق الباب نفس الطرقة ...

وكفت عن تسريح شعرها ، وأمسكت المشط وهى تمرر إصبعها على أسنانه فتحدث صوتا . وكانت عيناها إليه لا ترتفعان . واستطردت تحكى :

- لم يكن هناك مجال للشك مرة أخرى ، فإنها طرقتك . وفتحت ، فرأيته هو واقفا أمام الباب ...

فلم أجد نفسا أستطيع أن أقول به (هيه) ، فأومأت برأسى أستزيدها .

- امتلأ جسمى رعبا وتطلعا ، فلما سألته عما يريد ؟ أجاب نفس الإجابة : أليست هذه هى شقة الممرض يا سيدتى ؟ فقلت له :

- أنت مريض حتما . ألم يحدث أنك أخطأت قبل ذلك ؟ فأجاب برباطة جأش : أنا ؟ وإذا كان ذلك صحيحا فأنا متأسف . أنا يا سيدتى طالب بكلية التجارة أسكن هذا الحى ، ومعى زميل مريض محتاج إلى من يحقنه ...

ثم أولانى ظهره ، وصعد السلم ، وداس على قطة كانت نائمة فى الظلام فاختلطت صرختها بقهقهته ، ثم سمعت دقة على الباب فوقنا ، ولكن لم يجبه إنسان .

فقلت لها : طالب رقيع . فأجابت وهى ناهضة لبعض شأنها :

- ومنذ ذلك التاريخ ، لا يمر تحت النافذة إلا رفع رأسه إليها . هل تحب أن تراه ؟

فقلت ببرود مصطنع : لا ... دعيه يأكلك إن استطاع ذلك !!

وذهبت فى صمت خائف ، أستثير أحد الأطباء فى صلاحيتى فأعطانى نتيجة تدعو إلى الشك ، ووصف لى علاجا . لكننى ذهبت فى حرص شديد إلى طبيب آخر ، فأكد لى عكس ما قاله الأول . ونحن نختار من الأحكام ما يناسب هوانا . وبهذه التصرفات ضاعت الحقيقة بينى وبين زوجتى . ولم يكذب اتهامي فى هذه المرة ، فقد رددت على تلميح لها ، بأننى أديت واجبى نحو حياتنا المشتركة ، واستشرت طبيبا !! ثم أردفت : على أننى لست قلقا فلا تحزنى .

فأجابت ببساطة كانت تلون طبعها فى بعض الأوقات :

ـ لست قلقة واللّه العظيم . ماذا أصنع ؟!... إنها أمى . لا تزال حتى الآن تؤكد لى صحة قانون الوراثة ...

وكانت عطيات فى هذه الوهلة امرأة حقيقية . سهلة لينة ضعيفة ، بل متضعضعة . فقبلتها !!

على أننى كنت أسأل نفسى ، حين آنس منها أنها قادرة على أن تجيب : هل أحب عطيات ؟ هل أستطيع فراقها ؟! فإذا بها تنكص عن الجواب كما ينكص الطالب البليد ، أو تجيب إجابة متلجلجة لا تجنح إلى ناحية !!

ومتى عرفنا أنفسنا ؟!... ألم تستعن بصديق لك مرة من المرات ليعاونك على معرفة نفسك ... أنت ؟!

غير أن الجواب جاء من أوسع الأبواب عصر يوم من الأيام . عدت إلى البيت ونفسي مشحونة بمشاعر شتى . وكانت عطيات تحس وعكة ، فوجدتها فى الفراش . وعن لى أن أتذوق الحادثة وأن أقصها عليها ببطء ، فقلت لها ، وأنا أجلس على حافة السرير .

ـ تشجعى يا عطيات ، فإن عندى خبرا لست أعلم أيحزنك أم يسرك !!

فعضت على شفتها حتى احمرت ، ورجتنى أن أسرع لأنها مريضة لا تحتمل الهزات ، وأخذت يدى بين كفيها وشرعت تشد أصابعى واحدا فى إثر واحد فنسمع طقطقتها :

ـ عبده !!... أرجوك !!

ـ لسبب طارئ لا يعرف كنهه ، احتاجت الوزارة إلى مدرسين فى مدارسها ...

فنفضت اللحاف برجليها وقامت تعانقنى وأنا جالس . وجرى فى شحوب خديها احمرار بديع . ثم سألتنى :

ـ ولكن ... إلى أين ؟

ـ إلى الفيوم .

ـ الفيوم ؟! ... فضل من الله على كل حال . سينتهى بنا المطاف حتما إلى القاهرة ، وعادت تقبلنى بحرارة .

صرت أشبه بالمريض ، أحس دبيب العافية بعد سقم طويل . وخلع كثير من الأشياء ملابسه الرثة التى كنت أراها وارتدى ثيابا جديدة . ورأيت مدارس النصر أشبه بمستودع لذكرياتى فارتفع ثمنها فى سوق عاطفتى . وخيل إلى أن عيون الطالبات كانت مكحولة بالدمع ،

ونظرت إلى الحديقة والفصل والطرقات والمماشى التى شهدت ميلاد قصتى معها نظرة طويلة ، كأننى كنت أتعرف عليها بين معالم تاهت فيها .

وذكرت أعواد الحزمة ، حتى جمال افندى ، وذكرت أننى آخر عود فيها وشعرت أن الأيام مرت بسرعة ، وقد كنت أحس ثقلها قبل ذلك ، وجلست أنا وزوجتى نتفقد الموقف :

كنا فى شهر مارس ، بيننا وبين نهاية العام الدراسى مدة غير طويلة . فاتفقنا منذ الوهلة الأولى على أن سفرها معى إلى الفيوم ونقل أثاثنا عمل غير صالح ، وأن خير ما نعمل هو أن أقضى هذه الأشهر كيفما اتفق ، وأترك عطيات فى القاهرة ، على أن أزورها كلما كان ذلك فى استطاعتى .

ولمحت فى عينيها دموعا وهى تبعث بكلمة الموافقة ، وجاءنى من أوسع الأبواب جواب سؤالى ، فعرفت أن عطيات تملك على قلبى ، فقد اهتززت بكل كيانى عقب إصدارنا قرار السفر ، كما يهتز عود الخيزران اللين . وعرفت كذلك أن معنى واحدًا نعتبره مزية ، ولو خطأ ، قد يعمينا عن أضخم العيوب فى الناس .

وقمت فصنعت لها شايا بيدى ، وهى فى الفراش ، وقدمت إليها بعض أقراص مسكنة . وكانت تشكو من الصداع وتتكلم من فرط السعادة ، وكنت أدعوها إلى الصمت ثم أحادثها بعد دقيقة .

واستأذنتها فى الخروج كأنما لأودع شيئا . مررت على قهوة الكوكب وأنا سائر إلى غير غاية ، فوقفت عند منعرج الشارع حيث انصب فى سمعى صرير الترام مخلوطا بصوت باعة الفاكهة ، ونهيق

حمير في موقف العربات . وكان بصري ينفذ من خلال الألواح الزجاجية الكبيرة إلى داخل المقهى ، فرأى المناضد الخالية من أصدقاء كانوا هنا ثم طوحت بهم يد الأقدار في أرض الله !! وخادم القهوة هو هو يغدو ويروح على الزباين الجدد في مريلته البيضاء . فهمست وأنا أدور راجعا إلى البيت :

ـ جاء دورنا !!

ومع أن المساء كان ربيعيا ، فقد كان هناك سحاب في أديم السماء . وقمر آخر الشهر في الجنب الشرقي يتسلق الأفق في طريقه إلى الغرب ، فرأيته من خلال أشجار المدفن ، وأنا في الشباك ، على حين كانت عطيات تجهز عشاء طيبا اشتريته قبل عودتي .

ودخل علينا النسيم ونحن نتعشى ، وطار بشبقتي الستارة في كل اتجاه ، وقضقضت عطيات بأسنانها ، فقمت فأقفلت الزجاج . وكان هناك صدى غناء يأتي من الحي الساهر ، ومرح كثير يملأ الجو أظنه كان منبعثا من نفسي . أما هي فكانت في هذه الليلة كالحمامة المبلولة ، غطى المرض شيئا ما على طبيعة الغزل في روحها المتوثب . ودخلنا فراشنا وأخذنا نتكلم ، وكان هناك حنان ندى يجري في كلامها ، أشهى بكثير من القوة النسوية ، والنبرة العالية ، والحركة المترقصة ، فقلت لها :

ـ لا داعي طبعا إلى أن تقيمي في بيت أهلك ، ولكن أنت حرة في تضييع ساعات النهار بينهم ، وفي الليل تستطيع إحدى أخواتك أن ترافقك إلى هنا لتنام معك ، فتؤنس وحدتك . لكن ... أرجوك !!

ـ أمرني !!

- أرجوك فى شىء واحد .

- هو ؟!

- ألا تضيقى على نفسك فى النفقة ، حتى آكل بهناوة ، ما قد يكون بين يدى وأنا بعيد عنك !!

فتنهدت وارتجفت شفتها ، ومال وجهها إلى الشحوب ، وبدت كالحمامة البيضاء المبلولة أكثر وأكثر ، ثم قالت بعد أن قبلتنى :

- عبده !!... فكر فى نفسك أنت . لكن الذى أطمع فيه هو أن أراك كلما قدرت .

وانخرطت فى البكاء ، واضطرب جسدها من أعلى إلى أسفل ، وتحسست جبينها وأنا أمسح دمعها ، فخيل إلى أنها ساخنة ، فخفق قلبى . وعاد مرة أخرى فخفق حين تأكدت أننى أحبها ، تلك التى لم تحظ بثقتى كاملة فى يوم من الأيام ، لأن ماضيها كلوح الزجاج المشروخ ، وحاضرها يحرسه التسامح ، والمستقبل بيد الله . غير أن الزجاج المشروخ يذكرنا دائما بالكسر . ثم جاشت نفسى بعد أن نجحت فى تهدئة عطيات ، فأخذتها بين أحضانى كأنما لأحميها من الخوف ، وكانت لينة مستسلمة مثل لفة القطن ، وأنفاسها وانية ساخنة كأنها نصف محمومة . ولكننى لم أستمع إلى اعتراضها المتوسل الذى ما لبثت أن نسيته !! ثم استغرقنا فى النوم !!

وفى الغربة والسجن والساعات التى يهادننا فيها المرض ، نستطيع أن نذكر تفاصيل حياتنا ، وأن نشرف على البقاع الغامضة فى داخلنا من فوق قمة فنرى ماذا فيها :

اكتريت غرفة صغيرة فى لوكاندة عادية ، وبدأت أعيش عيشة الوحدة . وكانت الأيام الأولى من إقامتى قاسية على ، حتى خيل إلى أننى فى غير وطنى .

ولم تكن الأفكار المقلقة تنتابنى إلا فى الليل بعد أن أمشى شوطا طويلا أو قصيرا فى شوارع المدينة ، ثم أدخل إلى فراشى مؤثرا ألا أنفق قرشا على القهوة ، لأن القروش التى أبعثرها فى التفاهات ، يصلح مجموعها أن يكون أجرة سفر أرى فيها عطيات ، وأطمئن على أحوالها .

وبعد ثلاثة أسابيع قررت أن أسافر . ولم أنم الليلة التى سبقت سفرى إلا غرارا ، ولم أشأ أن أذكر لها فى رسائلى أننى حاضر لأضيف إلى حلاوة اللقاء حلاوة المفاجأة .

وسافرت ضحا الخميس . وحين دخلت إلى الحارة أحسست أننى أولد ، وأن حركة الحياة فى نفسى كحركة اختلاط الماء البارد بجوف العطشان . كانت النوافذ مغلقة توحى بأنه ليس هناك أحد . غير أن مثل هذا الخاطر آخر ما يصدقه المشتاق . وطرقت الباب ، ففتحت بنفسها ، ولم أدر ماذا فعلت ، فقد احتضنتها فجأة وأخذت أقبلها ، وقالت لى خطفا وبجهد فى وهلة وقعت بين قبلتين : أختى هنا ... وتدافعنا إلى الداخل ونحن نتكلم . وكان معى ثياب غير نظيفة ، وطعام اشتريته من الخارج ، واستأذنت أختها فى الانصراف فالتقينا وجها لوجه .

أدهشنى أنها حظيت بتقدم صحى لم يكن على بالى . وأطريت بلسانى حالها ورونقها الجديد ، وقلبى لا يوافق على ما أقول ، كأنما كان يتمنى لها العكس . شىء غير مفهوم ، أو لعل سره هو ترجيحى

أن التقدم الصحي ناشئ من استقرارها النفسي ، والزوجة المنفردة لا تكون مستقرة النفس إلا إذا كانت لا تحس بغياب زوجها ، أو كان هناك من يؤنسها في الوحدة !!

هذا هو ما كان في أعماقي ، حين نظرت في مرآة كبيرة تقوم في حجرة النوم ، فرأيت وجهي في أديمها بعد عشرين يوما . خيل إلي أنني متغير ، أشبه بالمحارب النازل في إجازة ، أشعث أغبر جاف الشعر ، أسمر اللون أكثر من المألوف ، لا يخالط ماء النعيم ملامحي وقسماتي .

وضحكت عطيات وأنا أتأمل نفسي في المرآة . ورأيت أسنانها الصدفية في فمها الضاحك وهي واقفة خلفي ، فابتسمت في أسف ، واستدرت إليها وربت على خدها ، فقالت وهي تلتصق بي : يدي عليك ترياق .. هل عرفت ؟! فأجبتها وكأنني مهزوم : عرفت عرفت ... أشياء كثيرة !؟

وفي طريقي إلى الفيوم شعرت بميوعة الموقف ، أقصد موقف عطيات . كنت أتخيل أن الحلاوة أحلى من ذلك ، لكنني توسمت فيها الشماتة ، أو شيئا يشبه الشماتة حين رأت ذبولي ، مع أن ذلك كله كان من أجلها .

وقالت لي بثقة وعدم اكتراث : إنني أتسلى . أتسلى مع إخوتي وأخواتي وأخرج مع أمي لزيارة الناس . أعمل جاهدة على بعثرة الوقت ، وعندما أعود إلى البيت أقرأ حتى أنام !!

كان القطار يعبر أحد الكباري ، وأنا أذكر قولها هذا ، فلما أصبح صوته أصم بعد انزلاقه على الأرض اليابسة ، ذكرت ليالي وأيامي في

الفيوم ، وحبستني في الغرفة الناصلة البياض ، المهددة بالبق في سبيل قروش أجمعها لأسافر إليها .

لم تكن كفتا الميزان متعادلتين فيما بدا لي ، فرجعت غير مسرور ، ملأت لها كفتي بالحب ، وملأت لي كفتها بالمن . ثم لم تكن بارعة في وداعي .

وإذا كانت الأماكن تمدنا بخيالات تتناسب مع أشكالها ، فإن الحجرة الضيقة ذات الضوء الكابي ، والشباك الواحد الذي يطل على حارة وورشة نجارة - أمدتني بخيالات كئيبة .

فتخيلت أن صديقا بدا في الأفق لعطيات ، وساعدها غيابي على أن تكبو ، وساعد خيالاتي على النمو أن عطيات لم تكن بارعة في وداعي .

وجعلت أقرأ ، وأسهر وأتسلى لأنسى القاهرة . وافترضت كل الفروض ، ووطنت نفسي على قبولها . ما أقسى ما يحدث ؟ أن أفقدها؟ أعني أن رجلا آخر يستولي عليها ؟ مع ألف سلامة !! سأعيش !!

وبذلك طابت لي الحياة نوعا . وبدأت آلف من حولي ، وأخذت العلاقة بيني وبين الناس تمد جذورها حتى أثمرت صداقات .

أحبني الناظر لأنه كان مبتلى بثلة من المدرسين المشاغبين ، فرآني أمثل ركن السلام في حياته القلقة . وكان تعبا من زوجته ، كانت أكبر منه سنا ، قوية قاسية . وشبهها يوما بالكرباج ، فضحكت وذكرت حماتي .

وأكد لي أن الحياة الزوجية لا تفرض تعاستها على رجل ، مطلقا ، إلا بقوة واحدة ... هي الذرية !!

فتنفست الصعداء ، كأنما فتح لى بيده نافذة على الهواء الطلق . ولم أعد أشعر أننى محبوس . وكان لصدى مدحه فى أن سعى إلى بعض أولياء الأمور ، يرجوننى فى مساعدة أولادهم بأجر . فتيسرت حالى .

وكتب إلى عطيات أقول لها : إننى مرتاح فلا تقلقى على !! فكتبت إلى تقول لى : إننى مرتاحة فلا تقلق أيضا !!

ولم يكن كلامها هذا يسعدنى ، فقد كنت مشتهيا أن تقول لى ، ولو مرة : إن القاهرة بعدك ظلام . لكنى كنت لا أستطيع أن أجزم بشىء .

وقمت فى إحدى الليالى من النوم ، وأنا أصرخ وأكاد أختنق ، حتى إن خادم اللوكاندة سمعنى وجاء يطرق باب الغرفة . وكان سبب ذلك هو أننى رأيت حلما بشعا : رأيت كأن رجلا يرقد فى فراشى . وكان يرقد وحده ليس بجانبه امرأة ، ولم أستبن وجهه إلا بعد أن أدرته لأنه كان منبطحا على بطنه . وصرخت مرتين حين رأيته : الأولى لأنه كان وجه جمال أفندى ، والثانية لأنه كان يلبس أحد جلابيبى !!

ولم أنم بعدها ، وصرت ألعن أبا الكابوس ، وأشعلت موقد الكحول وصنعت كوبا من الشاى ، وجعلت أشرب وأدخن ، وأنظر من النافذة على الحارة ، فأرى سكونها وباب الورشة المغلق بحزام من الحديد ، والعربة الصغيرة ذات العجلة الواحدة المضطجعة على جنب أمام الباب . وذكرتنى باضطجاع عطيات ، وبعينيها المسبلتين ، وبمكانى الخالى فى فراشى على بعد ، وبالعذراء الطيبة ، أختها التى لا تزال بريئة ، وترقد إلى جنبها ... حتى شعرت بالخدر ، فرقدت غير مبال بالبقة التى كانت تستأنف سفرها على الحائط .

* * *

وعدت لأراها مرة أخرى . وكانت فى زينة من شبابها ، غضة طرية ، ورأيتها أكثر مرحا من المرة السابقة . كانت أشبه بحجرة فتحت فيها نافذة إضافية ، فزاد فيها النور . وذكرت دموعها ليلة ودعتنى ، فذكرت أن عوامل متنافضة تثير الدموع .

وفى اللحظات التى كانت فيها بين أحضانى ، كنت أراها أبعد النساء عنى . لست أدرى لم داخلنى هذا الخاطر ؟! على أنه كان يدفعنى إلى احتضانها بعنف ، ثم إلى إبعادها بعنف آخر الأمر !!

- ١٣ -

وودعت الفيوم هذه المرة لأننى سأقضى إجازة الصيف فى القاهرة .

ذرفت دمعة على المدينة التى سأعوذ إليها بعد شهور ، لأنها كانت فى حياتى أشبه بالغيبوبة التى تفصلنا عن واقع مؤلم .

واستقبلتنى عطيات فرحة رعناء ، كل شىء فيها يتلوى ويتأود . ثم قالت لى وكفاها فوق صدرى ، ووجهها مرفوع وأنا واقف :

ـ عبده !!... آن الأوان ... خلاص !!

ـ ماذا ؟!

ـ حملت !!

ـ حملت ؟!

ـ ألا يسرك هذا ؟! قلت وأنا مبتسم :

ـ وكيف لا ؟! وخفق قلبى بعنف شديد .

- وهكذا صدق قانون الوراثة بعد ثلاثة أعوام إلا قليلا يا عطيات ، هل أنت سعيدة ؟!

فكركرت بضحكة طويلة ، وخرجت إلى الصالة وهى تتأود .

وليس فى الدنيا أحد يتشهى أن يذود الذباب عن وجهه .. لأنه لا يتشهى الذباب . والخواطر السود شبيهة بذلك . لكن ... كلنا نختار من الأحكام ما يتناسب مع هوانا وما يتلاءم مع راحتنا ... فحسب !!

سمعت صوتا ينادينى وأنا أعبر الشارع . كان غريبا لم يألفه سمعى ، وتوقفت ، ثم سرت لأننى لم أجد صاحبه . لكنه عاود النداء ، فإذا به زميل قديم كان جالسا تحت ظلة إحدى القهاوى يوم جمعة ووقت الصلاة لم يحن بعد . وكان لقاؤنا أشبه بالتقاء الطلبة فى أول يوم من العام الدراسى ، وتعانقنا ، وذكرنا الأيام الماضية . وأخبرنى أنه جالس هنا حتى يحين وقت الصلاة ليصلى فى السيدة ، فقد بلغه أن فيها خطيبا من نوع جديد ، يساير الحياة .

وجلسنا نثرثر ، فذكر لى أنه عين فى طرخ ، وأنه بذلك صار قريبا من بلده ، يعنى القاهرة !!

وسألته عن فلان ، فأخبرنى بحاله ، وسألنى عن فلان ، فقلت : لا أعلم عنه شيئا ، لكن زميلنا حسنى سافر إلى العراق ، وعلى مرسى توفى إلى رحمة الله . فقال لى : أما مصطفى رضوان فقد تزوج ، وأنت يا عبده ، هل تزوجت ؟

- الحمد لله !!

- هيه ... وصرت أبا ؟!

- فى الطريق !!

ـ رجل . عشت . وعلى فكرة ، فإن وباء الزواج تفشى بسرعة بين إخواننا ، حتى الذين كنا نظنهم فى حصانة أصابتهم العدوى .

ـ مثل ؟

ـ هل تذكر جمال أفندى ؟ (فخفق قلبى)

ـ أذكره !!

ـ تزوج !! .. ها .. ها ... ها .

ـ إنه فى الإسكندرية . (فأجاب وهو لا يزال يضحك) .

ـ أعرف ذلك .

ـ هل رأيته هناك ؟

ـ لا ... هنا .

ـ هو وزوجته ؟

ـ نعم ... سلمت عليه وهو فى الطريق . لم يمهلنى شوقى إليه حتى أتبين أن امرأة بجواره فسلمت . ثم انكسفت .

ـ هل أخبرك أنها زوجته ؟ (فأجاب فى اقتناع)

ـ لا . فهمت ذلك من نفسى ، هيأة الزوجات لا تخفى على عين . مشية الطمأنينة وانعطاف الود . على كل حال يا أستاذ عبده ، لقد أعجبنى ذوقه . جميل تزوج جميلة . ستكون ذريتهما من النجف . والمهم عيناها الخضراوان وشعرها البنى ... أستغفر الله العظيم . لم يبق على صلاة الجمعة إلا دقائق ... وداعا ... فرصة سعيدة .

قلت فى نفسى وأنا أهز كفه : بل فرصة من أتعس الفرص .. من أى قبو خرجت لى أيها الإنسان (ورفعت صوتى) :

ـ مع السلامة !!

وشعرت أن أفخاذي مملوءة بالرمل ، فقد فتح على الشك نافذتين فى جدار واحد . وكنت أدوس على ورق الخس وقشر الموز ، فأمسك نفسي وأنا على وشك السقوط على الأرض المبلولة ، وضجيج الحى يدخل إلى أذنى كأنه لغط على الشط يأتى إلى غريق !! لكننى فى المساء وجدت مرهما وضعته على جرحى ، حين لففت من بعد حول عطيات بالحديث فلم تطق ذكر جمال أفندى . وحين توهمت أنه من الجائز أن يكون تزوج ، وأن تكون امرأته خضراء العينين ، بنية الشعر .

ومن نفس القبو الذى خرج منه زميلى السابق ، خرج حمودة ، رأيته جالسا على قهوة الكواكب مساء ، وقد بدت عليه آثار النعمة ، فعانقته فى شوق .

كان يزور القاهرة ، فزار معالم الصداقة . لم ينسها . وجلسنا نتكلم ، وكنت عازما على أن أسأله عن جمال أفندى ، هل تزوج ؟ وسنحت الفرصة ، فإذا به يضحك :

ـ ألا خيبة الله عليك يا أستاذ عبده ... خايب على كل حال ، مدرس أميرى ... أو مدرس حر !! فسألته خجلا :

ـ ولماذا يا حموده ؟!

ـ الحلال آخر ما يفكر فيه جمال أفندى ... ألا خيبة الله عليك . فضحكت قائلا :

ـ بل عليه هو !! وما ذنبى أنا ؟! وإذن لم يتزوج ؟!

ـ ولم تعلم بما حدث له ؟

ـ خير !!

- متأخر !!... لقد ندب إلى الديوان فأمن شر التنقلات ، هو فى القاهرة الآن . وبحكم اتصاله بكبار الموظفين يستطيع أن يضر وينفع... ممثل يا أفندم ؟!... ألا تذكر مسرحياته ؟؟

فرجعت القهقرى ، وكنت كأننى أهوى إلى عمق . فى فجوة مظلمة رطبة عفنة . وأيقنت أن الأقدار تقذفنى بالحجارة . لكننى ذكرت أننى فى الفيوم وأن زوجتى سترحل معى وقتما أشاء .

* * *

وقبل أن أرحل بزوجتى وأثاثى إلى الفيوم ، قبيل افتتاح الدراسة سافرت إلى القرية لأودع أهلى . وجدت أمى على السرير نفسه فى تجاه الشباك المطل على الأرض المملحة . وزينب مخطوبة جديدا . وامرأتى حامل . وصحتى لا بأس بها . لكن أمانى أمى تجددت ، فتمنت أن ترى لى غلاما قبل أن تموت . ورأيت فى الأرض المملحة عبر النافذة أعوادا من الذرة غير متساوية الطول ، كأنها زرعت على ارتفاع وانخفاض لكن ذلك كان يعنى أن الجهاد مثمر .

وجاءنى خاطر فى إحدى الليالى - وغراب ينعق على نخلة - أن عطيات مشغولة فى القاهرة بوداع بعض أحبابها مثلما أنا مشغول ، وإن كان بين الشغلين فارق . وطغت على هذه الومضة المزعجة طبيعتى المسالمة ثم استعذت بالله .

ولم تكن أمها سعيدة بنقلنا حتى قالت : إن مثل هذا الحادث لم تألفه الأسرة قط ، فقد قضى زوجها العمر كله فى ديوان الصحة لم ينتقل منه ، وأن البعد عن العين قد يسبب البعد عن القلب . وأن والد عطيات سيعمل جاهدا على نقلنا إلى القاهرة بواسطة بعض معارفه ..!!

ثم أخرجت ثديها الكبير المترهل وألقمته للرضيعة فى حجرها ، وأطرقت تنظر نحوها في وجوم . وكنا فى الصالة والأب جالس على الكنبة يدخن ويشرح النظام الجديد لمنح العلاوات ، وأمامه على الأرض شبشبه الملفق . والخادمة مريم تغسل عدسا فى مصفاة ، والراديو يكركر ، وإحدى البنات تصرخ من خربشة القطة .

وكنت قد أجرت قبل نقل أثاثي مسكنا قريبا من المدرسة . فى نفس الحارة التى تطل عليها الشبابيك الخلفية للوكاندة التى نزلت بها . وكان مكونا من حجرتين اثنتين ، بنيتا على الواسع ، يطل على البناء المنخفض ذى الطبقة الواحدة ، يعنى ورشة النجارة . وقد وقفت أنا وعطيات فى نافذة مسكننا فى القاهرة ، ونظرنا إلى كل شىء أمامنا نظرة أخيرة . وضحكت وفى عينها دمع حين أشرت بسبابتي إلى الفجوة المفتوحة فى سور المدفن ، وإلى الأشجار التى طالما سمعنا حفيفها ونحن راقدان .

والنقل من مكان إلى مكان يذكرنا بانقضاء العمر كما سبق أن قلت .

ولذلك فقد أحسسنا أن قطعة من الشباب قد جزت من عمرنا ، وأننا بدأنا فى استهلاك قطعة أخرى منه !!

وقلت لعطيات ، ونحن نهبط سلم البيت لآخر مرة : لاحظى الدرجة المكسورة .. احذرى أن تعثرى .. من الفيوم سنكتب لصاحب البيت نطالبه بإصلاح السلم !! وضحكنا .

وكان أملى كبيرا جدا ، بعد أن نزلنا المدينة الجديدة ، فى أن نبدأ حياة أكثر هدوءا وسعادة . غير أنى أقول : إنه لم يكن بينى وبينها حرب واضحة سافرة ، لكن جمال أفندى كان يرقد فى باطنى ، وأظنه

فى باطنها كذلك ، وكان يرقد بينى وبينها فى كثير من الليالى . وكنت أنأى بها ما استطعت عن موطن الخوف فى صمت . كمن ينحى رفيقه عن عثرات الطريق دون أن يشعر ، وهما سائران مسترسلين فى الحديث .

وبعد أن انقضت فترة اكتشاف الجديد فى حياة عطيات ، بدأت تشكو من الغربة ، ولم يكن هذا صريحا ، ولكنه كان ظاهرا فى انقباضها وشرودها وأفكارها السود ، لأننى حظرت عليها الاختلاط بالناس .

وأشعرتنى تصرفاتها بطول الوقت ، خصوصا فى الليل ، حتى صرنا إلى حالة لا نجد فيها ما نعمل . كنا فى كل ليلة نتعب من الكلام ومن استعادة ذكريات القاهرة ، خصوصا فى الأيام الأولى من العام الدراسى ، قبل تكدس الكراسات على مكتبى . وأخيرا ... كنا نلجأ إلى لعب الورق فنزاوله فى فتور وتثاؤب ، حتى إذا ما بدا لى أن أنام ، انهزمت أمامها فى غير تماسك ، لتنتهى اللعب فندخل إلى الفراش .

ثم شغلتنى شواغل المدرسين . وامتص وقتى بعض دروس جاد بها على حب الناظر لى ، كانت لأبناء بعض الأعيان هناك ، فدرت على ما أنعش اقتصادياتى ، حتى إذا ما عدت إلى البيت آخر الهزيع الأول من الليل ، التقطت القلم الأحمر وجلست أصحح وأصحح وأصحح .

ولم تكن عطيات حيالى كما كانت فى القاهرة . لم يعد ولعها بالقراءة فى درجته القديمة . كانت ملولا كثيرة الحركة ، قليلة النوم . تطل فى المساء وأنا مشغول بأعمالى على المنظر المواجه فترى سطح الورشة موحشا معفرا ، عليه طائفة من الزجاج المكسر ، وعلب السردين التى يلقى بها الجيران من النوافذ . ثم ظلمة تفصل بينها وبين النوافذ

المضيئة في الحارة الموازية . فتدخل وهي تقول : يا له من منظر ... أين هذا مما كنا نطل عليه في القاهرة ؟! ثم تأوى إلى الفراش .

وسألتها عن ذبولها المتواصل ، فزعمت أنه من الحمل . أما البكاء فعلته واضحة ... أليست هذه هي أول سفرة في حياتها . لم تألف بعدها عن أهلها قبل ذلك . لكن الذي شغلني واستأثر بأفكاري هو رغبتها عني .

كانت تعينني في القاهرة في كثير من الليالي ، وتنفخ في الرماد إن وجدت فيه جمرة ، أما هنا ، فقد كانت أشبه بشابة ترملت حديثا ، جمالها في كفة الميزان ، وحياتها متأرجحة بين مغريات مختلفة .

كنت أسهر مع الناظر المسن القوى الحازم الصابر الذي اتخذ مني خزانة يودع فيها أسراره ، وركنا هادئا يأوى إليه بمتاعبه . ورأيت شقاءه في بيته وانقسام أولاده إلى حزبين : حزب يناصر أمه ، وحزب يناصر أباه ، ورأيت كيد (دليلة) وصبر (أيوب) ، والرجل الذي لا يرتاح في البيت ولا في العمل ، فعرفت الله ، وسلمت بقضائه ، وقلت : إنني أحارب في جبهة واحدة فلأتحمل !!

ولعلي كنت أشعر بشيء من الشماتة حين أراها تذبل . إن المرأة المتمردة لا يفت في عضدها قدر أن تفقد من حسنها شيئا . كانت الطراوة والخصوبة تتراجع إلى الوراء في كثير من أجزاء جسمها ، وكان ذلك يحزنها ، فيصبح الحزن بابا للحزن مرة أخرى .

وفي الشهر الثامن من حملها ، نشب بيننا خلاف . كانت تريد أن تضع في القاهرة . لماذا ؟ ذلك طبيعي ، وإلا من هذه التي ستتولى خدمتها أيام النفاس ؟ قلت لها : إن زكية امرأة الفراش كفيلة بذلك ،

وهى امرأة نظيفة على الرغم من فقرها ، وأم خاضت مثل هذه المعارك ، وأنت تعرفينها .

فصرخت وشدت شعرها ، وأجهشت بالبكاء وارتمت على الأرض وحملقت مبهوتا ، والقلم فى يمينى ، فإذا بلونها يشحب وتدخل فى الغيبوبة .

وجلست أدلت أطرافها وأصب على وجهها ماء . وأفاقت ، فبكت حتى نامت .

ودب بيننا خصام كان حالكا مظلما ، لأننا اثنان لا ثالث معنا . وفى إحدى الليالى صالحتنى ، وهيأت لنا بعد صلحنا فترة هنية ، قالت لى فيها قبل أن تستغرق فى النوم :

ـ لا تكن عنيدا يا عبده ... فكر فى مصلحة المجموع ... افرض أن مرضا شديدا أصابنى أثناء الولادة أو بعدها ... ألا ترى أن القاهرة أخف نفقة وأضمن موقفا ؟

ـ هيه .

ـ لن أجبرك . أنا حريصة على ابنك أو بنتك فقط . أما أنا ففى ألف مصيبة . أليس من الممكن أن تحب البقرة العرجاء من أجل ضرعها الكبير ؟!

فوافقت . ولست أدرى من أى مكان دخل الضعف إلى نفسى التى بدأت تتماسك . من أجلها هى ، أم من أجل مخلوق جديد نحبه قبل أن نراه ، أم من أجل الراحة التى نتطلبها حتى فى غير مواطن الراحة ... فى السجون !!

وكدت أسحب القرار بعد أيام قلائل ، لأننى رأيت عليها تقدما صحيا ملحوظا ، وأخذت الطراوة ترجع إلى الأماكن التى كانت قد انسحبت منها ، وعادت تترقص وتتأود وتتوهج إلى حد معقول . فقلت فى نفسى :

أمرنا إلى الله !!

نعم أمرنا إلى الله . ومع السلامة . سلمى على من هناك .

وسار بها القطار وحدها ، وكانوا بانتظارها فى العاصمة . وألقت على ابتسامة وهى فى النافذة حسبتها زهرة . ووعدتها أننى سأخطف نفسى عن العمل لأزورها حتما .

ـ عطيات !!

ـ نعم !

ـ أنت تعرفين كل ما فى نفسى . هل تفهمين ؟!

ـ اطمئن !!

وأطرقت نحو الرصيف ، وكان إلى جوارنا أم تبكى وهى تودع بنتها المسافرة مع أطفالها . لعلها كانت فى زيارتها . فقلت : دموع الأمهات ... ولكنها أيضا ، دموع الحموات ... مع السلامة !!

وبعد أن غابت عنى أحسست بكآبة الوحدة . وأحسست فوق ذلك أننى مغبون ، وأحسست أحيانا أننى مغفل . وعندما كانت عينى تقع على بعض أدواتها فى البيت كنت أحس بالحنين . فما هذه النفس ؟!

وكانت إقامتها عند أمها مصدر طمأنينة وقلق . فكنت أرى حينا أن بيت الأهل بالنسبة لمثل عطيات موطن أمان ، وأعود حينا آخر فأراه موطن مخافة ، لأن أمها كانت باب غير محكم ولا متين ، يسمح لبعض الأشياء أن تتسرب من تحته !!

لكننى كنت أذود عن نفسي هذه الأفكار كما يذاد الذباب ، من أجل المستقبل . مستقبل طفل يجب أن نفرش له شيئا ناعما لا أن نبطن مهده بالشوك ، وعزمت على السفر إليهم دون أن يكونوا على علم . وكان الجو سيئا فى هذه الليلة : شتاء كثير الدموع ، قارس البرد ، ولكننى كنت مستعدا لأن أحمل أضعاف هذا من المتاعب .

وقالت لى حماتى وهى تفتح الباب : أنت عظيم !! فضحكت . مدحتنى هذه المرة بإخلاص خالص ، وكان سر عظمتى فى نفسها هو أننى وصلت فى الوقت المناسب ، فقد كانت زوجتى تعانى آلام الولادة . ودخلت عليها حجرة أمها فرأيت على وجهها أمارات المعركة، وضحكت ووجهها عابس ، فذكرت وجه أمى يوم كانت تغرينى بالزواج وعلى ملامحها اشمئزاز من الدواء المر .

ثم تركتها وخرجت ، وجلست أسمر أنا والوالد ، وكان أمامه مدفأة ، وبجانبه نصف عود من القصب ومدية ، والبيت أشبه بخلية النحل : حجرة فيها امرأة تلد وحولها المساعدات ، وحجرة فيها أولاد يذاكرون ويتجادلون ويصخبون ، وحجرة فيها صغار يتزاحمون على المراقد تند منهم بين لحظة ولحظة صرخة أو ضحكة أو تأوه أو غناء . والأب قابع فى الصالة على الكنبة ، فوقه معطف قديم ، وتحت رجليه المدفأة والشبشب الملفق ، يدخن ، ويتكلم عن الأطفال والأرزاق وذكرى ميلاد كل طفل .

ورقدت فى حجرة الصالون بغطاء خفيف على البساط القديم بين الكراسى المتداعية ، وقبل الفجر بقليل ، أيقظتنى يد حماتى :

ـ عبده ... مبروك ... الحمد لله على سلامتها ... وتتربى فى عزك .

ـ الحمد لله !!

ـ لها رزقان !!

فقلت ضاحكا وفى صوتى بقايا نوم :

ـ وللولد رزق واحد !!

ـ والله دائما فى عون أبيها !!

ثم غاب صوتها فى الصالة .

وقبل سفرى تركت نقودا لعطيات واجتهدت أن تكون كثيرة . لأننى ذكرت الدجاجة المسلوقة التى كانت عيون الصغار تحدق بها من كل صوب يوم وضعت حماتى طفلتها الأخيرة ، فأحسست على زوجتى خوفا . إنها ستأكل اللحم فى معسكر متقشف ... لكن ، ما الحيلة ؟!

وفى الفيوم عدت فانشغلت بما كنت فيه ، وكانت زكية تقوم بحاجاتى مرة أو مرتين كل أسبوع ، وناظر المدرسة يحتضننى بحنان ، وثقة آباء التلاميذ فى تزيد يوما بعد يوم ، وغيرة إخوانى تتزايد . كنت فى ذلك الوقت فى التاسعة والعشرين من عمرى ، ولكنى اكتسبت هيئة ابن الخامسة والثلاثين من كثرة المشاغل ، وسيما الهدوء والجد التى لبستها قسماتى .

وكتبت لها خطابا أقول فيه : إن ثلاثة أسابيع بعد الولادة كافية أن تجعل منها امرأة قادرة على السفر ، وإننى سأحضر لأصحبها . ولكنها ردت تقول : من أجل الصغيرة التى تلبس ملامحك شيئا فشيئا ، أرجو أن تمهلنى حتى الأربعين . وأنا أعلم أننى أسبب لك كثيرا من المتاعب ، لكن ... سامحنى !!

ولم تكن الطفلة صورة منى كما زعمت أمها . ولكنها كانت صورة من عطيات . العينان الخضراوان ، والشعر البنى ، والبشرة الرائقة . فقلت فى نفسى وأنا أقبلها : لا بأس . إنها لا تصلح شاهد إثبات ولا شاهد نفى . وهذا خير لنا ، وإن أصرت أمها على أنها تلبس ملامحى قليلا قليلا .

ثم عدنا إلى الفيوم ثلاثة أشخاص ، وزدنا رابعا حين استأجرنا صبية تقوم بخدمتنا . وفرضت الطفلة نفسها علينا ، فقد كانت نامية شهية يتفتح الحسن فى خديها كل يوم . وحتى أمها ظهرت وكأنها فى شكل جديد . أصبحت كإحدى بنات إيطاليا ، فجمعت بين الحرارة وبياض البشرة . وسرت فى الطريق الذى يمشى فيه كل والد ، فألغيت نفسى من حساب نفسى ، ونظرت للمستقبل من أجل غيرى ، خصوصا لأننى

توقعت أن ولدا ثانيا وثالثا وربما رابعا قد يأتي ، ما دام قانون الوراثة الذى دافعت عنه حماتى بحماسة قد بدأ يطبق نفسه على مملكتنا الصغيرة .

وكانت حياتى لا تخلو من اللذة ، وإن كنت أبذل جهدا . وبدت عطيات فى هذه الفترة أميل إلى الهدوء ، وأدنى إلى السكينة : كثيرة الطاعة ، قليلة الخلاف ، تلجأ إلى المسكنات الحلوة كلما أرادت شيئا .

وامتد عيشنا على هذا النحو بقية أيام السنة حتى انتهى العام الدراسى ، وأخذت المدارس تغلق أبوابها وتفرق التلاميذ والمدرسون .

وكان هذا أشبه بالفجوة فى حياتنا المنزلية ، وابتدأت عطيات تتقلب كما ينقلب جو أمشير ، وكان مظهر ذلك إعراضها عن القراءة ، وشكواها من الصداع ، وعدم استغراقها فى النوم ، وفقدها الشهية ، وكثرة الأحلام المزعجة عمن فى القاهرة . وقالت لى فى إحدى الأمسيات : أليس من الواجب أن نقضى هناك شهرا واحدا ؟ أنت الآن فى إجازة ، وليس عندك دروس ، فلماذا لا نغتنم هذه الفرصة الواقعة بين امتحانين ونذهب إلى بيت أبى ؟ فقلت لها : إن المنزل مزحوم بالسكان وليس لنا فيه مكان . على أن مزاجى الصحى يا عطيات لا يحبب إلى السفر ، فأنا أشعر كأننى مريض بالروماتيزم . رجلى اليمنى ثقيلة تتوقف فجأة كما يتوقف المحرك عند نفاد الزيت . فشهقت قائلة : ماذا تقول ؟.. إنها فرصة إذن ، تعرض نفسك على أحد المختصين فى القاهرة . الصحة يا عبده فوق كل اعتبار .

ووضعت رأسها على صدرى وجعلت تمسح على ثيابى ، وكنت أنا أتدبر الموقف ، فرأيته شبه معقول . خصوصا لأننى سأكون رفيقها هناك ، فأين تذهب إلا بإرادتى ؟!..

وحين أعلنت لها موافقتى على اقتراحها ، بعد منتصف الليل !! احتضنتنى بشدة . وبكت الصغيرة معلنة يقظتها ، فاستدارت إليها وأخذت تكيل لها القبلات على حين استغرقت أنا فى النوم .

*   *   *

كان كل شىء فى بيت صهرى فرحا بنا ، لأن يدى تدخلت فى النفقات فأمدتهم بالمعونة من أجل إقامتنا . وكنت أنام أنا وزوجتى فى غرفة الصالون على حشية تبسط لنا بالليل . وهناك ـ أى فى القاهرة ـ فكرت أن أسافر فأرى أسرتى ، بعد أن جاءنى خطاب حول إلى من الفيوم يستدعوننى فيه على عجل ، لأن مراسيم إتمام زواج زينب يجب أن تتم ..

وقضيت فى القرية أسبوعا كنت فيه كثير المشاغل ، فلم تخطر عطيات على بالى إلا فى صورة الأم ، وخطرت مرة أو مرتين لفترات قصيرة فى صورة الزوجة ، وكان ذلك ليلا . أما صورة الخائنة ، فقد تخلفت فى هذه الفترة .

وكان الفرح يغمر بيت صهرى ـ مرة أخرى ـ حين عدت إلى القاهرة . لأن خطابا حكوميا مسجلا كان قد وصل إلى البيت صباح وصولى ، وكان يحمل نبأ تعيين الابن الأكبر فى وظيفة كتابية فى وزارة المعارف . وهنأت رشدى وفرحت له . وهنأت صهرى وقلت

له : لقد آن الأوان لتحصد بعض ما زرعت يداك . فأجابنى وبقية السيجارة تكاد تحرق إصبعه :

- الحمد لله . أولاد الحلال فى طريقنا دائما .

- هل أعانك على ذلك بعض رؤسائك ؟

- لا والله يا بنى . الصغار أكثر مروءة . البركة فى جمال أفندى ، شاب ابن حلال ...

فأطرقت ولم أجب ، وجعلت أفكر فى هذا الرجل الذى يشبه صومعة القمح فى الريف ، المصنوعة من الطين ، المنصوبة كالصنم .

وعادت حماتى لى فبدت أشبه بالباب غير المحكم الذى يسمح لبعض الأشياء أن تتسرب من تحته . لكن لم يكن فى استطاعتى أن أواجهها بشيء ، فقد كانت كالكرباج شديد اللسع ، ذات إمارة عسكرية ، وجسم فيه بقية فتوة ، وبطن انشد وارتخى عدة مرات فاتسع وترهل . وشكل مخيف .

لكننى فى الليل حين أويت أنا وعطيات إلى فراشنا ، سألتها عن مدى تردد جمال على بيتهم ؟ فقالت :

- أظن أن هذا ليس من شأننا . هل سنشارك الناس فى بيوتهم ؟! والمهم أنه لم يدخل البيت وأنا فيه .

وكان فى كلامها قوة البراءة ، وحزم الثقة ، وحدة عدم المبالاة . فقلت لها ، وشيء من الهم يهبط على قلبى ، وكثير من الضعف يتسرب إلى نفسى :

- أليس هو الذى ساعد رشدى فى الحصول على وظيفة ؟!

- وهل هذا عار ؟!

ـ لا . ليس عارا . ولكنه شيء يلفت النظر .
ـ نم !!
ـ ولماذا تتكلمين بهذه الحدة ؟!
ـ أليس النوم خيرا من نشوب معركة ؟!
ـ هل تريدين أن تشعريني أنك فى حصن ؟
ـ بالعكس . أنا فى الفيوم أكثر جرأة عليك .
ـ وهل هذا شيء تفتخرين به ؟!
ـ لا تجعلني أرضع الصغيرة لبنا فاسدا من النكد !! نم !!
ـ نم ؟! وتعيدينها مرة أخرى ؟!
ـ ...
ـ ولا تردين ؟!
ـ ...

وخيم الصمت البارد . وجاءني مواء قطة كانت تجوس خلال المطبخ المقفر ، وبكاء طفل من إخوتها يزاحم آخر فى الفراش ، وشخير الطفلة المزكومة .

وأحسست بعد فترة انتظام أنفاس عطيات فى النوم ، فأخذت أستعيد الماضى ، وأخمن المستقبل . حتى إذا ما أصبح الصباح ، رأيتها لاوية بوزها ، مندمجة فى أسرتها ، متجاهلة وجودى كأننى غريب ، فأحسست أن المعركة لا تتكافأ فيها القوى ، فزاد حنقى . واختليت بها لحظة فقلت لها دون مقدمة :

ـ سنسافر بعد ثلاثة أيام . استعدى !!

فنظرت إلى بجانب عينيها ومصمصت ، وعادت فلوت بوزها فى احتقار . فخرجت من البيت وأنا أسب فردا من أفراده كلما هبطت درجة من درجات سلمه : بدأت بالأم « جان دارك » التى تقود المعركة ، وثنيت بالأب صومعة القمح ، وثلثت بعطيات ربيبة هذين ، ولم أحرم الباقين من شىء من اللعنة .

وحين هبطت الشارع عينت اتجاهى . وقررت أن أذهب إلى أحد الأطباء ليصف لى علاجا ثم أعود ، على أن أقضى اليومين الباقيين وأسافر ، فإن صاحبتنى كان بها ، وإن تخلفت ، دبرت وأنا فى الفيوم حلا لهذا الموقف بإرشاد الناظر (أيوب) الذى ابتلى بكيد (دليلة) . وقد كنت مثله .

ووصلت إلى محطة الترام وهو على وشك المسير ، فحثثت خطاى لأدركه ، وقبل أن أمسك بالمقبض الحديدى القريب من الرفرف ... توقفت إحساساتى ، وانقطعت ، تماما !!

ولما استرددت شعورى ، رأيتنى راقدا فى فراشى . فى بهو طويل فيه صفان من الأسرة . ومفهوم طبعا أننى فى مستشفى .

وبكيت بحرقة بعد أن تبينت ما حدث . فقد تجمدت ساقى وأنا أثب إلى الترام ، شلها عن الحركة فجأة ما عرفت فيما بعد أن اسمه (عرق النسا) ، فوقعت وأصبت بكسر فى ساقى اليسرى .

وكان مصباح كبير يلقى بضوئه على المرضى حين أحسست أننى أصبت ، وصحبت يقظتى آلام شديدة ، فسهرت أئن . وأطفأ الممرض النور فى الموقت المعين ، فغابت عن نظرى بقية الأسرة ببياضاتها الكالحة ، وأشباحها الصامتة ، وجعلت أستمع إلى دقات الساعة الكبرى ، وأتصور فى اللحظات التى يهادننى فيها الألم ، ما أحدثه

تخلفى عن العودة عند هؤلاء الناس ، فكنت أتصور عطيات دامعة ، وأتصورها غير مبالية ، وأتصور طفلة يتيمة ستنسب إلى — حتى ولو لم تكن ابنتى — لو أننى مت فى هذا الحادث .

والفيوم ... والناظر ... ووجوم التلاميذ حين يسمعون الخبر ... والفراش ... وزكية ... و... فسالت دموعى .

وفى الصباح رأيت صهرى داخلا وفى عينيه هلع وحزن حقيقى ، ومن ورائه زوجتى والطفلة على يديها . وجاشت نفسى من جديد ، وخنقنى البكاء ، لكن كبرياء عارضة شددت أزرى فاستردت دموعى ، وأبديت عدم المبالاة ، وإن بكى الرجل المسن من أجلى ، أما هى — فكانت تنظر إلى ثم تقلب بصرها فيمن حولى ، وفى عينيها معان مختلفة ، أوضحها أنها كانت تخاف ورطة ، ولما وصلت حماتى ، دخلت وكأنها زوبعة ، ولم تطل مواساتها حتى شرعت فى اللوم : « فى العجلة الندامة .. على أى شىء كنت مستعجلا حتى تفعل بنفسك ما فعلت ؟.. هكذا أنت دائما لا تعرف الصبر » . فقلت فى نفسى : إن كان هذا صحيحا ، وأنا لا أعرف الصبر ، فقد ألقيتم على فيه دروسا خالدة .

وعدت فصاحبت وحدتى وألمى ، وألبسوا ساقى جبيرة وجبسا . وولدت صداقة هادئة بينى وبين ريفى فى دور النقاهة كان يسهر على حاجتى ، ويخفف عنى بأسلوبه الساذج . وبعد عدة أيام كانت ساعات الراحة أضعاف ساعات الألم ، وصرت كثير النوم كأنما لأعوض ما فاتنى ، وحين كنت مستغرقا فيه ضحا يوم من الأيام المخصصة للزيارات أحسست بيد تهزنى فاستيقظت .

رأيت جمال افندى أمامى وجها لوجه ، جميلا وسيما كعهدنا به ، يحمل قميصه الأبيض الخفيف ثديان كأنهما فى طريقهما إلى النهود ،

وتفوح من شعره المرجل رائحة زيت معطر . وفتحت عينى فى ذهول ، فمال على وقبل جبينى ، وقال لى بحنان زائد :

- لا بأس عليك !!.. قدر ولطف .. سلامتك يا راجل .. الحمد لله .. لى أصدقاء كثير من أطباء هذا المستشفى وقد أوصيتهم بك ...!!

ولم أنبس ببنت شفة ، ولكننى تأوهت ، وكانت آهتى بسبب آلام كثيرة أخفها كسر ساقى . وكدت أسأله عن مصدر علمه بالحادثة ، لكنه لم يمهلنى بل أسرع ووضع جريدة يومية قريبة من نظرى ووضع أصبعه على الخبر ، فقلت له : أشكرك .. أجاملك فى المسرات يا جمال .. أهل مروءة طول عمرك !!

وكان صوتى صوتا فحسب خاليا من كل تعبير . وجلس جمال وطال مكثه ، وتكلم عن أشياء كثيرة : العمل فى الوزارة وعلاقته بكبار الموظفين ، وحبهم له ، وهوايته للتمثيل وسيطرتها على قلبه ، والدور المتوسط الذى سيأخذه فى مسرحية ستمثل على مسرح مشهور ، وأيام زمان ، والحب ، والزواج الذى يراه أسرا وسجنا وذلا وتغفيلا ..!! حتى رأيت شبح عطيات يرف أمام الشباك المطل على البهو ، والواقع أمام بصرى وأنا فى السرير ، وكانت تحمل الطفلة ، تمشى ووراءها أمها وأخوات وإخوة صغار وكبار ومتوسطون ومن كل عمر . فانعصر قلبى بين كفين ، وأحسست أن الأقدار تقسو على جدا ، ولم أستطع أن أفهم كيف صنعت لى هذه المأساة !! كان أول ما حاولت أن أراه هو كيف يلتقى نظر جمال أفندى بنظر زوجتى ، وكيف يتصافحان . ورأيت فى عيونهما حنانا خفيفا كعطر جو الربيع لا تحسه إلا إذا تشممته . وضغطة على الأكف وقت السلام . وخلا اللقاء مما

يدل على أنهم متباعدون ، أعنى أن تعبير الوجوه كان يفيد أنهم يتراءون فى أوقات متقاربة .

وكانت ضربات قلبى متلاحقة حين التفوا حول السرير ، وجلس من جلس ، ووقف من لم يجد له مكانا . ووضعت حماتى عند رأسى (سبتا) فيه أكل خيل إلى أنه سم . وتلقف جمال أفندى طفلتى من يدى أمها وجعل يقبلها بحرارة . وسمعت عويل نسوة عند باب المستشفى الخلفى ، فسألت نفسى قائلا : من ذلك السعيد الذى مات ؟! وثرثروا حولى ، وضحكوا كأنهم أفراد أسرة ، خصوصا عندما جاء رشدى صهرى الصغير وسلم على صاحب الفضل عليه ، وتمنيت أن أنفرد بزوجتى ، لكنهم استهلكوا الوقت كله ، حتى سمعنا تصفيق الممرضين وهم ينبهون الزوار إلى أن الوقت قد انتهى . فخرجت الزفة وعطيات بينها ، فلم تطلق نفسى أن تستمهلها دقيقة ما دامت لم تفطن إلى ذلك من تلقاء نفسها .

وظللت طول الليل أقلب أفكارى : كانت المصابيح مطفأة ، والأمراض ساهرة ، وممرضة تهمس مع زميلتها فى الطرقة ، حين وصلت إلى قرار فى موقفى كان معناه : أننى صيد غافل ، خلت طبيعتى حتى من حرص الطريدة ، ووقعت فى شبكة نصبها محتالون !!

وتنهدت بعد سماع الحكم ، وقنطرت رجلى السليمة وتركت المريضة مبسوطة فى جبسها . ووضعت ذراعى على وجهى وتملقت النوم ، فجعلت أعد : واحد اثنين ثلاثة أربعة ... وأسمع إلى الشخير العالى الآتى من الركن ، والضحكة الناعمة تأتى من البهو ، حتى خطفنى النوم .

خرجت من المستشفى بوجه حزين سمين أسمر ، كأنما لوحته الشمس ، وجسم زاد من الرقدة بضعة كيلوجرامات ، ورجل لا تقوى على حمل هذا الجسم ، فصرت - بعد أن استأنفت مشيى - أتوكأ على العصا .

ولم نسافر من فورنا إلى الفيوم حتى استرددت شيئا من عافيتى . وكانت عطيات فى هذه الفترة أشبه بامرأة ماشية بظهرها تعبر قنطرة ووجهها إلى الوراء وبدأ أبوها يعانى اعتلالا صحيا فزاد اعتكافه ، وقلت قيمته ، حتى خيل إلى أننى أرى بيتا بلا سقف ، ستجتاحه العواصف ، وتغرقه الأمطار .

واستجمعت قواى وطلبت منها أن نسافر . فأجابتنى بما أخلف ظنى ، وبلهجة لا تخلو من التأنيب قائلة : طبيعى !! ... سنسافر . وهل هذا طلب يحتاج إلى أن تعززه بالغضب ؟! ولوت بوزها ثم انصرفت عنى .

وودعت بيتهم عصر يوم من الأيام . وكنت أتخيل وأنا أهبط السلم ، أن حادثا معينا سيقع ، حادثا مؤسفا لا أدرى كنهه ، ولكننى أشم رائحته فى الأفق .

ثم وصلنا بالسلامة ...

والتقيت بالناظر فقبلني وعانقني وأسف لي وهنأني بالنجاة ، وأخبرني أن بعض أولياء الأمور سألوا عني في غيبتي ، وأنه ادخر لي خيرات كثيرة ، ثم أخذ يحدثني عن متاعب ولدت في بيته أثناء هذه الفترة ، سببها أن امرأته أصرت على سفرها إلى بعض المصايف هي وولد من أولادها ، وتركته هو في الفيوم . ثم همس يقول بلهجة ذليلة شديدة التهالك :

ـ آه يا أستاذ عبده !!... لو أنه لم يكن هناك أولاد !! آه .. لكان لي معها موقف آخر ... لكن ....!!

ودق بعصاه على الأرض بحركة عصبية ثم لعن أبا الدنيا . وأخرجته من جوه بأن حدثته عن الصحة . وأن ليلة واحدة يقضيها المرء ساهرا من مرض تعدل متاعب الحياة ، ولذاتها كذلك .

لكن حديث الناظر عن قدرة الزوج ، ما دام غير متقل بالأولاد ، جعلني أحس بهذه القدرة . فشعرت ببعض الميل إلى الانتقام من المرأة التي أتعبتني ، وعذبتني بالحب والكره ..

استيقظت من النوم عدة مرات في ليال متعاقبة ، فرأيتها غير نائمة ، كانت مؤرقة قليلة النوم ، تفتح الشباك في نصف الليل وتقف فيه مشرفة على سطح الورشة المواجه المقفر الحزين الصامت . والنوافذ تجاهها في الحارة الموازية مطفأة الأنوار ، مقفلة أو مفتوحة . كل الناس نائمون !!

فقلت لها عقب أن صحوت من نومي : عطيات ... ماذا أصابك ؟!

فقالت بلهجة لا تخلو من الخشونة :

ـ هل الزوجات ملزمات بتقديم كشف حساب عن ساعات النوم ، مثل كشف المصاريف ؟

فأجبتها بسخرية وأنا فى الفراش :

ـ لا ، مطلقا . لكننى أرثى لحالك !! مسكينة !!

ـ وهل هناك ما يوجب الرثاء ؟

ـ نعم . هذا الذى أنت فيه !! فقالت باختصار وقلة ذوق :

ـ نم !!

فذكرت قولها ذلك ونحن فى بيت أبيها ، وقولها إنها وهى فى الفيوم أشد جرأة على ، فأحسست بجوع شديد ... جوع إلى العراك ، لأول مرة فى حياتى الزوجية مع هذه التى أشقتنى بحبها وكرهها . فقلت وصدرى ضيق :

ـ تقولين (نم) أيتها الشريرة ؟!... لرجل يسألك عن سبب أرقك ؟!

وصررت على أسنانى كأنى أطحن ضرسا بضرس ، وزاد غليانى حتى خيل إلى أنها تسمع الأزيز ، لكنها لم تتكلم ولم تلتفت ولم تدخل من الشباك بل بقيت كما كانت .

وخيل إلى أن أمسك بقدميها وأرفعها إلى فوق وأتركها تهوى إلى الحارة ، أو أن أقوم فأرمى بالطفلة على سطح الورشة ، أمام عينيها ، وبين قطع الزجاج والصفيح وعلب السردين وأقول لها : إنها ابنتك أنت... أنت !!

لكننى ابتلعت آلامى . وقمت فى رفق وأشعلت النور . وجلست على الفراش ، فدخلت هى من الشباك ورقدت ساكتة . وتراجع القميص الذى تلبسه عن ساقيها حتى بدا جزء من فخذها ، فرأيت الانصقال

والنصاعة والنعومة ، وخيل إلى أنها ليست لى وحدى . وتذكرت أيام المستشفى ، ومرضى ، وزيارة غريمى ، وغربتى بين أهلها ، ورهبتى لأمها ، وهموما وآلاما ومصائب ومتاعب ، فغلى المرجل ...

دفعتها بظهر كفى فى جنبها وأنا أقول لها : تنامين والناس يقظون ، وتستيقظين والناس نائمون !... دائما إن شاء الله !!

فحبست آهة ، ونظرت بعين فيها فتور وغيظ ، ثم سألت جادة :

ـ هل جننت ؟!

ـ من زمان !!

ـ ....

وأولتنى ظهرها ، فبدت أردافها العالية وخصرها الواهن وكأنما غاظنى حسنها ، فعدت أناوش :

ـ ألا تريدين أن تعرفى تاريخ جنونى ؟!

ـ ....

ـ منذ عثرت أنت أول مرة فى درجة السلم المكسورة ، فوقعت فى الظلام ... وصعدت !! ثم نزلت !!... هذا هو التاريخ !

فأدارت إلى وجهها وظهرها لا يزال ناحيتى ، فرأيت عليه حمرة وربكة ، وظلت محملقة فى عينى المحملقتين ، فلا يطرف واحد منا حتى غضت بصرها هى ثم قالت بصوت أقل حماسة :

ـ كأن بيننا ثأرا ... هل تنتقم لشىء ؟!

فلم أرد . فانقلبت على ظهرها وقالت وهى تنظر إلى السقف :

ـ لم تبد هكذا فى يوم من الأيام . ثم ثارت فجأة وسألت :

- وهل أصبح من العار عندك الآن أنى وهبتك فى إحدى الليالى أعز ما تملكه فتاة ؟!

- لا ... ليس فى ذلك عار ، العار فى أنك أعطيته لأول رجل صادفك فى الطريق .

فشهقت فى جزع وعيناها شاخصتان :

- أول رجل ؟! فسألتها متشفيا :

- ثانى رجل ، إذن ؟!

فسكتت برهة كأنما لتوازن بين الشرين ، ثم تأوهت كأنما أحست مغصا مفاجئا ، ثم انخرطت فى البكاء .

وأحسست بدبيب الراحة يمشى فى صدرى ، وبأن هذه الكلمات كان يجب أن تقال لها من زمن ، منذ بدأت أشك فى سلوكها . ثم تخيلت كف أمها تهددنى وعينها الشريرة ترمى بالشرر . وكان بكاؤها يأتى إلى فى هجعة الليل ناعما حزينا ، يثير الشفقة ، فقمت فى صمت وأطفأت النور ورقدت حيث أرقد ، وتركتها تئن .

وأحسست بعد فترة أخرى ببرد الراحة يتزايد ويتزايد ، حتى أمسى وكأنه استرخاء ، ومن صميم هذا الاسترخاء الذى يشبه السكرة ، أخذ الحنان يتوالد ، فأمسكت نفسى وأنا أكاد أمد إليها كفى لأربت على خدها وأقول لها « معلهش » . ثم نبت فى نفسى حنق على نفسى لأننى تبينت أننى لا زلت أحب هذه الشريرة . فما هذه النفس ؟!

وأطبق علينا الصمت حين كفت عن البكاء ، لكن شهقاتها كانت تثور من حين إلى حين ، حتى استيقظت الطفلة ، فأعطتها ثديها ، لكنها بكت

كأنها تضامنت مع أمها ، وحاولت أن تهدئ مما بها ، ولكن عبثا ، فثارت عليها ودعت بأن تأخذها مصيبة ، لترتاح !!

كنت لا أزال يقظا ، فخيل إلى أن هذا القول موجه إلى ، فاعترضت :

ـ ليكون الحبل الذى يربطنا أقل مقاومة ، أيضا . أليس كذلك ؟!

فصرخت فى الظلام :

ـ لا تتكلم عن هذا من فضلك فإنه آخر ما يهمنى .

فنهضت من مرقدى كالملسوع ، وأشعلت النور ، وعدت إليها وبدنى ينتفض قائلا :

ـ اه ؟!.. ماذا تقولين ؟!

فلم تجب ، وحملقت بعينين خائفتين ، ونحت الطفلة بعيدا عنها لتتلقى وحدها ما عسى أن يقع من خطر . وظلت جامدة وصدرها العارى يعلو ويهبط كأنها على أبواب الاحتضار ، ولم أرها مدة عشرتنا خلال أربع سنوات تقريبا فى هذا الوضع قط . كان خوفا فاتنا ، وضعفنا يدعو إلى الصيانة ، لكننى عدت أقول وأنا ثائر :

ـ ماذا تقولين أيتها الغادرة ؟

وهجمت عليها فلطمتها لطمتين ، فالتهب خداها ، ثم قبضت على عنقها ، فقالت لى من فورها باستسلام متخاذل :

ـ عبده ... أتريد أن تقتلنى ؟!

ولمعت عيناها بالدموع كما تلمع المرآة المبلولة ، وخنقتها الشهقات ، فارتخت يدى . وارتميت على صدرها وصرت أبكى كما يبكى الطفل . كنت كأننى محتاج إلى أن تلفنى بذراعيها وتقول لى : (معلهش) .

وظللت هكذا فترة جاوبتنى فيها بمثل بكائى حتى فتر الغضب ، وانفتح باب الرضا شيئا ما ، فرأيتنى أبحث عن شفتيها . لم تتكلم ، ولم تعارض ، ولم تبادلنى قبلة بقبلة ، بل تركتنى أصنع ما أشاء فى أعضائها المرخاة . كأنها جثة . وكنت قبل ذلك لم أذق طعم الاستسلام لأنها لم تستسلم ، فزاد جوعى إليه حتى وصلت إلى آخر الشوط . ثم ... ثم أحسست بالندم . لقد هدمت برجلى ما بنيته بيدى !!

* * *

وفى الصباح وجدت نفسى طريا قابلا للتفاهم ، فشرعت أعاتبها ، فإذا بلؤم الطبع ينبع من أعماقها مرة أخرى . وجدتها معتزة بالمعركة التى كسبتها وأنا الذى ألقيت سلاحى ، ورفعت الراية البيضاء ، لكننى لمت نفسى . قالت لى وشىء من الحرص على المصلحة العامة يلون كلامها ، وإن كان الموقف تهديدا فى تهديد :

ـ هل تظن أنه من الممكن أن تسير الحال على هذا المنوال ؟ ليست هذه طريقة معيشة !!

ـ ماذا تقترحين ؟

ـ أن تعود إلى هدوئك القديم . فأخذت أردد وأنا مطرق :

ـ أن أعود إلى هدوئى القديم ... هيه ... هدوئى القديم ... هدوئى ... القديم !!

ـ نعم ، هذا هو اقتراحى .

فقلت بغتة ، كمن وثب على خصمه وهو غافل :

ـ عطيات ... أنا غير راض عن سلوكك أيام كنت فى القاهرة . لماذا تفتحين على باب الشك ؟!

فحملقت حتى بدت خضرة عينيها فى لون البسلة ، وأرخت فكها السفلى ، وقالت وكأنها أبرأ من على الأرض ، قالت وهى تشير إلى صدرها بسبابتها اليمنى :

ـ تشك فىّ أنا ؟!

ـ نعم .

ـ أفهم قصدك ، لكن ...

ـ لكن ...

ـ ألم يكن ممكنا أن أمنح هذا الذى تعنيه شيئا منحتك إياه ذات ليلة ؟!

قلت فى تفلسف :

ـ لو كان ممكنا لحدث . فسألت فى انهزام :

ـ وكيف ؟!

ـ لو توفرت الأسباب لوقع الحادث ، وبما أن الحادث لم يقع ، فمعنى ذلك أن الأسباب لم تتوفر ، ككل شىء فى الدنيا !!

فقالت فى استصغار لا يخلو من العجب :

ـ أوه ... ومن أين هبطت عليك كل هذه الفسلفة ؟!

فقلت فى مرارة :

ـ من أيامك ولياليك .

ـ ليس فى نيتك إذن أن تعود إلى المسالمة .

ـ إنك لم تجيبى إجابة مقنعة حتى الآن .

ـ ماذا تريد أن أقول ؟!

ـ قولى ما تشائين . فردت فى عناد كأنما لتثيرنى :

ـ أنا أحبه !!

فذهلت وسكت . وأخذت تنظر إلى مرتقبة ماذا أصنع ، وكنت أعلم أنها صادقة فيما تقول ، صادقة جدا ، وإن ألفت هذه الكلمة بطريقة امرأة تريد أن تثير رجلا ، وقد تركت باب الرجعة من خلفها مفتوحا . فأحسست أننى أتضاءل أشبه ما أكون برجل مقتنع بالانتحار ، ولكنه لا يقدر على الإقدام . وطال الصمت فترة قلت لها بعدها :

ـ هل تتكلمين جادة ؟

ووددت في قرارة نفسى أن تقول : لا ، متشبثا بالأوهام ، باكيا على قلب لم تبك صاحبته على ، أو لم تعد الآن مبقية على عشرتى .

فلما لم تجب عدت أسألها :

ـ عطيات !!... هل تتكلمين جادة ؟!

ـ ....

وكانت تعبث بأصابعها ، وتنظر إلى طلاء أظافرها الذى تآكل فى عدة بقع .

فعدت أقول :

ـ إن كنت شجاعة ، فأجيبى بنعم أو ... لا !!

فهمست دون أن تنظر إلى :

ـ أنت تعرف الجواب !!

وتركتنى وخرجت من الحجرة وذهبت إلى غرفة أخرى ، فأحسست أننى ضئيل ، صغير ، ضعيف ، مخلوق من مادة هلامية ، محتاج إلى قوقعة أرقد فيها وأمشى بها لتصون حياتى ، فتنهدت ، واغرورقت عيناى بالدموع .

وظللت جالسا حيث أنا ، ثم قمت ففتشت عنها فى الشقة ، فإذا بها منزوية تبكى ، وقد نجمت تحت عينيها نصف دائرة بنفسجية كانت ظاهرة فى وجهها الأبيض . وانقضى اليوم فى خصام .

ودخل الليل ، فوجد كلا منا فى مكانه حيث كان فى النهار . وتذكرت ما فعلته معها ليلة أمس ، بعد أن قسوت عليها ، وشفيت غليلى وأذللتها ، تذكرت أننى هدمت برجلى ما بنيته بيدى ، فصممت على الصمود . وكانت الطفلة تبكى فتلقمها الثدى فى صمت خشية أن تقول كلمة فأتدخل .

وتركت حجرة نومنا بعد ليلتين ، ونامت فى حجرة أخرى على الأرض المفروشة ، فعز على أن أقدم على عمل . وكنا نجلس على الأكل فنسمع مضغنا وأصوات الملاعق ، وكثيرا ما كنت آكل وحدى .

وفجأة تذكرت بعض ما قرأت ، وكنت سائرا وحدى مساء متوكئا على عصاى الغليظة ، متدافعا بجسمى الذى يتزايد وزنه باستمرار — وبعض الناس يزيدون على الهموم — تذكرت رجلا عظيما ... أشقته امرأة ، وجه الشبه بينى وبينه ضئيل ، لكننى ذكرته ، كما تذكر النمر إن رأيت القط . ذكرت (تولستوى) الفيلسوف الروسى الإنسانى المسالم ، وكيف شقى بالنساء . وذكرت قصة له قرأتها وأنا صغير ، وكان أحد أساتذتها مجنونا بها هى « أنا كارنينا » .

وطافت بذهنى خيالات القصة ، وأنا أنظر فى الأفق المظلم ، وعصاى تخلق على الأرض طرقات رتيبة . فرأيت حسناء بهرها النور ، وخدعها السراب ، حين أحبت ضابطا وسيما ، فباعت بسببه فى سوق الخسارة ولدا وشرفا وبيتا . فلما وصلت إلى آخر الشوط ، تبينت

أن النور ظلام ، وأن النهر سراب ، فأسلمت عنقها الذى كان يقلده عشيقها كل ليلة عقدا من القبلات ، أسلمته لعجلات القطار ، فصنعت نهاية دامية لليالى الهمس واللذة .

وكففت عن التفكير لأن رجلى أوجعتنى ، فاعتمدت على العصا جيدا حتى جلست على أحد الكراسى فى مقهى قريب . ثم عدت إلى البيت بعد ساعة .

وكان الخصام لا يزال يرفرف على أركانه ، كأنه راية سوداء على برج سجن . وسهرت أكتب خطابا إلى إحدى المكتبات فى القاهرة ، طلبت فيه أن ترسل قصة (أنا كارنينا) بعنوانى . وعندئذ وضعت القصة فى طريقها ، وكنت واثقا أنها فهمت قصدى ، لكنها قالت لى ذات صباح بلهجة صارمة : الطفلة مريضة ، جدا . يجب أن تذهب إلى طبيب . وانفتح باب الكلام . وتعرضت الطفلة للخطر ، فى الوقت الذى جاءنا فيه خطاب من أهلها يقولون فيه : إن والدها مريض ويرجو أن يراها .

وتحرج الموقف ، وبدت عطيات ذليلة كأنها فقدت كل أسلحتها ، وخيل إلى أنها ستموت هى ، وأن الطفلة وجدها سيشفيان . وأحسست مقدما بحرقة الحزن . فحزنت على نفسى !!

سألتها فى جد لا أثر للحنان فيه :

ـ ماذا تريدين أن نفعل ؟!

فقالت باستسلام وعلى خدها أثر دموع :

ـ ليس لى رأى . اصنع بنا ما تشاء !!

وكنت أخاف من استسلامها ، كان ضعفها قويا ، يجعل أقسى القلوب يحن ، فتنهدت ، وقمت أنظر من الشباك .

كانت هناك قطة تسحب ذيلها بخيلاء على سطح الورشة ، باحثة عما تأكل فى بقايا الطعام التى يقذف بها السكان القريبون . وكان الحر خانقا ، والوقت عصرا ، وأفكارى كالقناة الراكدة . لكننى شعرت أن الإنسانية تتطلب منى أن ألبى طلب الرجل الطيب . أليس من الجائز أن يموت دون أن أحقق له هذه الأمنية ؟! والطفلة !!... يراها طبيب مختص فى القاهرة . وابتسمت حين تذكرت حادثتى يوم سافرت لأتداوى فانكسرت رجلى . لكننى صرت مقتنعا بضرورة السفر . فهززت رأسى وأنا وحدى موافقا على الفكرة .

ثم استدرت إليها وقلت لها ، دون أن تتغير ملامح وجهى :

ـ مسافرون غدا !!

فأطرقت نحو الطفلة الراقدة فى حجرها ، وتنهدت وهى تنظر إلى وجهها .

* * *

تذكرت قرب انفضاض السوق ، أو انتهاء المولد ليلة دخلنا بيتهم فى هذه المرة . كانت علامات (التشطيب) ظاهرة على البيت ، فخيل إلى أن الرجل سيموت ، حتما ، فأسفتنى هذه النهاية .

وكان اهتمامى بصهرى أشد من اهتمام أولاده وزوجته به ، ولعل سبب ذلك أننا من طائفة واحدة ، طائفة الرجال المقهورين المغلوبين الراكبين فى سفينة ضالة ، سيرها خير من غرقها .

كان فى فراشه هزيلا ، مخنوق العينين ، يشكو دوخة وصداعا ، من ضغط الدم . وكان فى إجازة . ولما خلا بنا المكان شرع يشكو من المرض ، ثم عرج على الشكوى من رداءة الأكل ، مسلوق ، مسلوق ، مسلوق !! ثم بدأ يضج من حرمانه من التدخين ، وقال لى :

- هو زميلى فى الهموم ... أليس ذلك خيرا من النفخ على الفاضى يا عبده يا بنى ؟!

ثم تلفت كأنه يستوثق من خلو المكان ، قبل أن يستطرد :

- والظريف فى الموضوع أن الطبيب أمرنى ألا أنقاد لأية فكرة محزنة والأفكار كلها محزنة !!. لقد اكتشفت أخيرا أننى فى بيت غريب . وسكت ثم جلس فى فراشه وقال :

- سيجارة واحدة ، سأدخنها قبل أن تأتى أم رشدى إلى هنا .. سيجارة واحدة . هل فيها موت ؟!... ليكن !!

وأشعلها خائفا من شيئين . ثم أخذ يحكى :

- اكتشفت بعد أن رقدت أننى فى بيت غريب . أسرة مضحكة والله العظيم . عيشتنا خطف فى خطف . ورفع كفيه إلى السماء وابتهل : أرحنى بالموت . فقلت : لا سمح الله ، بعد العمر الطويل . فاستطرد :

- إذن أنت تدعو على بطول العذاب . وابتسم كأنه متهيئ لنكتة ، وقال : (من خطف يخطف ولو بعد حين) . هل تتصور أن رشدى ابنى الذى لم يمض عليه فى وظيفته إلا بضعة شهور ، يريد أن يتزوج . خطفته إحدى صاحبات أمه ، فهو لا يخرج من بيتهم ، ويريد أن يتزوج بنتهم وإلا انتحر . بيت عفاريت . أليس هذا مما يقرب المنية ؟

فذكرت كيف تزوجت عطيات ، وكيف تزوجت أختها من قبل . ومشروع زواج رشدى ، وحياة هذه الكتيبة إن قال لهم هذا الرجل يوما : سلام عليكم ، ومات !!

ودخلت أم رشدى ، حماتى ، بعد أن كان زوجها قد انتهى من الكلام ، فتشممت هواء الغرفة باحثة عن السجاير . فكذبناها .

أما الطفلة فقد قال لنا الطبيب : إن نزلة معوية حادة تهدد حياتها ، فشعرنا بالحسرة نحن الاثنين ، وأحسست حرقة الحزن مقدما إن ماتت وخيل إلى أن هذه الأم الحنون ، تود لطفلتها أن تموت ، ليكون الحبل الذى يربطها بى أقل متانة وأسهل قطعا .

ولفتنى إحساسات متضاربة ، لا أذكر أيها كان أقوى . غير أننا فى اليوم التالى ، رأينا أمارات الموت بادية على وجه الطفلة . وكانت حماتى فى حماسة من سيدخل معركة عادلة ، دفاعا عن حق ، وعلى ملامحها تشاؤم من يعرف المستقبل ، وعطيات لا تكف عن البكاء ، وصهرى الكبير ، يدعو ويحوقل . وأنا ... كما أنا ، لا أدرى حقيقة شعورى .

وفى المساء أحسست أن الجو خانق ، وأنه ينبغى لى أن أتنفس ، فخرجت إلى الخلاء ، وعدت فى وقت متأخر ، فاستقبلتنى حماتى عند الباب بوجه حزين مهزوم ، فعرفت الخبر . عرفت ، ما تعرفه أنت بسهولة ، أن الطفلة قد ماتت . فخفق قلبى خفقتين ، وتنهدت ، ودمعت عيناى ، لكن شعورى كان مبهما ، غامضا ، متداخل المعانى ، لا أكاد أتبين فيه شيئا معينا .

وكانت عطيات منكوشة الشعر تنظر إلى صورتها الصغرى المسجاة أمامها بحسرة وهلع ، وتلقى إلى بنظرات مستفسرة كأنها لا تصدق أنى حزين !!

نسيت أن أقول لك ....

نسيت أن أخبرك باسم الطفلة من أول الأمر . ماذا تظن أنهم سموها ؟ كان اسمها « جمالات » ولم أستطع يومئذ أن أعترض على الاسم الذى كان يذكرنى بغريمى ... لأنه كان اسم حماتى !!

- ١٦ -

وتركنا صهرى كما كان متشائما مريضا . وتركنا جثة الطفلة فى إحدى مقابر القاهرة . وعدنا إلى الفيوم ، يظللنا إعراض علله كل منا بحزن الآخر على الطفلة المفقودة .

ولما دخلنا البيت ، جأرت عطيات بالبكاء حين وقع بصرها على حاجات الطفلة وملابسها . وأحسست أنا أن الفجوة التى بينى وبينها أضحت أكثر اتساعا وظلمة . فكأنها كانت قبل ذلك مغارة تؤنسها شمعة ، صغيرة وحيدة ، ثم سقطت منطفئة !!

لكننى احترمت حزنها ...

وقد تسألنى عن مدى حزنى على الطفلة ، فأقول لك : إننى دفنت شكوكى فيها فى لحدها الصغير ، وبكيت عليها بإخلاص . ولولا أنها

كانت صورة من أمها ، لخيل إلى أننى رأيت ملامحى عليها واضحة قبيل وفاتها بساعات .

والذى لم يجعلنى أعيش فى ذكراها ، أنى كنت مشغولا بأمرين : بالخطة التى ستنتهجها معى عطيات ، وبالوقت الذى ستحمل فيه جنينا جديدا .

وكانت عطيات ساهمة حزينة ، لابسة السواد على التى لم تكمل العام الأول من عمرها القصير . وشغلت أنا بدروسى الخصوصية وبسهرى مع الناظر ، وحلا لى أن أتركها فريسة لآلامها .

كنا أشبه باثنين قضيا مأربا مشتركا وانتهى أمرهما لكن كلا منهما خجل أن يقول لصاحبه : « خلاص ، فلنفترق إذن » .

وتحسنت صحة أبيها شيئا ما ، وإن بقى مهددا بالخطر ، وعلمت بعد ذلك أن حماتى قد استسلمت لرغبة ابنها ، وأنها زوجته ممن خطفته .

لكن حادثا مهما شغلنى عن عطيات وآلامها ، وجعلنى أكثر عزلة عنها ، ذلك هو موت أمى .

لقد حقق الله لهذه السيدة معظم أمانيها لأنها زوجت بنتيها .

واشتد بها المرض عقب زواج زينب بستة شهور . وتلقيت برقية بوجوب حضورى فسافرت . ووجدت أختى اللتين انفصلتا عن شجرتنا واتصلتا بأشجار غيرنا ، قد جلستا معها فى الفراش . ولم تكلمنى لأنها كانت قد فقدت قدرتها على النطق ، وخيل إلى أنها لم تعد تسمع .

كانت (أمانة) تركها الموت عندنا مؤقتا ريثما يعود ليحملها .!!

وفى فترة من فترات الصحو ، فتحت عينيها ، وطرفت أهدابها كأنها عرفتنى ، ثم ... نامت ثانيا ووجهها إلى الشباك المطل على الحقول الذى أشارت منه يوما لتريني أرضا تأكل بذورها أولا بأول .

وأخذتها بين ذراعى على الرغم من أختى فى لحظاتها الأخيرة . وخيل إلى بعد أن قضى الأمر أننى ـ وأنا رجل ـ أشد جزعا عليها من الولايا . لقد كن فى أحضان تفيض عليهن الحنان ، أما أنا فقد عشت محروما .

ثم تركت البيت مظلما مقفرا مغلق النوافذ ، وأخذت مفتاحه فى جيبى وعدت إلى الفيوم .

وجدت عطيات مريضة العينين ، كأنها ظلت تبكى طول ستة أيام غيبتها عنها ، وابتدرتنى قائلة بعد أن دخلت :

ـ أما كان واجبا أن ترسل إلى فأسافر ؟!

ـ شكرا . ذلك لا يغير شيئا من الواقع !!

ـ المشاركة فى الواقع لا تعنى تغييره .

ـ صحيح .

ـ تعيش .

ـ عشت .

وبعد هذه العبارات التى رسمت قوانينها التقاليد ، عدنا كما كنا لمدة شهر ، أفقت بعده على أننى أعيش جنبا إلى جنب مع امرأة معرضة تماما ، تحتضنها فكرة أو تحتضن فكرة ، كما ترقد الدجاجة على بيضها مدة يأتى بعدها (الفقس) ...

وشاركتني ميولي ذات ليلة ، لكن بوجه جاد كأنها مخطوفة ، فذكرت الليالي القديمة ، ليالي كانت تتوهج حتى تدفئ الفراش ، وليالي كانت تبحث عن الجمرة في الرماد فتخلق منها نارا . فندمت ، وخيل إلي أنني أكلت على مائدة بلا دعوة ، فسلقتني عيون الآكلين حتى سممت طعامي .

وفي إحدى ليالي الخريف ، عدت باكرا من الخارج . ولما دخلت البيت أحسست أن كابوسا يرقد علي وأنا غير نائم . وأحسست انقباضا يخنق نفسي . فأطللت من النافذة على الحارة الساكتة ، فوقع بصري على باب الورشة الموصد بحزام الحديد ، وفانوس على المدخل ، ذابل ، شعلته كبقايا الزهرة توشك على السقوط ، وشيئين آخرين كانا أشبه بأفكاري : عربة اليد ذات العجلة الواحدة المضطجعة على جنبها في استسلام ، وقدر الغراء الكبير المهبب المتروك على الكانون المنطفئ ...

فتنهدت واستدرت داخلا ، فرأيتها تبكي ، قلت لها :

ـ لماذا تبكين ؟!

فنظرت بعينين متضعضعتين :

ـ ألم تعرف بعد لماذا أبكي ؟!

وشممت رائحة التحدي من كلامها وخيل إلي أنها تشد الحبل لينقطع ، فثار عنادي حتى قلت بلهجة لا تخلو من السخرية :

ـ ذكريات !!

ـ ذكريات ؟!

ـ طبعا ذكريات . وإلا فمم تبكين ؟!

قالت وهى تنظر لقصة (أنا كارنينا) الموضوعة على منضدة قريبة ، وكانت كأنها تناجى نفسها لا تخاطب غيرها :

- يظهر أن الاستمرار فى هذه الحياة أصبح محالا !!

وكانت لهجتها مشحونة بالتصميم ، فخفق قلبى ، وأحسست بالذعر يمشى فى أوصالى ، وخيل إلى أن البيت بدون وجودها ظلام وبرد تملؤه الأشباح . وغاظنى تناقضى ، فصرخت فى وجهها :

- ومن ذا الذى يمسكك فى هذا البيت أيتها الشريرة . أنا أعلم نواياك جيدا ، وأعرف حقيقة الخطة التى رسمتها . إذن فلماذا جئت معى إلى الفيوم ؟! فحملقت مذهولة ولم تنبس ببنت شفة . وكانت ترسل دموعا كبيرة فى صمت ، تنحدر الواحدة إثر الأخرى على خدها الشاحب ، كأنها لؤلؤة . ووجدت نفسى مدفوعا إلى الأمام ، نحوها ، كأنما لأحتضنها وأعتذر ، لكننى تماسكت . وفجأة ، وجدتها تشق ثوبها الأسود وهى تصرخ ثم انفجرت باكية .

وأسندت رأسها إلى المنضدة ، فبدا صدرها إلى ما تحت ثدييها من ثوبها المشقوق ، وكانت خصلات ثقيلة من شعرها البنى تغدو وتروح من اضطرابها فى البكاء . فقلت لها وأنا لا أزال متماسكا :

- أنت صادقة ، فاستمرار الحياة على هذا الوضع محال حقيقة !!

- ....

- وأنا صادق أيضا ، لأنك صاحبة خطة !!

- ....

- إذن تفضلى واطلبى منى ما تشاءين أجبك إليه حالا .

فقامت واقفة كأنها ستستل سيفا من غمده وتبارزنى به ، وقالت بين شهقتين :

- هل تعدنى ؟!

- أعدك !!

- دعنى أسافر إذن .

- لماذا ؟!

- حتى تتصلح الأمور .

- مستعد على شرط ألا تعودى إلى هنا مرة أخرى .

فلم ترد ، وتركتنى وخرجت ، فأبدلت ثوبها المشقوق ، وعادت إلى وعلى وجهها تصميم من عزم على بيع الصفقة . مغبونة مغبونة ، خاسرة خاسرة ، ليكن .

وأخذت تجمع ملابسها ، وأنزلت حقيبة من فوق الصوان وجعلت ترصها فيها . فقمت وأمسكت يدها برفق ، وكانت فى كفى رعدة ، وفى نفسى تخاذل .

لم ترفع إلى بصرها ، فقلت لها وأنا مهزوم :

- عطيات !! ألا تلتمسين لى عذرا ؟ أنا أحاول أن أحتفظ بك ، وأن أقفل النوافذ التى تطفئ شموعنا ، لكنك .... لا تساعديننى !!

- اتركنى !!

- هل أنت مولعة بإذلالى ؟ هل تتلذذين من ركوعى يا عطيات ؟!

- أنت لا تثق فى !!

فتمتمت لا أدرى ماذا أقول « آ... إن ... آ .. » وكانت نظراتها لامعة مترقبة ، فذكرت وأنا واقف تجاهها أشياء كثيرة ... كثيرة جدا ، أنت تذكرها . وأخيرا أجبت :

ـ أنا مستعد أن أمنحك هذه الثقة على شرط أن تفسرى لى أشياء معينة . كنت أتكلم بهدوء ، الذى يسرد مأساة فرغ من الإحساس بنارها .

لكن عطيات ثارت قائلة :

ـ أى أشياء ؟! أنت رفيقى فى الماضى وتعلم كل شىء ، فلماذا تحاسبنى الآن وأنت تحت سلطان الغيرة ؟ لا ... إن الاستمرار فى هذه الحياة أصبح محالا !!

وانكفأت على السرير تنتحب ، وتراجع ثوبها الأسود عن نصاعة ساقيها ، وخيل إلى أن رجلا ثانيا بانتظارها هناك متلهفا أن تصفى حسابها معى هنا ليعيشا تحت سقف واحد ، وظهر هذا الرجل فورا فى صورة جمال أفندى .

فدببت إليها واحتضنتها . كانت شكوكى مصدر قسوتى وحنانى ، ومحركا يدفعنى فى كل اتجاه ، وإلى الأمام وإلى الخلف ...

وهدأت ثائرتها شيئا ما فسألتها : هل نتعشى ؟!

ـ شبعنا !!

ـ آه ... هل ننام ؟!

ـ أحسن !!

ـ إن بات الشر مات !!

ـ .....

– هل أطفئ النور ؟!

– أطفئ !!

وساد الغرفة ظلام . وكانت نسمات الخريف تزقزق فى مصراع قريب ، وأنفاس عطيات ملتهبة سريعة ، فلما مددت إليها كفى ونحن راقدان أتحسس شعرها ، نحتها فى رفق . فسألتها كأنما لأعتذر بالنيابة عنها :

– إلى هذه الدرجة تريدين أن تتامى ؟! لننم إذن !!

* * *

وكانت آثار الهم بادية عليها وقت الصباح . وفى طريقى إلى المدرسة – حين واجهت نفسى بالحقائق – أننى أحتفظ بجثة ، وأن ذلك خطأ واضح وعمل غير طبيعى .

فثرت ، وكدت أرجع من الطريق لأذهب إلى البيت فأقول لها كلمة واحدة ثم أعود إلى المدرسة ، فإذا ما رجعت إلى البيت آخر النهار ، وجدته خاليا منها !!

لكننى لم أفعل . وكان ذلك لسبب واحد خيل إلى أنه وجيه . هو أنها تتمنى أن تسمع منى هذه الكلمة ، وأن الكرامة تحتم على أن أحتفظ بها حتى تأتى لحظة أشعر فيها أنها تريدنى ، وفى هذه اللحظة وحدها ... أنحيها عنى !

وخيل إلى أن الظروف لم تمنحنى هذه « اللحظة » فزاد تشبثى بها وزاد شرودها منى . وكانت لا تكف عن البكاء ولا عن طلب الخروج إلى الخلاء ، وكنت أسير إلى جوارها بين المشاهد الجميلة صامتا وهى صامتة وبخطوات جنائزية ننصت إلى وقعها معها !!

وخمنت أن عطيات تنتظر شيئا معينا ، سيكون فيه إنقاذها ولو مؤقتا . ومن الغريب أن تخميني أصاب . فقد تلقينا برقية من القاهرة تفيد أن أبا عطيات نكس ، وعاوده المرض ، وهو يلح في أن يراها .

وقلت لها بعيني : إنني أشك ... أشك فيما تدبرين . فلم تخفها نظراتي ، بل كانت في مظهر التي اتخذت قرارا نهائيا هاما .

كانت النهاية تزحف نحونا كما يزحف الليل ... ولا مفر من الليل .

وأردت أن أستسلم قليلا قليلا بدلا من أن أتداعى مرة واحدة فتغافلت ، وتركتها تصنع ما تشاء . وعلى ضوء ما سيقع سأتخذ خطة جديدة .

ورجعت من المدرسة فوجدت الشقة صامتة . فتحت بمفتاحي ، لأننا كنا قد استغنينا عن الخادمة بعد وفاة الطفلة ، ثم دخلت .

وكان أول ما عملت هو أن فتشت صوان الملابس فرأيت أنها قد استصحبت منها القدر المهم . قدرا يدل على الإقامة الطويلة . ولم تكن في حاجة إلى أن تهرب شيئا لأن أمها قادرة على أن تصادر ممتلكاتي الشخصية ، فهي من باب أولى ، قادرة على أخذ حقوق بنتها .

وعلى المنضدة وجدت ورقة مبسوطة في مكان يلفت النظر ، فتلقفتها بلهفة ، وقرأت ما فيها ببصر زائغ . كانت مكتوبة بالقلم الأحمر الذي أصحح به الكراسات ؛ هكذا بلا مقدمة ، وبدون أن تذكر اسمي ولا اسمها :

« قلت لك إن الحياة على هذه الحال أصبحت محالا ، لذلك قررت أن أبقى في القاهرة ، حتى يتأكد الطرفان معا أنهما يستطيعان أن يستأنفا الحياة بشكل أهدأ !! »

هكذا بالضبط كأنــه تقرير بوليسـى ، أو حكـم مـن إحدى المحـاكم . وبخط كخط (المحضرين) يقرأ بصعوبة . فزاغ بصرى ، وخيـل إلـى أننى أرى كل شىء فى الحجرة مقلوبا ، السرير ، الصوان ، والصـورة التذكاريـة التـى جمعت بينـى وبينها بعـد أن جمـع بينـى وبينهـا الحـظ العاثر . وتنهدت فـى حرقـة ، وتمنيت لـو أنهـا كـانت أمـامى ، لأعمـل عملا ... لا أعرف ماذا يكون !!

وأخذت الحاجات تسترد أوضاعها الأولى فلم يعد شـىء مقلوبـا ؛ إلا الصورة ، صورتى وصورتهـا فـى الإطـار المذهـب ، فإنهـا لـم تسـترد وضعهـا الأول ، لأنهـا كـانت مقلوبـة حقيقـــة !! قلبتهـا بيدهـا قبـل أن تخرج !!

وجعلت أشكو للناظر فى مساء هذا اليوم مـا أصـابنى مـن تصرفـات عطيات ، فدق بعصاه على الأرض وقال مبتسما فى اسـتصغار : وهـل هذه حوادث ؟.. أنت رجل طيب . تعال إلى بيتنا تعال ، لترى ما تفعلـه الحزبية .

وضحك حتى انقطعت أنفاسه ، وقال لى : اصبر يا أيوب .. السـفينة المشحونة (صبرا) لا يستطيع البحر أن يبلعها !!

ولم يكن فى مقدوره أن يقول أكثر مـن هـذا ، لأننـى اسـتحييت أن أصارحه بقصتى من أولهـا . فهـى قصـة شـاب مغفـل ، مغلـوب ، فـى ضعف مدمن الأفيون أو قوة المريض الناقه .

وتشابه وجه الأيام والليالى فلم أعد أفرق بين الأوقات ، كأننى كنـت فى ذلك الحين أستعرض كتيبة من الزنوج .

وأحرقت نفسى بالعمل ، لأنسى ، أو لأتدبر ماذا أعمل !!

لا أستطيع أن أنكر أن القلق كـان يعذبنـى . كنـت أنظـر فـى هجـوع الليل على السطوح الموحشة حتى تنهـار سـاقى ثـم أدخـل إلـى الحجـرة لألقى نظرة على ما فيها كأنى أفتش عن عطيـات . وإن كـان إحساسـى نحوها حبا ونقمة .

وطالما ذهبت إلى صورتنا التذكارية فقبلتها ، ثم تراجعت إلى الوراء وتأملتها على مهل ، كمن يتأمل نقشا ، ثم هززت رأسى وتسـاءلت عـن مغزى قلبها الصورة !!

واستبد بى القلق بعد عشرين يوما ، فكتبت خطابا .. إلـى مـن ؟!... إلى أبيها . أقرب الناس إلى . الرجل الذى ينتمـى إلـى نفس الفئـة التـى أنتمى إليها . المغلوب كأنه طائر بجناح واحـد . وكـان الخطـاب مؤثـرا جدا دمعت عيناى بعد ما أعدتـه علـى نفسـى ، وتصـورت أفـراد هـذه الأسرة وهم يقرءونه ، وأن الأب احتد وانفعل وبدا حازمـا علـى غيـر طبعه ، وأن الأم لطمت خديها من خيبة بنتها ، وأن ...

أما أهم عبارة كتبتها لهم ، وقضيت وقتا طويـلا فـى البحـث عنهـا ، فهى أننى قلت :

« إن عطيـات تعلـم أننـى أحبهـا ، ولكـن إذا كـانت هـى لا تريـد إلا فراقى فلتكن رفيقة بى . فقد رأيت إحدى الفلاحات تبكى بدموع سـاخنة

وهى تسلم حبل بقرتها التى باعتها فى السوق ، مع أن هذه الفلاحة كانت ستشترى بقرة أخرى فى نفس اليوم . لكنها ... عشرة !! » .

ولم يأتنى رد كأنما كان الخطاب بعنوان مقبرة الإمام الشافعى . وركبنى الشك فى أنه ضاع أو أنها تسلمته ومزقته ، وانقضى شهر خيل إلى فيه أننى شخصان لا شخص واحد ، أعنى أن هناك نسختين من الأستاذ عبده المدرس بمدرسة الفيوم الابتدائية ، البالغ من العمر ثلاثين عاما ، السمين ، ذى الرباط الأسود ، والرجل المريضة بعرق النساء ، الطيب المسالم الذى يحب حتى الذين يكرهونه .

أما النسخة الأولى منى فهى تلك التى تؤدى عملها فى الفيوم ، وأما النسخة الأخرى منى فهى فى القاهرة ، تمسك بها عطيات لتقلبها فى الأوحال طول النهار ، وكل يوم . لذلك وجدتنى فجأة أركب القطار المسافر إلى القاهرة عصر يوم خميس ، ولم أكن أستصحب معى خطة . كل ما كنت أعلمه هو أن الحياة بدونها شىء لا يطاق ، ولو مؤقتا .

كنت قويا ضعيفا كما قلت لك ، فى قوة المريض الناقه ، وفى ضعف مدمن الأفيون . وكنت مصمما على أن ألقاها فأسألها سؤالا واحدا ، رجوت بينى وبين نفسى أن يكون السؤال الأخير ، هو معنى الحياة الهادئة التى تقصدها !!

وكنا فى أخريات الخريف وأوائل الشتاء ، وفى سماء القاهرة غيوم قريبة من الأرض ، كأنها عين تتهيأ للبكاء . وتلاحقت أنفاسى حين وقفت على باب حارتهم كأننى جئت ماشيا من الفيوم ، وحين دققت باب شقتهم فتح لى ثلاثة أطفال ، صاح أكبرهم بصوت عال كصوت المبلغ

فى صفوف الصلاة : (سى عبده ... سى عبده) ودخل يجرى وإخوته يرددون النشيد ، وتبعته على الفور فلما انحرفت فى الصالة إلى حيث أستطيع أن أرى من بالداخل ، لم أجد إلا الأولاد والأب جالسا على الكنبة حيث تعود ، عليه معطف قديم ، وأمامه مدفأة فيها رماد ، وفوق رأسه قلنسوة من الكستور المخطط غطت أذنيه من أعلى .

وأحرج الرجل كأنه مدين مفلس ، ورحب بى ، وأجلسنى إلى جانبه ، وخيل إلى أن عينيه اللتين خنقهما الضغط العالى قد نديتا بالدمع . فخفف هذا المنظر المؤسف من بغضائى ، وجعلت أتخيل صورة كبرى لعلك تسخر منها حين تسمعها . تصورت شخصا ذهب ليقتل عدوه ، فلما دخل عليه ، ألفاه ساكنا نائما ملفوفا بلحاف ، فلما كشف غطاءه فى رفق ليتأكد منه ، ألفاه مخنوقا فى فراشه ، لأن عدوا آخر سبقه فأخذ عمره .

وجعلتنى هذه الصورة ــ حين رأيت منظر الرجل الضعيف المحرج ، المدرك لحقيقة الموقف ــ جعلتنى مضطرب الإحساس ، حانقا مشفقا .

وطرق الباب ، فذهب الأطفال الثلاثة ليفتحوه . وجاءنا صوت المبلغ وهو يقول « ماما يا بابا ... ماما يا بابا » وإخوته يرددون النشيد . فقال الرجل : لقد جاءوا معا لأنهم خرجوا معا . وكان طبعا يقصد زوجتى .

وسلمت حماتى بفتور رأيت فيه بوادر الحكم . وسألتها عن عطيات ، فقالت : تخلفت فى الطريق ... آتية حالا !!

ودخلت تخلع ثيابها ، ثم خرجت وقد اكتسى وجهها سحنة عسكرية . قالت وهى تجلس على كرسى من الخيزران :

ـ لعلك أدركت الآن أنك كنت تعاملها بقسوة . فى بلاد الغربة تهين بنات الناس ؟! لقد نفرت قلبها منك يا سيدى حتى يئست أنا من إصلاحه .

ـ كده ؟!

ـ كده !! منذ غضبها وأنا أحاول إعادة المياه إلى مجاريها ، لكن بلا فائدة . فقال الأب وهو يسحب سيجارة وحيدة من تحت وسادة الكنبة :

ـ لكن ... سيهديها اللّه بإذن اللّه . الصبر طيب .

وضيعنا ساعة فى جدال عقيم ، وجدتنى فيه ملوما ملامة الحمل الذى عكر الماء . وكان الأب ينظر إلى من طرف خفى ليقول لى بدون كلام : تحمل ... تحمل ... ليس هناك فائدة فى الكلام !! وكنت أسكت وأترك حماتى وحدها تكيل لى الملامة ، وتذكرنى بخساسة فعلتى القديمة مع بنتها ، لأننى خدعتها من أول خطوة !!

وطرق الباب ، فذهب الأطفال الثلاثة ليفتحوه ، وصاح صوت المبلغ قائلا : « عطيات يا ماما ... عطيات يا ماما » وإخوته يرددون النشيد ، فانهارت أعصابى ، وجف ريقى ، ودق قلبى . ورفعت أمها صوتها تناديني باسمى وهى تكلمنى لتفهم القادمة أننى هنا .

كان عليها ثوب غال اشتريته لها بمناسبة صلح أنهى خصاما ، وكان جميلا شهيا جعلها جميلة شهية . وحظيت بتقدم صحى ذكرنى بامرأة بلغت أوج الأنوثة فى أوج الشباب . وتعاقبت على وجهها ألوان شتى ، بعد أن وضعت كفها فى كفى فى صمت واجم ، ثم جلست . وكانت

مطرقة إلى الأرض ، وخصلتان من شعرها البنى محاذيتان لخديها كأنهما جناحان . وشبشب أبيها الملفق جنب حذائها الجديد اللامع .

وحملقت فيها كأننى أفحص طردا بريديا فيه شيء يخشى عليه من الكسر ، فى الوقت الذى جاءت فيه مريم تحمل صينية عليها شاى ساخن ، وأخذ كل منا كوبه وجعل يشرب . وكان الوقت عصرا ، وشعاع متقطع من أشعة الشمس الضعيفة يدخل إلى الصالة من زجاج الشباك . ورأيت وجهها مرة أخرى وهى تشرب الشاى فى تسرع ، فلسع الشاى شفتيها ، فندت منها حركة تدل على أنها حرقت . وكنت قد أدركت فى هذه الوهلة أن وجهها محفف جديدا ، اليوم ، وربما من ساعات فقط . وكانت آثار التحفيف قد لسعت وجهها الطرى فى عدة مواضع . وألفت من هذين الشيئين صورة واحدة تدل على عطيات ... على تلك التى تحرقها كل شهوة . فهى زوجة غاضبة تعبد طريقا آخر فى تستر ، وبسلوك غير شريف .

قلت فى خشونة ، بعد فترة صمت ظللت على المجموع :

ـ هل تريدين يا سيدتى أن تسافرى معى ؟

فهزت رأسها غير موافقة ، وعيناها إلى حذائها اللامع . قلت :

ـ لماذا ؟!

فنظرت إلى أمها لتجيب عنها ، وهمت حماتى بالكلام ، فقاطعتها محتدا :

ـ أريد أن أسمع كلامها من فمها .

وتهته الرجل الأب يقول : إننى مريض ... لا أتحمل هذه المصائب ... تكلمى أنت يا عطيات . فصمتت الأم . فقالت زوجتى :

ـ حاليا ... لا !! قلت :

ـ يعنى ربما تغيرين رأيك بعد قليل !!

فقالت بلهجة موئسة :

ـ ربما !!

فنظرت أنا إلى الأم لأسمع تأييد الحكم ، فتركتنى وقامت على حين وضع الأب يده على عاتقى وأمرنى بالصبر ... فترة جديدة ... حتى يغير الله أحوالا بأحوال !!

وقامت عطيات لتخلع ثياب الخروج ، فلحقت بأمها ، وسمعت صوتهما العالى يأتى إلى غير واضح ولا مفهوم ، كأنهما اختلفتا على شيء . ثم ... بكاء ... عاليا . وشهيقا متقطعا من فم زوجتى ...

وكان الأب مطرقا نحو الشيشب يدق كفا بكف ، دون أن يحدث صوتا . ومريم تدفع الأطفال بعنف إلى خارج المطبخ وهم يتصايحون . والباب يدق بشدة ولا يفتحه أحد . حتى إذا ما سمعه الأطفال ، جرى ثلاثة منهم ليفتحوه ، وجاءنا صوت المبلغ يصيح « رشدى أخويا ومراته ... رشدى أخويا ومراته » وردد إخوته هذا النشيد !!

ورأيتهما داخلين فى زينة وتبرج ، هو مدهون الشعر ، وهى تتلوى كأنها ثعبان . فذكرت صاحب الفضل عليه ، ذكرت جمال أفندى وأياديه البيضاء على هذه الأسرة ، وأحسست فورا بأننى غريب ، خصوصا بعد أن سلموا وعبروا إلى الداخل ، وجاءنى ضجيجهم وهم يهرجون ، وضحكات ناعمة تند من زوجة رشدى . وكان الأب الشيخ لا يزال ينظر إلى الأرض العارية ويدق كفا بكف ، دون أن يحدث صوتا . فتنهدت واستأذنت فى الخروج ، فاستمهلنى حتى ينادى حماتى ، لكننى

لم أتمهل . وقال لى مجاملا فى خوف وخجل : نم هنا .. إلى أين أنت ذاهب ؟ فقلت : شكرا .. شكرا لك يا سيدى .. فإنه ليس لى عندكم مكان !! ونزلت !!

* * *

وعندما وصلت إلى باب الحارة ، ألقيت نظرة على بيتهم . حدثتنى نفسى أننى لن أدخله بعد هذا ما حييت .

وصممت على أن أبيت فى الفيوم ، أو فى أى مكان خلاف القاهرة ، فأدركت قطار المساء بنفس لاهث . ووضعت رجلى على السلم وهو يتحرك ، فذكرت حادثة الترام ، لكن الله سلم .

وعدت للحياة التى كنت أحياها . غير أنى بعد قليل أدخلت عليها شيئا من التعديل الذى بمقتضاه أستطيع أن أنسى عطيات .

كنت ألقى دروسا ، وأصحح كراسات ، وأدخر نقودا ، وأشترى كتبا ، وأسهر وأقرأ . ودخلت مصيبتى إلى منطقة الاستسلام فخف فيها عنصر القلق .

ولم يكن هناك ما ينغصنى جدا إلا تزايد وزنى !!

وفى إحدى الليالى أحسست أن رجلى تؤلمنى ، فسرحت أفكارى التى حركها الألم حتى تذكرت يوم الحادثة ، والأسرة العجيبة التى صاهرتها ، وعطيات يوم دخلت على فى المستشفى والتقى بصرها ببصر جمال ، وقبلاته للطفلة ، والعيون التى تتكلم ...

وهبط على خاطر أعجبنى أول الأمر ، وكدت أهم بتنفيذه ، لكنه فتر فى نفسى شيئا فشيئا حتى برد تماما ، هو أن أكتب لجمال أفندى رسالة أقول فيها « تنح عن طريقى أيها الرجل ، فقد كانت الكأس فى يدك

فتخليت عنها بمحض اختيارك » . كدت أكتب هذا إليه ، لكننى تخيلته يقرأ ويسخر ، فعدلت .

وعاودنى الكابوس القديم ذات ليلة ، فصرخت وأنا وحدى فى الشقة . رأيت رجلا ينام فى فراشى منبطحا على بطنه ، ووجهه غير ظاهر . ثم تبينت حين فحصته أنه جمال افندى ، وأنه فى أحد جلابيبى !!

واستيقظت وأنا ألهث ، وأطللت على السطوح فى ظلمة الليل ، وكان الجو باردا ، والسماء تدمع قليلا . وحبات المطر تطقطق على الصفيح المرمى على السقف . والفانوس المعلق على الناصية يتلقى المطر فى صمت وبشعلة مخنوقة . والناس نائمون !!

وقررت حين شممت الهواء الذى برد صدرى أننى رجل لا يعيش . بل رجل يجرى باستمرار ، ويلهث باستمرار ، لكنه بمحض إرادته . فداخلتنى قوة شديدة ، قوة الذى يتلقى لطمات متوالية حتى تنبع الحمية من باطنه ، كما تنبع النار من حك عودين أو صك حجرين .

وكانت إجازة نصف السنة على الأبواب ، فقررت أن أسافر إلى القاهرة لأنقذ الأستاذ عبده المدرس بمدرسة الفيوم ، من اليد التى تمرغه فى الأوحال طول النهار ، وكل يوم !!

وكان الوقت عصرا حين دخلت المدينة . والجو دفيئا ينبئ بأن الناس لا يترددون فى السهر . وقصدت فورا إلى المركز الرئيسى الذى قد يمكننى من أن أرى أحدا ... إلى قهوة الكوكب . وجلست رابضا كأننى نمر ، ثم سألت خادم القهوة حين رآنى : هل يجيء بعضهم إلى

هنا ؟ فقال فى ابتسامة وتودد : هنا المركز الرئيسى يا عبده بك . كل من نزل القاهرة من إخوانك ورد علينا !! فسألته : وجمال أفندى ؟

فقال : أحيانا !! فطلبت شيشة وجلست أكركر !!

ولم تنقض لحظات حتى رأيت شبح حمودة داخلا من الباب ، وبدا لى كأنه كابى اللون ، طويل ، ناحل . وسلم فى خشوع وعدم مرح ، فجعلنى هذا أتأمله جيدا ، فإذا به يلبس رباط عنق أسود :

- خير يا حمودة ؟!

- ماتت يا عبده !!

- من هى يا أخى ؟!

- زوجتى !!

وفاضت عيناه بالدموع ، وفاضت عيناى بالدموع !! وكان كل منا يبكى معنى غير الذى يبكيه صاحبه . وأدرت وجهى ، وصفقت وطلبت له قهوة ، وقدمت إليه سيجارة ، فأخذ يدخن ويشرب ويقص :

- خمسة أولاد تركتهم هذه الوفية . الذى يؤلمنى هو طفل ابن عامين يسأل دائما عنها ، وقد فتش عنها مرة تحت السرير ..

تصور . تصور أننى أتمنى الآن لو أنها كانت خائنة !!

- كيف ؟!

- حين تصيبنا محنة فى إحدى مراحل حياتنا ، نتمنى لو أنها وقعت لنا فى مرحلة سابقة ...

- تمام . كنت أتمنى أن لو كانت أمى ماتت وأنا رضيع . وكان ذلك فى الفترة التى هددنى فيها الموت ، وجزعت مقدما من فقدها !!

- ليرحمها الله !! وهكذا أنا ، أتمنى لو أنها كانت خائنة ، إن الوفية تمتعنا بحياتها وتشقينا بوفاتها !!

- والخائنة بالعكس .

- بالعكس صحيح !!

وهز رأسه وشرد في الأفق ، فكدت أقول له : ألا خيبة الله عليك !!.. لماذا صرت هكذا ؟!

وخفف مصابه من مصابي ، ونحن أحيانا نتداوى بمصائب الناس !! قلت له بغتة وهو صامت :

- حمودة !! فنظر إلي ، فاستطردت :

- لماذا لا تسألني عن حالي ؟! فابتسم في يأس ثم قال : قل .

- قبل كل شيء أريد أن أخبرك أن الزميل القديم المدعو جمال أفندي رجم بيتي بالحجارة طوال هذه السنوات . وأن حياتي قد فسدت بفضل تدبيره ، وأنني صممت على أن أقطع الحبل الذي يربطني بعطيات .

- اسمع يا عبده . الصراحة مرة يا حبيبي ، وأنا أخشى أن أؤلمك .

- لا تخف ، فقد تغيرت !!

- حسن . اسمع إذن . أنت الذي قد وضعت نفسك في هذا الوضع ، دعك من الماضي البعيد ، ومن الطريقة التي تزوجت بها أنت ، لكن... لقد ظللت تحقن بالكافور قلبا متوقفا عن الحركة طول هذه المدة . كان يجب أن تفهم من بدري !!

فاصفر وجهي ، وطلبت قهوة . ثم قلت :

- أكمل !!

ـ جمـال افنـدى رجـل تعجبـه ملابـس الآخريـن ، ممثـل ، نصـاب ، جميل ، كذاب . له فى كل حى علاقة كالبحار الذى يترك فى كل مينـاء صديقة ... ويسافر !!

ـ وكان يطارد زوجتى .

ـ لا تستطيع أن تجزم ...

ونظر إلى وهو يقول هذا ، حتى كدت أفهم أنه يريد العكس ، ومط شفته واستطرد :

ـ أنت رجل طيب ، مسالم ، نعلم كلنا أنك لا تستطيع أن تكره أحدا . حتى ولو حاولت . لذلك كنت جديرا بالتى تفهمك ، لأنـك كـالبقرة التـى تحلب فى هدوء !!

فهززت رأسى ولم أرد . وظللنا صمت لم تعد نسمع فيه إلا خرخشة حبات النرد فى الصنـاديق الخشـبية ، ووقـع مسـتطيلات الدومينـا علـى الرخام ، وأحاديث متهالكة لرجلين يبدو أنهما فى المعاش . ثم قلت :

ـ سأتخلص .

ـ أنت حر !! هذا شأنك !!

ـ لكن ...

ـ ماذا ؟!

ـ جمال افندى هذا ... ألا يخاف من الله ؟!

فضحك وهو حزين ، وبدت أسنانه الصدئة مثـل أيـام زمـان ، ومـط عنقه إلى وقال لأول مرة : ألا خيبة الله عليك يا أستاذ ... (انتجر) !!

* * *

كانت الحماسة لا تزال تتدفق ، من باطنى ، لأن اللطمات شديدة . وبعد أن فارقت حمودة ، وجدت نفسى مدفوعا فى طريق معروف حتى وقفت أمام بيت فى حارة نظيفة ، ورفعت رأسى أتطلع إلى أعلى نحو النوافذ المضيئة . وفى هذه اللحظة رأيت رجلا يخرج من الباب ، فسألته فى تلعثم : فى أى دور يسكن جمال افندى من فضلك ؟

فأجاب وهو ينحرف إلى اليسار فى عجلة : آخر دور ... آه ، نعم ، آخر دور ، وهذا هو آخر دور !!

وفى آخر دور وجدت شقة وحيدة على السلم ، فطرقت الباب برفق ، وانتظرت فتناهت إلى سمعى ضحكات كان فى بعضها نعومة . ولم يفتح أحد .

دققت ثانيا بقوة ، فإذا بالباب ينفرج عن وجه جمال افندى ، وإذا بوجهه يتقلص فى عجب وخوف . لكنه استرد أعصابه سريعا وفتح بقوة وهو يقول : الأستاذ عبده ؟!... غريبة ... يا سلام !! تفضل ...

وقادنى إلى حجرة فى صدر المكان فيها كراسى من القش ، بعضها مخرق وبعضها سليم . والتراب على البلاط . والنوافذ مقفلة فى فوضى . وكان كل شىء فى ينبض حتى أهداب عينى . وخيل إلى أن جمال حين تركنى وخرج كان ليهيئ نفسه لخوض معركة . وسمعت همسا وخطوات نسائية تعبر الصالة ، وكان جمال ذكيا كعهدى به ، لأنه استوقف من كانت عنده أمام بصرى فى الصالة ، وكلمها ، وسلم عليها ليتيح لى فرصة أن أراها . وأقفل الباب وعاد ، وجر كرسيا وجلس ملاصقا لى ، ووضع يده على عاتقى كما فعل ليلة هنأنى بالزواج ، وسألنى عن الحال :

- وكيف الحال يا عبده ؟!

- زفت !!

فحدق فى بعينيه القويتين .

- لماذا ؟! هل أنت غير مرتاح فى الفيوم ؟... أتحب أن تتنقل إلى القاهرة فى الحركة القادمة ... لكن ... الفيوم جميلة وكثيرة الخيرات ... يخيل إلى أن صحتك تقدمت بسبب إقامتك فيها ...

وربت على وقال : سمنت !! وضحك .

قلت له بعد أن بلعت ريقى :

- جئت إليك من أجل شىء أهم من النقل .

فغاب لونه ، ولكنه قال متجلدا متكلفا المزاح :

- احذر طلبا واحدا ... احذر فقط أن تطلب فلوسا . وضحك .

فعدت أبلع ريقى . ودق بابه ، فقام يفتح ، وإذا برجل وامرأة يدخلان ، فقام وسلم وأشار إلى حجرة أخرى ، وعاد وعلى وجهه دلائل من يريد أن ينهى موقفا . قلت له كمن وثب فجأة إلى الماء الذى يخافه :

- أنت يا جمال أفسدت على حياتى الزوجية !!

فلم يرد . فغلى غضبى . وصرت أقذف فى وجهه بالكلمات ، وبصوت عال ، أجبره على أن يرد باب الحجرة التى كنا فيها ، قلت :

- أنت رجل لا يعجبك إلا ملابس الآخرين ، ممثل ، نصاب ، لك فى كل حى علاقة كالبحار الذى يترك فى كل ميناء صديقة .. ويسافر !!

وهذه الكلمات حفظتها من حمودة كما تعلم . ولما نفدت ذخيرتي توقفت قليلا حتى ألهم شيئا . وظل جمال ينظر إلى بعينين ثابتتين وفم متبسم ، يريد أن يثبت به براءة نفسه .

وظلل صمت قام خلاله وقدم إلى فنجالا من الشاي لا أدرى من صنعه لنا . فلم أمدد إليه يدى . لكن ثورة غضبي كانت قد فترت نوعا ، فأسفت عليها كمن فر من بين كفيه صيد . وأخذ جمال يقلب السكر بملعقة صغيرة كانت تحدث صوتا مزعجا في سمعي ، كأنه ضجيج آلة . وأحسست برغبة في البكاء ، فهممت أن أنصرف ، لكنه أجلسني بأن ضغط على كتفي بكفيه القويتين . وقال : أنت في بيتي . يجب أن أتحملك ، حتى ولو كنت صاحب حق ...

وقدم الشاي برفق ساحر ، فامتدت إليه يدى . وجرعت منه جرعة ، فتذكرت أشياء أهمها أن هذا الزميل لا بد أن يرثى لحالي لو أنني وصفته له . وأنه سيخلي طريقي ويدعني أمشي في سلام .

وبانكسار ومذلة نظرت إليه ، وهممت أن أقول شيئا . لكنني ثرت حين تذكرت أنني جئت إلى القاهرة لأنقذ سمعتي من يد امرأة . وثرت على عطيات حين أحسست أنها ستكون سببا في مذلتي لرجل أحبته !! وعدت فثرت على نفسي التي تحاول من جديد أن تحقن بالكافور قلبا متوقفا عن الحركة ، فوضعت الفنجال بعنف ، ولممت نفسي قائلا في تصميم :

ـ السلام عليكم . أشكرك ولا تؤاخذني . وانس كل ما قلته لك إن كنت رجلا كريما . وهززت كفي في وجهه ، ورأسي كأنني أهدد ، فجرى ورائي حتى أدركني على السلم ووقف يهمس في الظلام :

- اسمع يا عبده : الماضى البعيد جدا كلنا مسئولون عنه ، حتى أنت ! أفاهم أنت ؟ أما القريب فأنا أؤكد لك .....

ولم تعد بى طاقة أن أقف أو أسمع ، بعد أن حملنى نصيبى من المسئولية . آلمنى هذا الحق ، آلمنى جدا بعد أن سمعته فى فهم خصمى ، ولم يعد يعنينى من قوله شىء بعد أن طفحت كأسى . فتركته فى الظلام وهبطت أتعثر حتى وصلت إلى الشارع فتريثت لأعرف أين مكانى الآن من القاهرة ؟! كأننى ضللت الطريق !!

- ١٨ -

قضيت اليوم التالى نائما كأننى مريض . لم أفارق اللوكاندة ، ولم آكل إلا لقمة فى الصباح . وكأننى كنت خائفا أن أنزل الشارع فأقضى فى أمر عطيات بقضائى الأخير . على أننى كنت عازما على أن أقطع الحبل . وعلى الرغم من تصميمى ، فإننى كنت مترددا بين أمرين : أأذهب إليها وأقطعه فى وجهها وفى بيتهم وعلى مسمع من أهلها ، أم أفعل ذلك وأنا بعيد عنهم ؟!

ولم أصل إلى نتيجة حتى مال ميزان النهار ، واستردت الشمس بقايا الأشعة التى كانت فى غرفتى ، وأمسى المساء ، فلبست ثيابى وخرجت هائما على وجهى فى الطرقات ، إلى حيث لا أعلم .

وجدت نفسى فجأة فى الحارة التى كنت فيها أمس ، أمام بيت جمال افندى ، وكان الجو باردا والنوافذ كلها مقفلة ، ومصاص القصب ينتشر

فى كل ركن . وقطة سوداء لائذة بالجدار جنب المدخل ، فوقفت بجوارها .

ولأول مرة فى حياتى بدا لى أننى شرير . تصورت أن جمال افندى داخل أو خارج ، وكأننى فاجأته بطعنة من المدية التى فى جيبى وتركتها فى ظهره ثم فررت . ثم نفيت عن قلبى هذا الخاطر ، كما كنت قديما أنفى الخواطر السود التى تتعلق بعطيات . وفكرت فى أن أصعد إليه لأسأله عن حادث واحد ، قائلا له : ألست أنت الرجل الذى كان ماشيا مع عطيات يوم قابلك زميلنا فلان (الذى قابلنى على القهوة فى ميدان السيدة) وسلم عليك يومئذ ؟ أليست هى المرأة ذات العيون الخضر والشعر البنى التى كانت فى صحبتك ؟!

وصعدت السلم بهدوء كأننى أتلصص ، وكان خفقان قلبى أعلى من وقع أقدامى على الحجر ، فرأيت الشقة غارقة فى الظلام . لكن خيل إلى أننى أسمع بداخلها همسات ... همسات كأنها مناغاة ، وأحيانا رشفات كأنها قبلات ... وأحيانا غطيطا كأنه شخير نائم . ثم ساد السكون فترة طويلة ثبت فيها إلى رشدى ، فشددت شعرى لأننى خشيت أن أجن . وسمعت وقع خطوات سريعة صاعدة إلى أعلى ، فأيقنت أنها خطوات جمال ، وركبنى ارتباك ، فماذا أقول له ؟! لكنها توقفت عند الشقة التى تحتى وطرق صاحبها الباب ودخل ، وسمعت المصراع يقفل ، فهبطت السلم ودوار هائل يلف بى . حتى إذا وصلت إلى الباب الخارجى ، سمعت القطة اللائذة بالجدار تموء فى سكون الليل كأنها تسأل عما صنعت ؟!

وفى الصباح التالى ذهبت إلى مكتب المأذون ، وقضيت الأمر . وتنفست الصعداء حين هوت سكين الفراق على هذا الحبل الذى رث وتلوث وانقطع ولفق فى مواضع كثيرة . لكن تنفسى كان مثل تنفس من بترت له يد ، أو قطعت له ساق !!

وسافرت إلى الفيوم من فورى ، كأننى ارتكبت جريمة فى القاهرة .

ولما دخلت المسكن أحسست أن الجرح يؤلمنى . واستعبدنى خاطر جبار ، هو أن عطيات إن كانت ظلمتنى طول عشرتنا المنقضية ، فقد ظلمتها أنا فى اللحظات الأخيرة . كان ينبغى أن أذهب إليها قبل أن أقدم على ما فعلت ، فمن الجائز أن تكون قد غيرت رأيها . وعدت فاعترضت على نفسى ، لكن أليس هذا هو ما كنت أتطلبه ؟ ألم أكن أرجو أن أدفعها عنى بكل قوتى فى اللحظة التى يثبت فيها تمسكها بى ؟! غير أن كل شىء فى المسكن كان يحاربنى . وأبكتنى الذكريات الحلوة والذكريات المرة على السواء ، ورأيت المهد الصغير الذى كان مهيأ للطفلة التى ماتت منزويا فى أحد الأركان كأنه لحد خرب فخيل إلى أن قنبلة قد سقطت على عشى فنسفته ؟!

ووقع بصرى على الصورة المزدوجة ذات الإطار المذهب ، تلك التى كانت يد عطيات قد قلبتها قبل سفرها ـــ فذهبت إليها وقلبتها من جديد . وأخذت وأنا أنظر إليها أجمع شتات الحوادث المثيرة والأفعال الكريهة التى وقعت منها ، لأساعد القلب على أن يلفظها نهائيا ، فأستريح !!

وكنت أريد أن أغير المكان لكننى انتظرت حتى يحضر بعض أهلها فيأخذ حاجاتها . وفرح بى الناظر ، واحتضننى وقبلنى فى جبينى ،

مطريا شجاعتى ، وفرط إقدامى ، وثورتى على الذل . ولو أنه دخل إلى صميم قلبى ، لعلم أن كثيرا من الناس يودون أن يكرهوا ولكنهم لا يفلحون ، وكثيرا منهم يودون أن يحبوا ولكنهم لا يستطيعون .

* * *

وكانت آخر نظرة ألقيتها على أمها الشريرة وابنها رشدى ، حين كانا يهبطان السلم بعد أن أخذا الأثاث . وكانا يعملان فى صمت كأنهما يخيطان كفنا ، وأنا جالس فى الصالة على كرسى لا يكاد يحملنى ألقى إليهم بنظرات لا معنى لها . ولم يثر بينى وبينهم خلاف ، لأنى تركتهم يأخذون ما يشاءون .

ثم عدت إلى الحجرة التى كنت فيها فى اللوكاندة القريبة ، حيث أنظر على سطح الورشة ، وأرى من النافذة شعلة الفانوس تبصبص عند ناصية الحارة .

ودخل مصابى فى منطقة التسليم مرة أخرى ، فلم يعد يشوبه قلق كثير . وذكرت الطفلة (جمالات) الصغيرة التى لم تعجبها الرحلة ، فتخلفت عنها . ذكرتها فوددت لو أننى قبلت فمها الذى كان لا يكاد يسع حلمة الثدى ، لأنها خدمتنى بموتها فأراحتنى من المتاعب . ولنفرض أنها خدمت عطيات أيضا ، لكن ذلك لا يعكر على لذة الراحة .

واستغرقنى عملى أيما استغراق ، ووجدت نفسى مريضا بمرض جديد ، هو ادخار المال . الادخار الدائم وبشكل كان يطغى على ضروراتى . فكنت ترانى رجلا بدينا غير مهذب الملابس . بنطلونه مفتوح ، وسترته لا تكاد تلتقى أزرارها على كرشه المدور والذقن غير

محلوق فى كثير من الأوقات ، ورباط العنق أسود لامع كأنه جلد ، وعصا غليظة فى يدى أتوكأ عليها كلما وجعتنى رجلى .

وكان يخيل إلى فى كثير من الليالى أنها آلت إلى أحضان الرجل الذى أحبته ، وأعلنت فورا افتتاح الطريق الذى عبدته ، وأن أباها الضعيف المهزوم سلم بالأمر الواقع ، وأن أمها هزت كتفها غير مبالية : (كلهم رجال) . وأما رشدى فقد فرح بصهره الجديد . وأما المجتمع فإنه لا ذاكرة له : يعيش فى الحاضر ، ويقسم الماضى إلى قسمين ، ينسى أحدهما ويزيف الآخر ثم يسميه : « التاريخ » !!

وفى ليالٍ أخرى كنت أحس بشىء يقرب أن يكون حنينا ، فأعود فأسأل : هلا أزال أحبها ؟! فلا يأتينى جواب مريح ، لأنه ليس بين الحب والكره حدود واضحة ، ولا خطوط بارزة ... وقديما ـ أيام كانت بين أحضانى ـ كان الهزيع الأول من الليل يشهد ما يفعله الكارهون ، ثم لا يلبث الهزيع الأخير من الليل أن يشهد ما يفعله المحبون !!

ولم أعد أسمع عن القاهرة شيئا فى الأشهر الأخيرة . حتى إذا ما دخل الصيف ، وأقفلت المدارس أبوابها ، وبدأ الغبار يكسو النوافذ والأدراج ، وجدت فى نفسى ميلا للسفر .

ووقف بى القطار فى محطة العاصمة ، فأحسست بمعالمها تنادينى . كنت أكرهها ، وكنت أحب أن أراها . لكننى لم أسمع إلى صوتها ، وواصلت سفرى نحو الشمال . نحو القرية !!

وفى الحجرة التى كنت أجتمع فيها أنا وأسرة فرق الدهر بين أفرادها بأساليب مختلفة ، قضيت إجازة الصيف أو معظمها . وكانت ذكريات هادئة غير شريرة تقضى معى شطرا من النهار وجزءا من الليل ،

وكثيرا ما كنت أنظر من النافذة المطلة على الأرض المملحة ، فأستعيد بعض ما فات !!

وفى الخريف التالى جربت طعم الوفاء ، وذرفت دمعة حب لذيذة ، لأن حركة التنقلات التى ظهرت زحزحتنى من الفيوم إلى مدرسة من مدارس البنات فى الوجه البحرى ، وفى مدينة غير صغيرة اسمها كفر الزيات فأدركت أن المقادير تجرح بيد ، وتضمد باليد الأخرى . لأن البعد عن مسرح الحادثة من أولى دعائم النسيان .

ولست أنسى وداع الناظر ولا شهيقه بالبكاء . وقد أثر فى نفسى جلاله الباكى ، كأنه جلال علم منكس !!

وألقيت نظرة أخيرة من نافذة غرفتى على الحارة ، والفانوس ، وورشة النجارة ، والسطوح ، وعلب الصفيح ، وقطع الزجاج وهناك على بعد أمتار كانت الشقة التى سكناها . لعل فيها الآن ناسا سعداء ، نهارهم جد ، ومساؤهم نجوى ، وليلهم أحلام !!

ثم رحلت ... ورأيت مبنى المحطة من خلال دموعى يتباعد ويتراجع بالسرعة التى يمشى بها القطار ، وبالسرعة التى يمشى بها الماضى ... كذلك . فلما لم يبق منه إلا الأثر البادى على الأفق ، رأيت كأن رجلا ينفض كفيه وملابسه ، ويمسح وجهه وشعره ... بعد أن وارى ميتا . فدعوت له بالرحمة !!

* * *

وأثرت بعد أن نزلت المدينة الجديدة أن أرمم حياتى .

كانت كأنها جدران متداعية ، فسندتها بالخشب .

أول شيء عملته هو أنني أجرت مسكنا تحريت فيه أن يكون جميلا على قدر ما أستطيع . ثم اشتريت له أثاثا جديدا ، بعد ما تخلصت من القديم ، وأنا في الفيوم ، فبعت ما يستحق البيع ، ووهبت ما لا يستحق لامرأة خدمتني ، وبكت على عثراتي في صمت ... هي زكية زوجة الفراش .

كانت نوافذه قبلية ترى محطة سكة الحديد على قرب . وترى على بعد فضاء وحقولا ، وعلى خط الأفق تماما ترى سطرا من الشجر كأنه الحد الفاصل بين المعلوم والمجهول .

وأعجبتني المدينة ، خصوصا في المنطقة الواقعة على النيل . وخيل إلى أني سألقي بهمومي ذات ليلة في الماء ، وأنا واقف هناك على الكوبري ذي الدعائم الحديدية الضخمة .

أما المدرسة ، فقد ذكرتني ببدء قصتي في مدارس النصر ، حين أخذ القضاء ينسج شريط علاقتي بعطيات ، لكن حداثة سن التلميذات ، وارتفاع المستوى الخلقي بين المدرسين والمدرسات ، والجد الصارم الذي كانت تتسم به الناظرة ـ جعل الأمور تجري في جدول هادئ . ولم تعد العلاقات بين الجنسين في المدرسة أن تكون صداقة مشبعة بالاتزان .

ولم يتخل عني حظي في الناحية الاجتماعية ، فقد صفا لي كما صفا في الفيوم . وفورا نلت احترام الناظرة وشهدت باجتهادي وإخلاصي . وكنت مخلصا حقا . كان في روحي طاقة من الحرارة يجب أن تشع ، ففتحت لها منافذ من العمل . ومن هذه المنافذ دخلت إلى ثقة الناس . ومنها أيضا دخل إلي المال . وزاد إيرادي ، ولم يكن لي نفقات ، بل

كنت على العكس أميل إلى التقتير . كنت أحس كأن شبحا يتهددنى فى حياتى لعله ظلال لما مضى من عطيات التى لم تدعنى أستقر يوما فادخرت بجنون .

وبدأت أعبر الثلاثين . وبدأ شيب باكر يضىء ظلمة شعرى . وخيل إلى أننى أحيا بلا هدف ، خصوصا بعد أن أخذ الطنين الذى ملأ أذنى من وقع الحوادث يخف كلما مرت الأيام .

غير أن إحساسا داخليا صرفا كان يخامرنى ، أوحى إلى بأن قصتى لم تنته بعد . فابتسمت ساخرا شاكا . ثم عدت فناقشته فى هدوء فى الهزيع الأخير من الليل ، فى ليلة صيف ، وأنا جالس إلى النافذة ، ومبنى المحطة واقع أمام بصرى ، بينى وبينه الشارع المتآكل الأسفلت ، والسور الحديدى المرتفع ، وعدة أكشاك .

وكان مصباح كبير معلقا على سارية ، يلقى ضوءه على القضبان فتلمع ، وقاطرة فى طريقها إلى المخزن تزفر فى رفق ، والرصيف مقفر ليس عليه مسافرون ، والفضاء البعيد مظلم ليس فيه إلا النجوم .

سألت نفسى : لماذا يوحى إلى أن قصتى لم تنته ؟! هل بقى من قصة عطيات فصل أخير ، أم أن قصة امرأة أخرى ستبتدئ .

ونظرت إلى نجم يتلمظ وقلت فى نفسى : « شبعنا من النساء » ! لكن وجها أسمر مخسوفا ، وعودا ضئيلا نحيفا ، وعينين واسعتين ، وفما يبتسم فى تودد ومسالمة ، فرض نفسه على كل هذه المناظر ، فاستبعدت أن يكون ذلك صحيحا .

وفى إجازة نصف السنة التالى ، أى بعد انقضاء عام كامل على الحبل المقطوع بينى وبين عطيات ، سافرت إلى القاهرة .

ومررت على قهوة الكوكب بدون إرادة ، كانت هناك يد قوية تدفعنى ، وهناك أيضا يد قوية تمنعنى ، لكن رغبتى كانت مع التى تدفع . وجلست ، وجاء وجه جديد لخادم لا يعرفنى ، فلم أسأله عن أحد . كان الزمن بصدد سحب ذيوله على حوادثنا . وفجأة لاح شبح حمودة ، طويلا نحيفا أنيقا مرحا ، ولم يكن فى عنقه الرباط الأسود ، فأدركت أن القضاء آسى جروحه ، وأنه برئ من مصابه بسرعة ، شأن النفوس المرحة المتفائلة التى تمسح دمعتها ثم ترسل ضحكتها ، وقال لى كالذى فوجئ :

ـ أوه ... أهذا أنت ؟! ألا خيبة الله عليك ... ألا تزال حيا ترزق ؟!

وعانقنى ، وقبلنى ، وأطرى حسن حظى إذ نقلت إلى كفر الزيات . قلت له :

ـ كيف حالك أنت يا حمودة ؟

ـ الحمد لله ... تزوجنا .

ـ يخرب بيتك !!

ـ لا والله . بالعكس . كان سقفه سيخر علينا من فوقنا ، فرفعناه على عمود . ها . ها . ها .

ـ عمود ؟!

ـ عمود من الرخام الناعم الأبيض . على امرأة !!

ـ شجاع .

ـ ماذا أعمل يا عبده ؟ خمسة أولاد !!

ـ بل هذه هى المشكلة .

- قد تكون قصة غيرك هى الفصل الأول من قصتك وأنت لا تشعر .

(فخفق قلبى ، وذكرت كل شىء) وشرب ماء واستطرد :

- حين مات عديلى ولم يترك إلا زوجته ...

ففهمت كل شىء . فهمت أن الخالة أصبحت زوجة أب . زواج سياسى . من أجل الأولاد . وأن حمودة سعيد بها . هناك ناس يدورون مع الكواكب السعيدة ، وناس آخرون يعلق كوكب النحس بين عينيهم ... ارحمنا يا رب !!

واستطرد حمودة يحكى ، ويحكى ، ويضحك ، ويشرب ، ويدخن حتى انتهى من الكلام فوضع رجلا على رجل ، فبدت ساقاه طويلتين جدا ، وسألنى عن حالى . قلت :

- لا جديد .

- ولا قديم ؟!

- القديم أنت أدرى الناس به . فمال يهمس وعلامات الارتياح بادية على وجهه الطيب :

- جمال أفندى . أبحر !! ها . ها . ها .

- أبحر !!

- إلى الإسكندرية مرة أخرى ، ألغى ندبه ، ويظهر أن هذا كان برغبته ... علاقات قديمة يريد أن يفر منها يا افندم . وكان آخر دور مثله قبل سفره فى مسرحية أقامتها فرقة من الهواة ، هو المنافق ، والله العظيم أنا لا أكذب !! ثم سكت ونظر بخبث ، ولم يتكلم كأنه ينتظر منى سؤالا . فلم أسأل ، وجعلت أدق برجلى على بلاط القهوة ،

وأستمع إلى أغنية ذائبة من الراديو كانت تصف الحب ... الحب ... الحب !! ورجلى تتابع النغمات .

لكنى لم أصبر كثيرا ، فسألت :

ـ والأب ؟!

فقال برفق :

ـ يرحمه الله !!

فخفق قلبى من أجله ، وخيل إلى أننى أرى جثة رجل رجموه بالحجارة حتى مات ، ثم تركوه فى أرض فضاء ، والطوب منتشر حوله ، وعلى وجهه جروح ، وعلى جبينه تقطيب من لعنة الحياة !!

ثم تنهدت ، ثم نظرت إلى حمودة فرأيته يتابع ببصره من خلال الزجاج شابا يعاكس فتاة على محطة الترام القريبة ، يتابعهما وهو يضحك وينفخ الدخان فى الهواء . فقلت له : أنت لا تتغير . فأجاب :

ـ أنا ؟!... بل الدنيا !!

فسألت :

ـ وما أخبارها ؟

ـ أخبار من ؟ الدنيا ؟

فأجبت بكسوف :

ـ أنت تعرف التى أعنيها !!

فقال بجد ووقار :

ـ زفت !! وقطران !! ومط عنقه الطويل وشفته المتشققة ، ثم استطرد :

- كل ما علمناه أنها لم توفق معه ، وأن هذا أحدث لها صدمة . ثم مات أبوها . ثم رحل الرجل الثانى إلى الإسكندرية ، وتشتت البيت ... تشتت ، وانتقلت البقية الباقية من الأسرة إلى مسكن صغير فى حى لا أعرفه .

وعلمنا مقدما بالنهايات المؤسفة لا يعفينا من الأسى عندما تحين هذه النهاية . ونبض فى عرق كريم . لم ينبض بالشماتة ، بل نبض بالحزن على هذه الأسرة التى ربطت الأيام بينى وبينها لعدة سنوات . حتى خيل إلى أننى لو كنت قادرا على أن أحمل سفينتهم التى تحطمت فيها كل أدوات العوم ، لحملتها على ظهرى ، وخضت بها حتى ألقيتها على الشط . ثم تركتها للقدر .

وبت فى القاهرة ليالى أخرى . ولم أنس قبل سفرى إلى كفر الزيات أن أعود الأماكن التى شهدت أحداث شبابى .

درت حول مدارس النصر المقفلة الأبواب ، فخيل إلى أنها تتدفق بالتلاميذ والتلميذات ، وأن عطيات خارجة تحمل حقيبة من الجلد ، وتقطقط كأنها ذكر الوز .

ثم ذهبت إلى الحارة التى شهدت مأساتنا ، فإذا البيت قائم كما هو ، مطل على الفضاء ذى الشجر . وإذا بالثغرة التى كان العشاق يدخلون منها ليلا قد اتسعت حتى أصبحت بابا . وإذا بأطفال يطلون من نوافذ شقتى القديمة يطير أحدهم بلونا ويلعب الآخر بطيارة من الورق .

ونظرت إلى الحوش ثم ابتسمت . كانت الدرجة المكسورة لا تزال مكسورة ، ولعل أناسا غيرنا قد عثروا فيها . ونحن نعرف موضع العثرة ومع ذلك تصيبنا العثرات .

وأكملت الدائرة ، فذهبت إلى بيتهم القديم ، حيث كان هناك رجل ضعيف وامرأة قاسية ، تلسع كطرف الكرباج . خلفوا ناسا ، ثم فرقتهم يد الزمن .

وعند خروجى من القاهرة ضحا اليوم التالى ، أحسست أننى مرتاح ، وأن فى قدرتى أن أفعل شيئا . لكننى لم أكن متجها إلى شىء معين وإن لاح لى من خلال الغيوم الوجه الذى حدثتك عنه ، الأسمر المخسوف ذو العينين الواسعتين ، والفم الذى يبتسم فى تودد ومسالمة .

ذلك هو وجه الآنسة روحية . المدرسة معى فى مدرسة كفر الزيات للبنات . والتى لم تبادلنى غراما ، وإنما نبهتنى برفق إلى هفوات أحسست بعدها بالراحة ، قالت لى على انفراد ذات يوم : احلق ذقنك يا أستاذ عبده ، لتبدو أكثر جمالا !! وقالت لى على انفراد ذات يوم : لا تتوكأ على العصا ، فأنت فى عز الشباب !! فلما لويت شفتى إنكارا لما قالت ، أكدت لى بعينين صادقتين أن الدنيا بخير !!

ووقفت أفكارى عندما وصلت إلى المدينة التى أقصدها ، ورأيت على بعد قريب ، مبنى البيت الذى أسكنه وأنا منحدر إلى الشارع .

وأحسست بالجوع . وخيل إلى - وكان الوقت عصرا - أننى لم أجع هكذا طول حياتى . جعت بشهية ، وأكلت بشهية فى أحد المطاعم الفاخرة . ثم رجعت إلى البيت فنمت بشهية . ولم أستيقظ إلا والظلام مخيم على الشقة ، وصوت أحد القطارات العابرة يقلقل مصاريع النوافذ ، فأشعلت النور .

وأخذت أجول خلال المسكن كأننى أبحث عن شىء . فوجدت فاكهة فى المطبخ ، فوقفت آكل حتى امتلأ بطنى . ثم أخذت أفتش عن لا شىء ، فوجدتنى أقرأ عناوين الكتب التى أقتنيها .

ومن بين هذه الكتب سحبت يدى قصة ...

كان وجهى إلى مبنى المحطة ، وسارية المصباح الكبير تبدو من خلال الزجاج المقفل ، والأفق البعيد مظلم ، والسماء لا قمر ولا نجوم ، إلا سحاب شتاء جهام أبيض ، لا يمطر ولا يجلو .

وأخذت أقرأ « أنا كارنينا » مرة أخرى . وكأننى أقرأ قصة عطيات . وعلى كثير من صفحاتها رأيت كثيرا من الآثار التى عاشرتنى أكثر من أربعة أعوام . رأيت بقعا من القهوة ، ورأيت تذكرة ترام ، وهناك بقعة حمراء لعلها أحمر شفاه ، وزهرة فى منتصف القصة يابسة صغيرة كأنها من أزهار الخردل ، ونقطة حبر عند نهاية فصل ، وعلامات كأنها آثار الأقدام على الطريق المترب !!

وكان قطار يصفر ، وقروية تصرخ لأنها تعثرت فى أذيالها الطويلة ، فلم تركب ، فتركها ومر . وريح عابرة تحرك المصباح على السارية . وعامل (البلوك) يشاتم زميلا له . وشجرة صغيرة تئز جنب الرصيف . كل هذا وأنا أقرأ كلمات النهاية التى تعجلتها فى قصة (أنا كارنينا) تلك التى أسلمت لقطار سكة الحديد عنقها الفاتن .

وحين فرغ (تولستوى) من فرض الجزاء على الظالمة ، كنت أنا منتصبا وراء الزجاج ، أنظر إلى المحطة ، وإلى قطار جديد يدخل . وتخيلت أن الحادثة ستخرج فورا من بين صفحات الكتاب ، فتتجسم على محطة كفر الزيات ، وأن (أنا كارنينا) ستظهر من وراء الكشك

فى عز وترف وتردد وفتنة ، لتقابل قطار البضاعـة . لكن شيئا ناعمـا كأنـه ثعبان لمس ساقى من أسفل فـارتجفت ، ونظـرت إلـى الأرض فوجدت القطة تتمسح بأثوابى .

لم آكل شيئا ، ولم أشرب شيئا ، بل دخلت إلى الفراش من فـورى ، وأطفأت النور ونفسى لا تزال بكامل شحنتها .

وعادت الحلقات مـن جديد تعرض نفسها أمام خاطرى : أم علـى وجهها تقلص من الدواء المر وتغرى ابنها بالزواج ... وفتاة ذات شـعر بنى وعيون خضـر ، ودرجـة سلم مكسـورة عثرت بهـا فـى الظـلام . وحياة مشوبة غير خالصة . ورجل يرقد بين زوجيـن . وطفلـة تخلفت عن الرحلة فأنجتها الأقدار من سعير الحرب . وحبل يشد حتـى ينقطـع بعد أن مل صاحبه من تلقيه ... و... و... واستغرقت فى النوم .

وقمت فى الصباح أتمطى ، وأحسست أن عظامى دقـت فـى هـون ، وأن ظهرى مكسـور . وكـان شـعاع نحيـل يطـل من زجـاج النـافذة ، وقطار يصفر قبل أن يقوم .

وحين فتحت جريدة الصبـاح ، وقـف بصـرى علـى صـورة ، كـانت شبيهة بعطيات ... كأنها هى .... ملامح متطابقة ... ما هذا ؟

امرأة تقتل بيد عشيقها على سطوح إحدى العمارات ؟!

رحماك يا رب !!

وأخذت أقرأ وأنا مذهول ، وأصوات متداخلة تنصب فى سمعى كمـا ينصب تهافت الناس على الشاطئ فى آذان الغرقى .

« عثر على جثة امـرأة فـى حجـرة علـى سـطح عمـارة مكونـة مـن سـبعة أدوار مقتولـة بطعنـات سـكين فـى أمـاكن مختلفـة مـن صدرهـا

وبطنها ، ودلت التحريات على أن الذى قتل « عطيات ... » هو عشيقها الذى اكترى لها هذا المسكن ، وكان يتردد عليها فيه ...

وقد ألقى القبض على القاتل ، وهو شاب فى الخامسة والعشرين ... » .

وقرأت الخبر ، ونظرت إلى الصورة . ثم عدت ففعلت . كدت لا أصدق .

لكننى ذكرت فجأة أن هذا الجسد الذى مزقته السكين تمدد فى أحضاني عدة سنوات ، وأنه كان من الجائز جدا ، أن يكون أما لأولاد أنا أبوهم ...

وذكرت الرجل الضعيف ، والأم الشريرة ، وجمال افندى ، وفراره من مدينة إلى مدينة ، وجموده ، وأشياء أخرى ، وأخيرا ... أنا كارنينا ... !!

وكانت عيناى مليئتين بالدموع . جدا . وأشباح تتخايل أمامى فى الحجرة فيها صورة مقلوبة لزوجين ، وامرأة بشعر بنى وعيون خضر !! ومن خلال الدموع طفت صورة ... صورة امرأة سمراء بوجه مخسوف ، وعيون واسعة ، وفم يبتسم فى تودد ومسالمة . هذه صورة روحية . وكانت مقبلة على وفى يدها عود أخضر ... يخيل إلى أنه غصن من الزيتون .

وهل يكون الحب إلا سلاما ، وهل يكون السلام إلا حبا ؟!

(تمت بحمد الله)

« قصص للمؤلف »

١ ـ لقيطة (ليلة غرام) : جائزة المجمع اللغوى لأحسن قصة أدبية وجائزة وزارة الشئون لأحسن قصة سينمائية وترجمت إلى اللغة الفارسية .

٢ ـ بعد الغروب : الجائزة الأولى الممتازة من وزارة التربية والتعليم ، قصة الفقير الموهوب يشق طريقه بالفأس فى صخرة .

٣ ـ شجرة اللبلاب : قصة عذراء أهدت قلبها إلى شاب متردد شكاك .

٤ ـ الوشاح الأبيض : قصة امرأة متكبرة .

٥ ـ شمس الخريف : جائزة الدولة ١٩٥٣ ، ماذا تأخذ منا الحياة وماذا تعطى .

٦ ـ النافذة الغربية : مجموعة أقاصيص .

٧ ـ غصن الزيتون : لا تجعلنا نحب من لا يحبوننا حتى لا تشقينا بالحب مرتين .

٨ ـ من أجل ولدى : تحت الطبع

رقم الايداع ٥١٦٠
الترقيم الدولى ٤ ــ ٣١٦ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧



736

الثمن ٤٢٥ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه